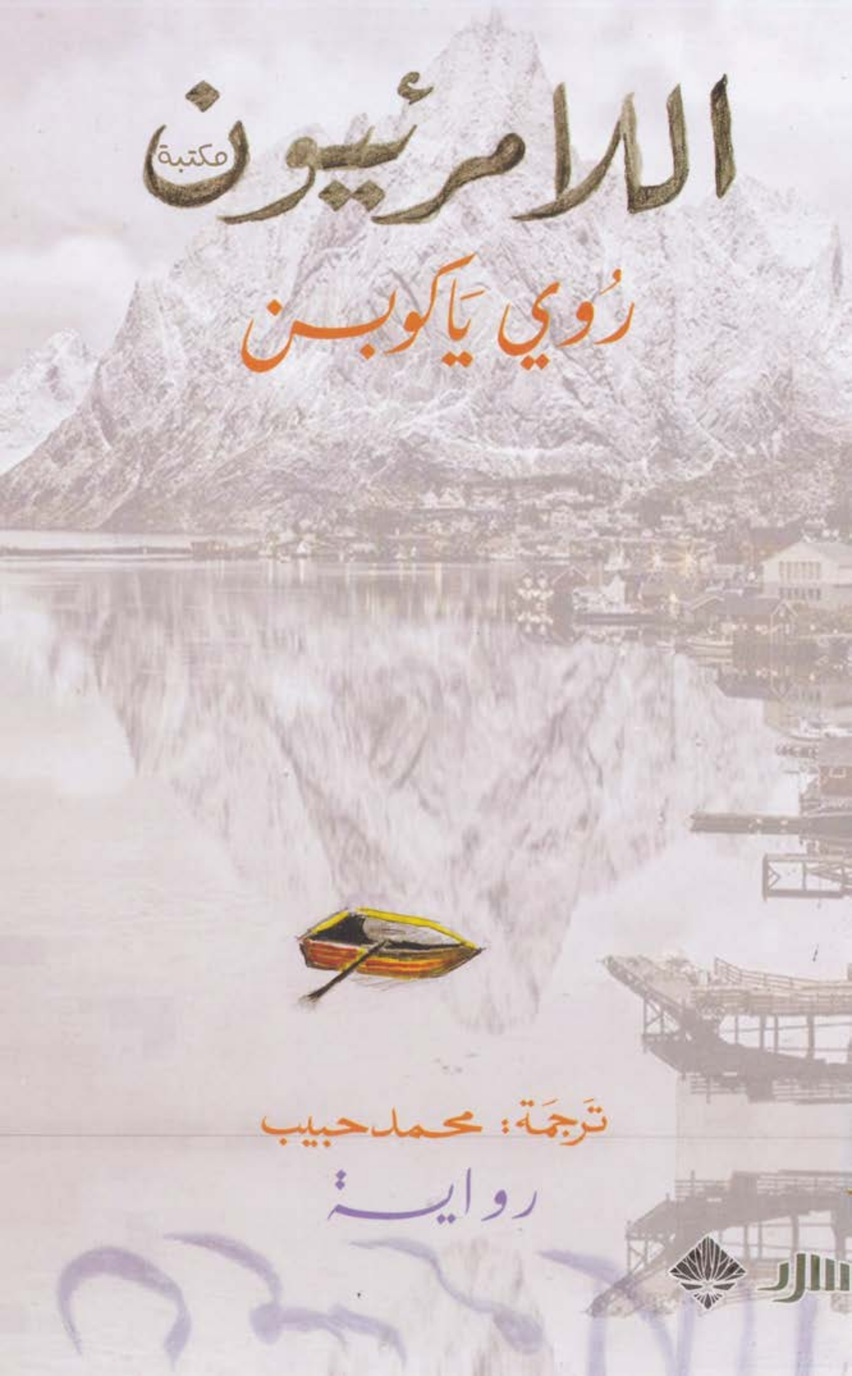
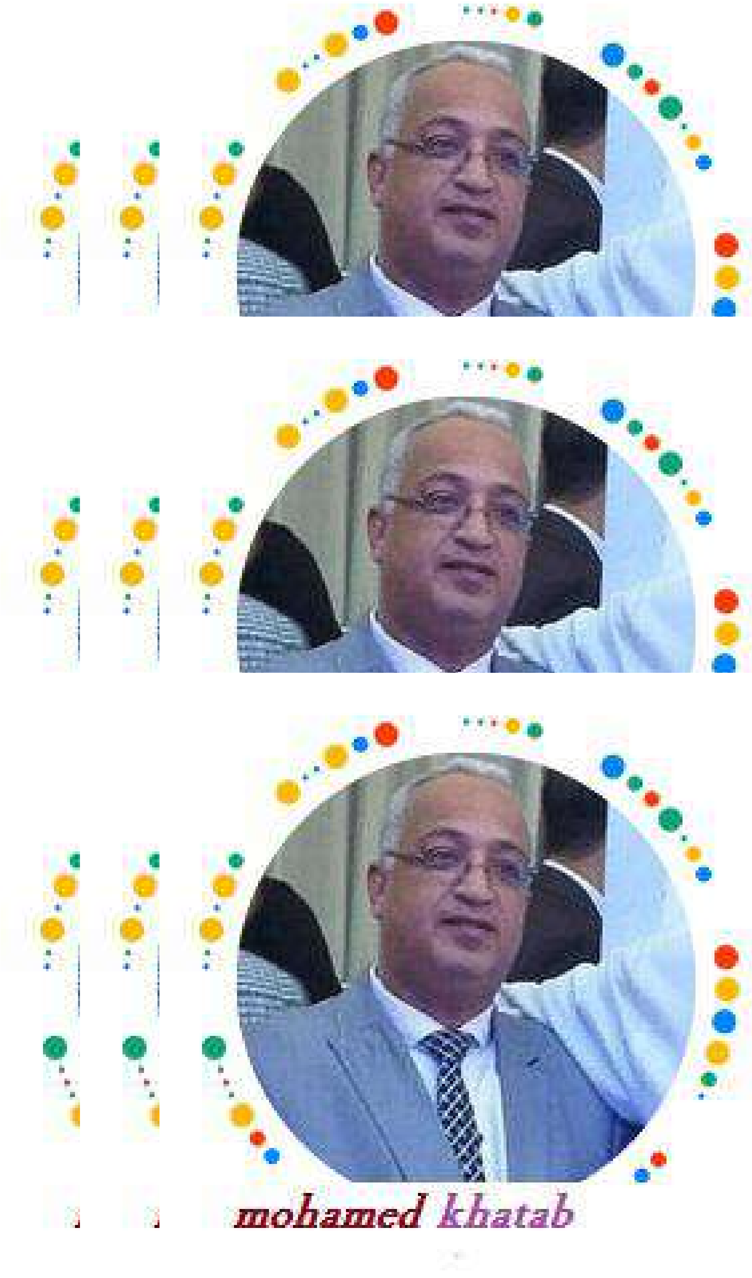


اللامرئيون

رُوي يَاكوبسن

ترجَمَة: محمد حبيب

رواية


mohamed khatab

De Usynlige
Roy Jacobsen

اللامرئيّون - رواية
تأليف: روي ياكوبسن
ترجمها عن النرويجية: محمد حبيب

تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 3 - 44 - 641 - 9933 - 978
الطبعة الأولى: 2021

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

روي ياكوبسن

اللامرئيّون

رواية

ترجمها عن النرويجية:
محمد حبيب

This translation has been published with the
financial support of NORLA.

- 1 -

في يوم تمّوزيّ لا ريح فيه، يتصاعد الدخان عمودياً إلى السماء. يستقلّ القسّ يوهانس ماليرغيت قارباً رباعي المجاديف إلى بارأوي(*) ليقابل هانس بارأوي، الصيّاد الفلّاح، مالك الجزيرة الشرعي وربّ الأسرة الوحيدة التي تقطنها. يقف هانس على الرصيف الذي بناه أسلافه من صخور الشاطئ، وهو يراقبُ تقدّم القارب، ويرى الآن بوضوحٍ الظهر المقوّس لكلا المُجَدِّفين، ومن وراء قبّعتيهما القماشيتين السوداوين، وجه القسّ المبتسم الحليق حديثاً. وعندما يصل القاربُ إلى الرصيف يصيح هانس: «أهلاً وسهلاً، بكِرامِ الناسِ!».

ينهض القسّ واقفاً ويجيل النظر في الشاطئ والمروج الممتدّة صعوداً نحو البيوت(**) وسط مجموعة أشجار صغيرة، يصيخ السمع إلى طيور النورس سود الظهور وهي تزبِط مثل الإوز «كواك كواك» على كل صخرة

(*) هذا اسم الجزيرة، ونسبة مالكيها. والاسم في اللغة النرويجية مؤلَّف من مقطعين «بار: اسم العائلة لمالك الجزيرة» و«أوي: الجزيرة»، لكنني فضّلت استعمال الاسم كما هو على استعمال الترجمة الحرفية له: «جزيرة بار». (م).

(**) هي مجموعة غرف بُنيت في أوقات مختلفة، لتكمل بعضها بعضاً، وتسكنها العائلة نفسها. (م).

من صخور الساحل، وطيور الخرشن والخوص التي تنقر في هذه الشواطئ الثلجية البيضاء تحت أشعة الشمس الحارقة.

عندما يغادر القسّ القارب، ويخطو بضع خطوات فوق الرصيف، ترى عيناه منظراً لم تقعا عليه من قبل، قريته الممتدّة على سفوح جبال الجزيرة الرئيسية، كما تبدو من بارأوي. يرى المركز التجاري، والبيوت من حوله، والمزارع، وشرائط الغابات وأسطول القوارب الصغيرة.

«قل لي، لماذا تبدو البيوت صغيرة جداً؟! فأنا أكاد لا أرى بيتي، هناك!».

يقول هانس بارأوي: «أوه، أنا أستطيع رؤيته بوضوح!».

«هذا يعني أن بصرك أفضل من بصري»، يقول القسّ، ثم يعود للتحديق إلى تلك الرعيّة التي يقوم على خدمتها منذ ثلاثين عاماً، لكنه لم يرها من قبل، من هذا المكان المذهل.

«أجل، فأنت لم تأتِ إلى هنا من قبل».

«يحتاج المرء إلى ساعتَيْ تجديف للوصول إلى هنا».

«لكنْ، لديكم شِراعٌ أيضاً»، يقول هانس بارأوي.

«لا رياح اليوم، كما ترى»، يقول القسّ، وهو مازال يحدّق صوب بيته، وحقيقة الأمر هي أن القسّ يخاف ركوب البحر، وهو ما زال يرتجف، وتغمره السعادة لوقوفه هنا حيّاً بعد هذا العبور الهادئ.

يتناول المُجدّفان غليونيهما، يولّيان ظهريهما للرصيف ومَن عليه، ويشرعان في التدخين. أخيراً يستطيع القسّ أن يصافح هانس بارأوي وينظر في الوقت نفسه إلى بقية أفراد العائلة، الذين نزلوا من البيوت لاستقباله: العجوز مارتن، والد هانس، الأرمل الذي توفّيت زوجته قبل نحو عشر

سنوات، باربرو، شقيقة هانس العزباء الصغيرة. وماريا، المرأة الحاكمة في الجزيرة، التي تمسك بيد إنغريد ذات السنوات الثلاث، وكلّهم يلبسون ثياب الأحد، يُخَمّن القسّ برضاً أنهم قد شاهدوا القارب عندما تجاوز جزيرة أوترهولمن، التي تبدو الآن مثل قبّعة سوداء طافية فوق مياه المحيط إلى الشمال.

يسير باتجاه مستقبليه الذين وقفوا صفّاً واحداً يحدّقون إلى العشب، ويصافحهم الواحد تلو الآخر، دون أن يغامر أحدهم برفع بصره، ولا حتى العجوز مارتن، الذي خلع قبّعته الصوفية الحمراء، وأخيراً إنغريد، التي يلاحظ القسّ أن لديها يدَين بيضاوين، نظيفتين، وأظفاراً لا سخامَ تحتها، ولا هي مقضومة، بل مُقلّمة بدقّة، وغمّازاتٍ صغيرةً ستحلّ محلّها البراجم في النهاية. يقف ساكناً يتأمّل هذا العمل الفنّي الصغير، ويفكّر أنهما سرعان ما تصبحان يدَيْ امرأةٍ كادحة، يدين معروقتين خشنتين ملوّثتين بالتراب، يدي رجلٍ، جميع الأيادي هنا تصبح قطعاً خشبية عاجلاً أم آجلاً. يقول القسّ: «آه، هذه أنت إذاً، يا صديقتي الصغيرة، هل تؤمنين بالله؟!».

لا تجيب إنغريد.

«بالطبع تؤمن!»، تقول ماريا، وهي أول من ينظر مباشرةً إلى الضيف، الذي يقوم فجأةً باستكشافه الأولي من جديد، ويخطو بضع خطوات متجاوزاً سقيفة القارب التي ترتفع مثل درجة وسط هذا المشهد، ثم يصعد التلّ حيث يبدو المنظر أفضل.

«الآن أستطيع أن أرى بيت القسّ أيضاً».

يمشي هانس متجاوزاً القسّ ويقول: «ومن هنا تستطيع أن ترى الكنيسة».

يمشي القس بسرعةٍ ويقف وراءه، ويبدي إعجابه بالكنيسة المطليّة

باللون الأبيض، والتي تبدو الآن مثل طابع بريدي شاحب على سفوح الجبال السوداء حيث بُقَعُ الثلج المتبقّية على قممها تشبه أسناناً في فمٍ متعفّنٍ.

يتابعان الصعود ويتحدّثان عن التعميد والصيد، ولُحُفِ العَيدر(*)، وعن سعادة القسّ بوجوده في بارأوي، التي تبدو من بيته مثل صخرة سوداء في الأفق، لكن يتبيّن له الآن أنها الحديقة الأكثر خضرة، كما ينبغي أن يعترف بين يدي الله، مثل العديد من الجُزر الأخرى التي تسكنها عائلة أو عائلتان، أما جزر ستانغهولمن، سفاين، لوتفار، شارفين، موسفار، وهافستاين، فهو يعتقد أن كلاًّ منها تسكنها حفنة من الناس الذين يزرعون طبقة التربة الرقيقة، ويصيدون في أعماق المحيط، وينجبون أبناءً يكبرون وينخرطون أيضاً في زراعة الأرض ذاتها والصيد في أعماق المحيط ذاته؛ فهذا الساحل ليس قاتماً ولا عقيماً، بل هو سلسلة من اللؤلؤ وقلادة من الذهب، كما اعتاد أن يؤكّد في عِظاته الأكثر إلهاماً. وإذا سألنا عن سبب ندرة زياراته إلى هنا؟

البحر هو السبب.

القسّ سرطان برّيٌّ(**)، وقليلة هي أيام السنة الشبيهة بهذا اليوم، الذي انتظره طيلة فصل الصيف. والآن، هنا، من فوق طبقة العشب التي تغطّي سفح جسر الحظيرة، ينظر إلى رعيّته الأبدية، هناك حيث وقف الله على أرضه منذ العصور الوسطى، وتتناهبه مشاعر الخجل والضيق من أنه لم يعرف، قبل الآن، كيف تبدو رعيته، كأنه كان يلبس حجاباً على عينيه طيلة

(*) أغطية النوم، وهي مصنوعة من زغب طيور العيدر الذي يمتاز بخاصية تنظيم حراري ممتاز. (م).

(**) اسمها العلمي Gecarcinidae، وهي عائلة من السرطانات، تعيش في الغالب على اليابسة. فالقسّ شخص غير معتاد كثيراً على البحر، ولذلك يبدو محرجاً وعاجزاً على متن سفينة أو قارب. (م).

السنوات المنصرمة، أو أنه كان ضحية عملية خداعٍ طيلة حياته، ليس في ما يتعلّق بحجم رعيّته فحسب، بل ربما أيضاً بحجم رسالته الروحية، ألا يفترض أنها أكبر من ذلك؟

لحسن الحظ هذه الأفكار ليست مخيفة وإنما مقلقة، إنها ميتافيزيقيا البحر حيث كلّ المسافات مخادعة، وكان على وشك أن يفقد تركيزه ثانية، عندما اقترب منه أفراد العائلة: العجوز مارتن وقد لبس قبّعته الصوف ثانية، ومن ورائه ماريا تسير بجلالة، وفي إثرها باربرو القوية، التي لم يستطع القسّ في الماضي أن يعمّدها، لأسباب مختلفة وغامضة إلى حدٍّ ما، طفلة الله الصامتة على جزيرة في المحيط، يتبيّن له في الواقع أنها جوهرة.

يناقش القسّ معهم أمور التعميد الوشيك لإنغريد، الطفلة ذات الثلاث سنوات، بشعرها البنّي القطراني الطويل، وعينيها السوداوين، وقدميها اللتين ربما لن تعرفا الحذاء قبل شهر تشرين الأول؛ من أين لها هاتان العينان، الخاليتان من الغباء والخُمول الناجم عن الفقر؟

وفي غمرة حماسه يعلن أنه يودّ أن يسمع غناء باربرو في حفلة التعميد، فهي تمتلك صوتاً جميلاً على ما يذكر!

ينتشر الإحراج بين أفراد الأسرة.

يسحب هانس القسّ جانباً ويشرح له أن باربرو ورغم امتلاكها صوتاً جميلاً فهي لا تحفظ كلمات الترانيم تلك، هي تصدر أصواتاً تعتقدها صحيحة – وغالباً ما تكون كذلك، وقد كان ذلك سبباً في عدم تعميدها في الماضي، إضافة إلى أسباب أخرى يتذكّرها القس جيّداً.

يتجاهل يوهانس مالبيرغيت أمر الغناء، لكن، لديه سؤالٌ آخر يودّ أن يطرحه على هانس بارأوي، بشأن تلك المرثية الغامضة، وهي عبارة عن شَطرِ شِعرٍ منقوشٍ على شاهدة قبر والدته، وهذا أمرٌ يقلق القسّ منذ أن

دُفنت في مقبرة الكنيسة، ويعتبره غير مناسب لشاهدةِ قبرٍ، فهو غامض ويبدو من مغزاه أن الحياة لا تستحقّ أن تُعاش. ونظراً لأن هانس لا يقدّم أي إجابة واضحة بخصوص ذلك، يعود القس إلى لُحُفِ العَيدر ويسأله ما إن كان لديهم منها ما يبيعونه، فهو بحاجة إلى لحافين جديدين في بيته، وسيدفع لهم أكثر مما يحصلون عليه في السوق أو في المركز التجاري، لأن لُحف العَيدر تساوي وزنها ذهباً، كما يقول الناس هنا.

أخيراً لديهم شيء ملموس وواضح كضوء النهار يتحدّثون عنه، فيدخلون إلى بيت المزرعة حيث وضعت ماريا مفرش مائدة على الطاولة في الصالون، وبعد فطيرة الليفسر(*) والقهوة وصفقة مُرضِية للطرفين، يرتاح الكاهن ويشعر أن أعظم نعمة له الآن هي النوم، فتنطبق جفونه ويصبح تنفّسه أثقل وأطول. فهو يجلس على كرسي مارتن الهزّاز ويداه في حضنه. قسٌّ نائم في منزلهم! مشهد مثير للإعجاب وللسخرية أيضاً. يتحلّقون حوله، جالسين وواقفين، حتى يستيقظ ثانية. يتلمّظ وينهض ويبدو أنه لا يعرف أين هو، لكنّه سرعان ما يميّز أفراد العائلة وينحني لهم. كأنه يشكرهم. لا يعرفون لماذا يشكرهم، كما أنه لا يقول أي كلمة وهم يصحبونه إلى القارب مودّعين، وهو يحمل في يدٍ كيساً فيه لحاف العيدر، وفي الأخرى سطلاً صغيراً مليئاً ببيض طيور النورس، ويرونه كيف يستلقي فوق شباك الصيد في مؤخرة القارب من أجل أن يغمض عينيه ثانية، ويبدو لهم أنه ينام أيضاً وهو يغادرهم. وما زال الدخان يتصاعد عمودياً إلى السماء.

(*) رقائق خبز منزلي طري يوضع بينها الزُّبد والسكّر ومسحوق القرفة، وما زالت تباع حتى الآن في المتاجر كمعجنات تقليدية. (م).

- 2 -

باستثناء الأرض ذاتها، كلّ ذي قيمة على الجزيرة يأتي من خارجها. لكن سكّان الجزيرة ليسوا هنا بسبب الأرض، وهم يدركون ذلك بألم. لقد كسرَ هانس قبضة منجله ولم يعد قادراً على متابعة جزّ الحشيش لتجفيفه وتحويله إلى تبن. وهو لا يستطيع أن يَنجُرَ قبضةً جديدة من المواد الموجودة على الجزيرة، فهذه يجب أن تُنجَرَ من خشب المُرّان، الذي يستطيع شراءه من المركز التجاري، أو بوسعه أن يستعمل نوعاً آخر من الخشب يمكن أن يحصل عليه دون مقابل.

يغرز نصل المنجل في رأس عمود سقالة التبن، ويسير على طول الممرّ العشبي إلى رصيف القارب، يدفع القارب خارج السقيفة(*) إلى البحر الزمرّدي، وفي اللحظة التي يوشك فيها أن يركب القارب يغيّر رأيه، فيصعد إلى البيوت حيث ماريا جالسة وظهرها إلى الجدار المواجه للجنوب وهي ترقّع بنطالاً، ترفع رأسها وتنظر إلى الأعلى عندما يلتفّ هانس حول زاوية البيت ويدخل.

(*) سقيفة القارب، غرفة عالية من الخشب نصفها الأول على اليابسة ونصفها الثاني يعلو الماء قليلاً، ولها باب لدخول القارب وخروجه، وغالباً ما يكون فيها سقيفة توضع فيها كل معدّات القارب والصيد، كما تستخدم للمنامة أيضاً. (م).

«أين البنت؟» يسأل بصوت عالٍ قليلاً، وهو يعرف أن إنغريد قد رأته واختبأت، من أجل أن يبحث عنها ويؤرجحها بذراعيه وهو يدور حول نفسه.

تومئ ماريا باتجاه قبو البطاطس.

لكن والد إنغريد يعلن بالصوت العالي ذاته أنها لن تستطيع الذهاب معه إلى سكوغهولمن، ويسير باتجاه الرصيف ثانية، لكن ما إن يقطع بضعة أمتار حتى يسمع خطواتها وراءه، فينحني في اللحظة المناسبة تماماً لتقفز على ظهره وتطوّق عنقه بذراعيها بينما يركضُ هو نازلاً المنحدر مثل الحصان، ويصدر أصواتاً لا يصدرها إلا عندما يلعبان معاً بمفردهما.

تلك الضحكة.

يسألها ما إن كانت تريد أن يأخذا جلد الخروف معهما.

«أجل!»، تقول وتصفّق فرحاً.

يذهب إلى سقيفة القارب، يُحضر جلد الخروف ويضعه في نهاية القارب حيث يبدو مثل فراشٍ، ثم يعود إلى الشاطئ مرة أخرى ويحملها إلى القارب. تستلقي على جلد الخروف، وتسند ظهرها إلى مؤخرة القارب كي تتمكّن من رؤيته وهو يجدّف، وتنظر من فوق حافتي القارب وهي تنقل رأسها من جانب إلى آخر، وأصابعها الصغيرة معلّقة مثل دود اللوغوس الأبيض على حافتي القارب قرميديّتَي اللون.

تلك الضحكة.

يُجدّف حول اللسان البحري، ثم بين عددٍ لا يُحصى من الجزر والصخور، ويختار الطريق المباشر إلى سكوغهولمن، بينما يحدّثها عن التعميد المُرتقبِ بعد ثلاثة أسابيع، والكنيسة التي جرى تزيينها بفخامة من أجل تعميد أطفال من مختلف الجزر، وعددهم ثمانية، وكيف أنها هي

الوحيدة من بينهم القادرة على أن تمشي بمفردها إلى جرن المعمودية، وأن تنطق اسمها عندما يسألها القسّ ماذا تريد أن تُسمّى، ويذكّرها والدها أنها كَبُرت على الاستلقاء هناك مثل جثّة على جلد الخروف بينما بوسعها القيام بشيء مفيد لها، أو أن تمسك بخيط الصيد، فقد يعودان إلى البيت بسمكة بولاك أو اثنتين، بدلاً من العودة فقط بالمادة الخام لصناعة مقبض جديد للمنجل.

تجيبه إنها لا تريد أن تكبر، وتستمر في التعلّق بجانبي القارب، على الرغم من طلبه منها أن تجلس منتصبة في القارب. يغيّر اتجاهه من أوترهولمن نحو شجرة الروان في الجهة الجنوبية من جزيرة مولتهولمن، ثم يغيّر مساره ثانية بعد ثمانين تجديفة، ويدخل بين الشُّعب المرجانية حيث الماء عميقٌ كفايةً في هذا الوقت من اليوم، ومن ثم يحوّل مسار القارب إلى فجوة بين الصخور داخل الجزيرة، حيث دقَّ سابقاً مربطاً حديدياً في الصخور الجرداء.

يطلب من إنغريد أن تذهب إلى الشاطئ مع حبل الإرساء. تصعد الصخرة وتقف هناك ثابتة وهي تمسك بالقارب كما لو أنه بقرة مربوطة، بينما ينهض هو واقفاً على قدميه وينظر حوله، وكأن هناك ما ينظر إليه: الطيور في السماء، الجبال على اليابسة وراء جزيرته، بارأوي، وزعيق خطّاف البحر الحادّ، ومضاتٌ بيضاء وسوداء تتقاطع في الهواء فوقهما.

يصعد إلى اليابسة ويوضح لها كيف تقوم بربط عقدة القرنفل. تفشل في ذلك وتفقد أعصابها، يُريها مرّة أخرى كيف تفعلها، ثم يربطانها معاً، فتضحك، تصف غرزة حول الوتد. يقول لها إنها لن تدخل معه إلى الغابة لأنها مليئة بالحشرات، لكن بوسعها أن تسبح في البركة بين الصخور ريثما يعود.

«تذكّري أن تخلعي ملابسك!».

في أيكة صغيرة أسفل الوادي الممتد من الشمال إلى الجنوب يجد أربعة جذوع مستقيمة، ليست مُرّاناً، بل نوع من الأشجار التي ما كان ينبغي أن تنمو في أقصى الشمال، في إحداها انحناء عند القاعدة، الأمر الذي سيساعده في حملها على كتفه. لم يكن ليحلم بلقيةٍ كهذه.

يضع القاعدة المحنيّة على كتفه، ويصعد التلّة، ثم ينزل المنحدر إلى الأسفل بجانب البركة بين الصخور، حيث تجلس إنغريد في الماء الذي يغمرها حتى إبطيها، وتنظر إلى يديها، تشبك أصابعهما ثم تضرب راحتيها ببعضهما، فيندفع الماء مثل نافورة ويهطل على وجهها مثل المطر وهي تكشّر وتقهقه. تلك الضحكة. وقلقه، الذي لم يهدأ منذ أن وُلِدَتْ.

يميل إلى الوراء ويسند كتفيه على وجه صخرة خشنة، فتلامس مؤخرةُ رأسه الحجرَ. يبقى على هذه الحالة وهو يحدّق في سربٍ من طيور الخرشن، بينما يستمع إليها وهي تطرح أسئلة مثل أيّ طفل آخر، ثم تطلب منه أن ينضمّ إليها، لكن الأصوات الرائعة المتناثرة من حوله والرياح الشرقية، والملح على شفتيه، والعرق والبحر، تُنزله في دوّامة من الضوء والظلام، ثم يصحو منها، وهو يحدّق بها وهي تقف عارية في ضوء الشمس، وتسأله ما إن كانت تستطيع أن تجفّف نفسها بملابسه.

«خذي هذا!»، يقول وهو يخلع قميصه. فيسمع ضحكتها من بياض جسده، بالمقارنة مع اللون الأسود الفاحم في ذراعيه ورقبته، وكيف أنه يبدو مثل الدمية التي صنعها لها بأجزاء لا تتناسب في ما بينها، وهذا خيالٌ طفوليّ عادي، اسم الدمية أوسكار، وأحياناً تدعوها آني.

في طريق العودة يصيدان ثلاث سمكات بولاك، ممدّدة الآن الواحدة بجانب الأخرى عند قدميها وهي تجلس منطوية على نفسها في قميصه.

يطلب منها أن تعيد له قميصه لأن الجوّ بدأ يميل إلى البرودة مع اقتراب المساء. تناوله القميص وتجلس على جلد الخروف، تلفّ ذراعيها حول رجليها وتنظر إليه باستفزازٍ من فوق ركبتيها.

«أنت تضحكين من كل شيء!»، يقول لها ويفكّر أنها تعرف الفرق بين اللعب والجِدّ، ونادراً ما تبكي، لا تعصي ولا تتحدّى ولا تمرض أبداً، وتتعلّم ما تحتاج إليه، لذلك يجب أن يكُفَّ عن قلقه عليها.

«ألن تبدئي بها؟»، ويومئ برأسه إلى السمكات.

«إنها حقيرة!».

«من أين تعلّمت هذه الكلمة؟».

«من أمي».

«أمك لطيفة جداً معها. لكننا لسنا كذلك؟».

تفكّر في كلامه وهي تمصّ إصبعها.

يقول لها: «النوارس تحوم فوقنا».

تُدخل يدها اليمنى في بطن أكبر سمكة، تنزع أحشاءها وترفعها عالياً باشمئزازٍ. يستمرّ في التجديف ويغيّر الاتجاهات أثناء التجديف، وهي تقذف الأحشاء عن جانب القارب وتراقب طيور النورس وهي تنقضّ فوق الأحشاء تطرطش وتتقاتل كأنها في صراع حياة أو موت. تمزّق بطن السمكة الثانية، وتقذف أحشاءها عالياً للطيور، ثم تنزع أحشاء السمكة الأخيرة، تتكئ على حافة القارب، وتشطف السمكات الواحدة تلو الأخرى، وتضعها جنباً إلى جنب على أرضية القارب، السمكة الأكبر إلى اليمين، ثم السمكة الوسطى، وبعدها السمكة الصغيرة، تغسل يديها ببطء حتى تنظفا تماماً. يفكّر وعيناه نصف مغمضتين أن لا عيبَ في ذهن هذه

الطفلة، ويعرف من ثقل القارب أنها لا تزال متكئة على جانبه وترسم ديداناً في الماء، لذلك عليه أن يدخل بمؤخرة القارب إلى الرصيف، ثم يجرّه إلى منتصف السقيفة ويضع المساند الخشبية تحت جانبَي القارب، لأن المَدَّ وشيكٌ.

تصعد الطريق أمامه، وفي يدها الصيد الذي تتساقط منه قطرات الدم الأخيرة مثل خيط رفيع. يلحق بها وعلى كتفه أربعة جذوعٍ من الشجر، والفأس تحت إبطه، وفي يده ملابسها الجافة. يتوقّف وينظر إلى الشمس في الشمال الغربي، لقد أصبحت شاحبة وضبابية وسرعان ما يظهر القمر، والليل يقترب، ويتساءل ما إن كان عليه إصلاح المنجل الآن أو أن ينام بضع ساعات، قبل أن يسقط الندى على الحديقة الوردية صباح الغد؛ فالندى يسقط أولاً في الحديقة الوردية حيث ينمو عشبٌ أحمرُ غريب.

- 3 -

كلّ ما يلفظه البحر على الجزر يصبح مِلكاً لمن يجده، ويجد سكّان الجزر أشياء كثيرة. قد تكون سُدادات فلّين، براميلَ وقنّباً، أخشاباً وأطوافاً، كراتٍ زجاجية خضراء وبنّية تستعمل للحفاظ على شباك الصيد طافية في الماء - وهذه يجمعها العجوز مارتن بارأوي من بين أعشاب البحر التي تدفعها العواصف إلى الشاطئ، ثم يجلس في سقيفة القارب ويستعملها في صناعة شباكٍ جديدة. وقد توجد لعبة خشبية لإنغريد، أو صناديق سمكٍ ومجاديف، رماح، بكرات أقواس، دلاء نزحٍ، صوارٍ، ألواح خشب وبقايا قوارب. وذات ليلة شتوية جرف البحر إلى الجزيرة قُمرة قيادة كاملة. استخدموا الحصان لسحبها ووضعها في الحديقة الجنوبية كي تستطيع إنغريد أن تجلس في كرسي القبطان الدوّارة، وأن تدير عجلة القيادة المصنوعة من النحاس وخشب الماهوجني وهي تنظر إلى المروج والأسيجة الحجرية التي تتدحرج مثل الأمواج فوق الجزيرة.

إنها ثمانية أسيجة.

جدران بُنيَت من الحجر الذي تدفعه الأرض إلى سطح التربة مثل الزجاج الذي يطفو في البحر، لكن ببطءٍ شديد، ويستغرق الأمر العديد

من فصول الشتاء حتى تظهر هذه الصخور على سطح الأرض، عندئذٍ يجمعونها في فصل الربيع ويصنعون منها أسيجة يزيدون ارتفاعها باستمرار. تقسم الأسيجةُ الجزيرةَ إلى تسعة مروج، أو حدائق كما يسمّونها. الحديقة الجنوبية هي الأكثر عرضة للخطر، حيث يتطاول البحر عليها، بكلّ وحشيّته. تليها حديقة الصدر، التي لا أحد يعرف من أين جاءها هذا الاسم، لكن يمكن أن يُعزى إلى الحشائش الخضراء مخروطية الشكل وبقع العشب حول الصخور البارزة التي تشبه الأثداء الكبيرة والصغيرة بعد أن ترعى الأغنام العشب من حولها، وبعد أن يُجمع الحشيش كلّه. ثم حديقة الصخور، لأنها تحتوي على أحجار أكثر من بقية الحدائق، الحديقة الوردية حيث الحشيش هناك أحمر اللون مثل التوت البري الفجّ، حديقة الإسطبل، وهذه تحيط بالبيوت، حديقة عدن وتقع في الجهة الشمالية، لكنها وعلى الرغم من ذلك هي الأكثر خصوبة، حيث توجد حقول البطاطس دائماً، وحديقة الإسقربوط أيضاً، وحديقة الشمال وحديقة العَوَزِ، وكلّها تستحقّ أسماءها بجدارة، رغم أن حديقة العَوَزِ هي الأكثر خضرة من بين الجميع، وهي تغلّفُ سقيفة القارب وتمتد حول رصيف القارب مثل قفّاز أخضر سميك.

لكن القمامة هي اللقايا الأكثر وفرةً عموماً.

يجدون خنازير بحرية نافقة، طيور الغُداف، وطيور الغاق النافقة المليئة بغازات نتنة. يخوضون في الأعشاب البحرية ويجدون فردة حذاءٍ وقبّعةً وشارة وعكازاً وبقايا من حياة أجنبية، كدليل على البذخ، الكسل، الفقد، الإهمال، والمصائب التي حلّت بأناس لم يسمعوا بهم من قبل ولن يقابلوهم أبداً. ويعثرون أحياناً على أشياء لا يمكنهم أن يعرفوا قصتها، كأن يجدوا معطفاً بجيوبٍ مليئة بصحف وتبغٍ إنجليزي، إكليل زهرٍ على قبر

مائي، بقايا علم فرنسي بألوانه الثلاثية على سارية، وصندوقاً لزجاً يحتوي على أكثر الممتلكات حميمية للمرأة.

في مرّاتٍ نادرة يعثرون على رسالة في زجاجة، تحتوي على مزيج من الشوق والأسرار المكتوبة لغير من وجدوها. لكن لو وصلت إلى المعنيّين بها، ربما جعلتهم يبكون دماً ويحرّكون السماوات والأرض. يفتحها سكّان الجزر برصانة ثم يُخرجون الرسائل ويقرؤونها، هذا إن فهموا اللغة المكتوبة بها، ويتأملون محتوياتها، وتكون انفعالاتهم سطحية وغامضة - فالرسائل في الزجاجات هي مُرَكّبات أسطورية من الشوق، والأمل والحياة الخائبة، بعدئذٍ يضعون الرسائل في صندوق مخصّص للأشياء التي لا يمكن امتلاكها ولا التخلّص منها، ثم يعقّمون الزجاجات بغليِها في الماء ويملؤونها بعصير الكشمش الأحمر، أو يضعونها ببساطة على إفريز النافذة في الحظيرة كنوع من الدلالة على أنها فارغة، وهناك يمكن أن تتألّق أشعة الشمس من خلالها وتتحوّل إلى اللون الأخضر قبل أن تنكسر إلى الأسفل وتستقرّ في القشّ الجافّ المتناثر فوق الأرضية.

ذات صباح خريفي يجد هانس باراوي شجرة كاملة اقتلعتها عاصفة، وانتهى بها المطاف على الطرف الجنوبي من الجزيرة. شجرة عملاقة. تأخذه الدهشة ولا يستطيع أن يُصدّق عينيه.

الآن يهدأ البحر والرياح، وتستقرّ الشجرة هناك مثل هيكلٍ عظميّ لوحشٍ من عصور ما قبل التاريخ، جثّة حوت، جذورها وأغصانها سليمة، لكنّها خالية من الإبر واللحاء، فقد التهمها البحر، طنٌّ من الراتينج الأبيض، مفيدٌ جداً في جميع أنحاء العالم، يُستخدم لتشميع أقواس عازفي الكمان المشهورين مما يساعدهم على إنتاج نغمات نقية. إنها شجرة صنوبر روسية نمت وتعملقت عبر مئات السنين على ضفاف نهر ينيسي في براري

كراسنويارسك، حيث تركت رياح التايغا بصماتها عليها كما بصمات المشط في شعرٍ دهني، ثم اقتلعها بعدئذٍ فيضانٌ ربيعيٌّ بأسنان جليدية ورماها في النهر، وساقها ثلاثمئة أو أربعمئة ميلٍ شمالاً إلى بحر كارا، وتركها في براثن التيارات المالحة التي حملتها شمالاً إلى حافة الجليد، ومن ثم غرباً على طول نوفايا زيمليا وسبيتسبيرجين وصولاً إلى سواحل غرينلاند وآيسلندا، حيث انتزعتها التيارات الأكثر دفئاً من قبضة سابقتها، وقادتها بقوّةٍ إلى الشمال الغربي مرّة أخرى، في نصف دورة حول الأرض، استغرقت عقداً أو عقدين، قبل أن تلفظها العاصفة الأخيرة على جزيرة في الساحل النرويجي حيث وجدها ذات صباح باكر من شهر تشرين الأول، هانس بارأوي، الذي يقف وينظر إليها وقد شلّت الدهشة لسانه.

لم يرَ أحدٌ من قبلُ شجرةً عملاقةً كهذه في هذه المنطقة.

يركض إلى المنزل ويجلب عائلته.

يشرعون في تقطيع أوصال الطريدة، ينشرون الأغصان والجذور ويضعونها عند جدار الحظيرة الشمالي، ليستعملوها في إشعال الموقد، قبل أن يبدؤوا بتقطيع الجذع نفسه. لكنّهم يُفاجؤون أنهم أمام عمودٍ روماني خشبي بطول ثلاثة عشر متراً، يستخدمون الحصان ونظام بكرة السحب جنباً إلى جنب الجهود المشتركة لخمسة أشخاص، لكنّهم لا يستطيعون نقلها إلى المزرعة. يربطونها بحبل، ويعودون إلى البيت وينامون على المشكلة، منهكين، مستنزفين وراضين. ومع ارتفاع المدّ التالي ينجحون في سحبها بضعة أمتار فقط، لكنها تبقى هناك مثل عمود رخامٍ وقع أرضاً.

يقوم هانس ومارتن بنشر قطعتين إضافيتين منها، لكن ذلك يستغرقهما نهاراً كاملاً، ويلاحظان أن خشب الشجرة المليء بالراتنج يصبح أكثر حمرةً كلّما اقتربا من لبّها، ويصبح صلباً مثل الزجاج، لكنه يبقى مطواعاً

تحت نصل المنشار. يكشطان القليل من الراتنج، يفركانه بين أصابعهما، يشمّان رائحته التي تجعلهما يُدركان أنه من المستحيل قطع هذه العيّنة الرائعة من أجل حرقها في الموقد فقط. فالشجرة وحدة عضوية ينبغي الحفاظ عليها كما هي، وسيستفيدون منها لاحقاً، أو قد يستطيعون بيعها ذات يوم، فلا بدّ أنها تساوي ثروة.

بتركيز كلّ ما بقي لديهما من طاقة ينجحان في دفعها فوق ثلاث زلّاجات، ويُخرجانها من بين الأعشاب، يدُقّان في الأرض أربع دعامات على كلا الجانبين، ويدقّان خلالها أوتاداً حديدية تستقرّ في بدن الشجرة. واليوم، بعد مئة عام، ما زال هذا العمود مثل أسطوانة بيضاء كبيرة بجانب البحر. قد يظنّ من يراها أن شخصاً قد نسيها هناك، أو قد يظن أنها كانت تُستخدم لأمرٍ ما، كما لو كان لا غنى عنها في تلك الأيام.

- 4 -

لا أحد يستطيع أن يغادر جزيرة. خُلاصة القول، إن الجزيرة كَوْنٌ، حيث ترقد النجوم في العشب تحت الثلج. لكن يحدث أن يحاول البعض. وفي يوم كهذا تهبّ رياحٌ شرقية لطيفة. وقد رفع هانس بارأوي الشراع، الذي يتلقّى ضربات الريح من الأمام ومن الخلف، فيصبح الإبحار، إلى المركز التجاري، أسلسَ وأسرعَ. تنضمّ العائلة كلّها إلى هذه الرحلة باستثناء العجوز مارتن، الذي لا يوافق على المشروع.

سيفارقون باربرو التي بلغت الثالثة والعشرين الآن وينبغي أن تعمل، وقد وجدوا لها عملاً.

بعد أن يرسو القارب أسفل الرصيف بالقرب من المركز التجاري، تقودها إنغريد إلى المتجر والقرية، حيث الأشجار عالية جداً والبيوت مطلية وقريبة جداً بعضها من البعض الآخر، وحيث بوسع الناس التنقّل من بيت إلى آخر دون أن يضطروا إلى ارتداء معطف.

لا تمسك باربرو بيد شخص آخر غير إنغريد، لأنها تعرف ما سيحصل عندئذٍ. تقفان أمام المتجر، فتتجه إليهما كلّ الأنظار، ذلك أن سكّان الجزر هؤلاء نادراً ما يُشاهَدون هنا. ترتدي إنغريد فستاناً أزرق وسترةً صوفيّة

رمادية مُزَيّنة بكريستالٍ ثلجيّ أخضر على الياقة والأكمام. وترتدي باربرو فستاناً أصفر وسترةً صوفية خشنة قصيرة جداً بالنسبة لها، وتقول إنها تريد بعض السكاكر.

يلحق بهما هانس ويقول: نعم، يمكن أن تحصلا على بعض السكاكر. لكن عندما يخرجون من المتجر ترفض باربرو أن تذهب إلى المزرعة حيث تعيش غريتا سابينا توميسين، ربّة المنزل التي وافقت أن تأخذها خادمةً في منزلها مقابل طعامها ومنامتها فقط. يضطرّ هانس وماريا إلى جرّها إلى هناك، بينما تلحق بهم إنغريد وهي تلقي نظراتٍ خاطفة على رهط الأولاد الصغار الذين يلحقون بهم من مسافة بعيدة. لقد رأت بعضهم من قبل، ربما، في الكنيسة أو المتجر، وتتذكّر اسمَيْ اثنين منهم، وتتعرّف على أربعة وجوه، لكن لا أحد منهم يبتسم، وهي لا تطيل التحديق بهم، لأنها تركض للّحاق بالركب الذي يسبقها ويدخل الحديقة المحيطة ببيتٍ أبيض ذي بابٍ ثقيل، مطليّ بلون داكنٍ، ينفتح ويُدخلهم إلى عالم آخر.

هناك، داخل المنزل، غريتا سابينا تنعت باربرو بـ«الحمقاء» ثلاث مرات وهي تُريها الغرفة التي ستعيش فيها مع الخادمة الأخرى، التي هي أيضاً من سكّان الجزر، لكنّها أصغر من باربرو بكثير. وتشرح سيّدة المنزل أن على الحمقاء أن تكون مستعدّة، وتتوقع استدعاءها إلى المتجر عندما تصل شحنة سمك الرنجة، حتى لو في منتصف الليل، أسوةً بباقي النساء في هذا البيت: «هل تستطيع ذلك؟».

«طبعاً تستطيع!» -تقول ماريا- «كما أنّها تطهو وتمشّط الصوف وتغزل وتحيك جوارب...».

«وهل هي نظيفة؟!».

«يمكنك أن تَرَي هذا بنفسكِ!».

«أتفهمين ما أقوله، يا باربرو؟!» تصرخ غريتا على باربرو التي تهزّ برأسها وتنظر عالياً إلى ثريّا الكريستال المتدلّية من السقف فوقهم، وتهيم عيناها في تلك السماء المرصّعة بالنجوم، وتتيبّس رقبتها على هذه الحال. وعندما تقول غريتا سابينا توميسين لماريا إنّ ابنة حماها لن تحصل على أي ملابس أخرى غير التي ترتديها الآن، ينظر هانس إلى أخته -التي ما زالت تحدّق عالياً إلى تلك المنظومة الشمسية الجديدة- ويتخذ قراره بسرعة، فيمسكها بيدٍ، يحمل حقيبتها الصغيرة باليد الأخرى، ويسحبها خارجاً من المنزل، ويتجه مباشرة إلى المتجر حيث ينتظران ماريا وإنغريد اللتان تلحقان بهما. ينظر هانس وماريا أحدهما إلى الآخر. يومئ هانس نحو باب المتجر. تومئ موافقة. يدخلون المتجر ثانية ويشترون السكّر والقهوة، ورزمتين من المسامير بقياس أربع بوصات، سطلاً من القطران، مسحوق القرفة، برميلاً من الملح الخشن، ويطلبون ثلاثة أكياس كبيرة من دقيق الجاودر، التي يحصلون عليها خلال أربعة أيام، يغادرون المتجر، مع مشترياتهم، إلى الرصيف مباشرة، يركبون القارب ويبحرون.

تدفعهم ريحٌ لطيفة إلى البيت ثانية.

لأن هانس لا يقوى على النظر في عينَيْ أخته، يجلس على الجانب الآخر من القارب، كي يحول الشراع دون رؤية أحدهما للآخر. لكنه يبقى تحت نظر ماريا. ماريا ذات السبعة والعشرين عاماً، امرأة قوية التحقت بمدرسة تدبير منزلي، وكان بوسعها الحصول على مكان حيثما تريد، لكنها هنا، في بارأوي، تعيش مع هانس بارأوي، الرجل البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، ويجلس مختبئاً من أخته ومن شعور مؤلم بالخزي، الخزي والاختباء وجهان لعملة واحدة، لكنه يبقى عرضةً لنظرات ماريا التي لا تلين حتى يعترف بأنه أحمق. إيماءة رأس تكفي، عندئذٍ تحوّل

بصرها عنه إلى الأمواج وعلى شفتيها ابتسامة مغيظة تجعلها تبدو أقوى من أن تُقهَرَ.

يقف العجوز مارتن بانتظارهم على الرصيف، ويستقبلهم بقهقهةٍ صاخبة.

«ألم أقل لكَ!».

يخوض في الماء الضحل وينقل حقيبة باربرو إلى اليابسة، ثم يأخذ بيدها ويصعدان إلى البيوت، وتلحق بهما إنغريد وهي تحكي له عن القرية حتى يغيب صوتها في صراخ النوارس. يبقى هانس وماريا واقفين يناقشان ما إن كان عليه أن يجلب العربة لنقل المشتريات أم يحملاها.

«أعتقد أن بوسعنا أن نحملها، أليس كذلك؟».

تنطلق أمامه. فيرمي الأشياء التي يحملها أرضاً، ثم يمسكها من ردفيها ويسحبها إلى العشب الطويل، حيث حتى الله لا يستطيع أن يراهما، ولا يسمع صرخاتها نصف المكتومة، ولا حتى عندما تناديه بكلّ الأسماء قبل أن تستعيد ابتسامتها تلك التي منحتها قبل قليلٍ للأمواج، لقد نجح في استعادة ابتسامتها. عندئذٍ ينسيان أمر العودة إلى المنزل، يبقيان هناك ممدّدَين على ظهريهما ويحدّقان في السماء بينما تخبره ماريا عن طفولتها في منزلهم في جزيرة بو، عندما انهارت حظيرة الأبقار بسبب تراكم الثلوج على أحد جانبي سقفها. وهانس يستمع إليها ويتساءل عن مغزى ما تقوله كما يفعل دوماً، ما الذي تقصده ماريا، وما الذي تريده؟ حتى تفاجئهما إنغريد وهي تقف بجانبهما، تنظر إليهما من علٍ، وتسأل أين اختفيا، وأن باربرو تريد أن تعرف ما الذي يريدان أن تطهو من أجل الغداء، سمك الرنجة أم البولاك، أم الهلبوت الذي صاده والدها بشبكته أمس.

«سأقطّع سمك الهلبوت»، يقول هانس، ثم ينهض ويجلب العربة

ويضع فيها المشتريات، وإنغريد أيضاً، ويدفعها أمامه، بينما تبقى ماريا مستلقية. إنها فيلسوفة الجزيرة، ولها نظرتها المنحرفة إلى الأشياء، خصوصاً أنها جاءت من جزيرة أخرى ولديها ما تقارن به الأشياء هنا، وهذا ما يمكن تسميته بالخبرة، والحكمة حتى، لكن يمكن لهذا أيضاً أن يضفي عليها فِصاماً في الشخصية، وهذا يتوقّف على مدى اختلاف الجُزر.

- 5 -

في بارأوي، لديهم ثلاث أشجار صفصاف وأربع أشجار بتولا وخمس أشجار غبيراء، إحداها مشوّهة ومنتفخة مثل البرميل في وسطها ويسمّونها الغبيراء العجوز. هذه الأشجار الاثنتي عشرة تميل جميعها في الاتجاه الذي ثنتها إليه الطبيعة.

وهناك أيضاً بعض أشجار البتولا الصغيرة الهشّة فوق صخرة في غرب الجزيرة، يسمّونها غيضة الحب، لأن هذه الأشجار تقف وكأنها تعانق بعضها بعضاً، لكنها تميل في كلّ الاتجاهات عندما تهبّ الرياح.

ولديهم أيضاً شجرة صفصاف ضخمة تبدو مستلقية على الأرض، وجميع سكّان الجزيرة يتذكّرونها على هذه الحالة، راكعةً على ركبتها، على الحدّ الفاصل بين الحديقة الوردية وحديقة الصدر. لقد بنى أجدادهم السياج الحجري حولها بدلاً من قطعها. وربما هي الشجرة الوحيدة في الجزيرة التي لا يمكن لأحدٍ أن يفكّر في قطعها. هذا لا يعني أنهم قد يقطعون الأشجار الأخرى، على الرغم من أن الحطب ثمينٌ وضروري، ورغم أن الفكرة تراودهم أحياناً. لكن لا أحد يفكّر على الإطلاق في قطع شجرة الصفصاف التي تقع على الحد الفاصل بين الحديقتين، كما لو أنها، بطريقة ما، ترقد حيث وقعت، ولهذا السبب يحمونها كما لو أنها قَبرٌ.

من شجرة الغبيراء الكبيرة حول البيوت تتدلّى أعشاشٌ كبيرة لطيور العقعق. وسكّان الجزر يلعنون طيور العقعق غالباً، لأنها تسرق وتلوّث الأماكن بزرقها. يتحدّثون كثيراً عن تدمير أعشاشها، لكنهم لا يترجمون كلامهم إلى أفعال. حتى عندما تنجح هذه الأعشاش الكبيرة المتدلية من الأغصان في البقاء بعد معركة جديدة مع الرياح العاتية، يشعر سكّان الجزر بارتياح كبير لأن لا شيء قد تعرّض للتلف، لكن لا تنتهي كلّ العواصف على هذه الحال غالباً.

في حالاتٍ نادرة جداً يتساقط المطر أو الثلج عمودياً، فتتشكّل عندئذٍ دوائر جافة في العشب تحت الأعشاش الكبيرة في شجرة الغبيراء الكبيرة. فتتجمّع الخراف هناك. خصوصاً الحملان التي لا تحب المطر، وتقضي حاجتها هناك، كما تفعل كلّ الحيوانات، فتتشكّل دورة حياة سوداء موحلة تحت كلّ عشٍّ من الأعشاش، كلّ الأشياء مترابطة معاً، مثلما أن الإنسان لا ينقسم اثنين حتى لو انثنى على نفسه.

هكذا هي الحال أيضاً على آلاف الجزر الأخرى في هذا الأرخبيل.

عشرة آلاف جزيرة.

بما أن التضاريس مفتوحة ومكشوفة، قد يخطر للمرء أن يُشجّر الساحل بأشجار دائمة الخضرة، مثل أشجار التنّوب أو الصنوبر، وإنشاء مشاتل مثالية في كلّ أنحاء المملكة، وأن يبدأ بتوزيع كميات كبيرة من شتول أشجار التنوب مجاناً لسكّان الجزر الكبيرة والصغيرة على حدٍّ سواء، ويقول لهم إنهم إذا زرعوا هذه الأشجار في أرضهم وتركوها تنمو، فإنهم يضمنون لأحفادهم الحطب والخشب لبناء البيوت. ولن تستطيع الرياح، بعدئذٍ، تعرية التربة ورميها في المحيط، وأن البشر والحيوانات سيعيشون حينئذٍ في ملاذٍ آمن من الرياح التي كانت تعيش بينهم على مدار

اليوم، كما أن الجزر لن تبدو، بعد ذلك، مثل معابد طافية في الأفق، بل ستبدو مثل براري مهملة تغطيها أعشاب البردي ونبات الخلد. لا، لن يفكّر أحدٌ في فعل ذلك، في تدمير الأفق. ربما يكون الأفق أهم مورد لديهم، إنه رعشة العصب البصري في الحلم على الرغم من أنهم يكادون لا يرونه، حتى إنهم لا يحاولون أبداً التعبير عن أهميّته ولو بكلمة. لا، لن يفكّر أحدٌ قطّ في القيام بذلك قبل أن تبلغ البلد درجةً من الثراء يصبح معها هذا الأفق على وشك الاختفاء.

- 6 -

إنه الربيع من جديد والسماء عاليةٌ فوق الجزر، الرياح باردة ومشوّشة وتجلب معها هبّاتٍ قصيرةً من الهواء الدافئ. لقد عادت طيور صائد المحار تتبختر على الشاطئ مثل الدجاج الأسود والأبيض وهي تهزّ رؤوسها وتغرز مناقيرها الحمراء الطويلة في الرمل، ثم تحفر وتحفر وتكركر، وهي غير قادرة على فعل أيّ شيء آخر. طيور صائد المحار غبيّة، لكنّها تأتي مع الربيع.

في منتصف الفيورد(*) تتوقّف الرياح فجأةً.

يضطر هانس بارأوي إلى إنزال الشراع ويبدأ بالتجديف. تمسك ماريا بالمجدافين الآخرين، وتجلس وراءه وتواصل نخسه في أسفل ظهره ببراجم يديها وهي تجدّف، حتى يصرخ بها أنها تؤلمه وأن النساء لا يعرفن شيئاً عن التجديف. تضحك باربرو وإنغريد، الجالستين بفستانيهما الأزرق

(*) الفيورد: مضيق بحري، عبارة عن وادٍ على شكل حرف U مع جبال عالية على جانبيه. تصف جامعة بيرغن الفيورد بأنه وادٍ تحت الماء. وادٍ عميق وطويل كان يوجد فيه نهر جليدي سابقاً وينفتح على البحر في النهاية البعيدة. كلّ الفيوردات تشكّلت من الأنهار الجليدية التي شكّلت المشهد الطبيعي عبر عدة عصور جليدية. وتُعَدّ هذه الفيوردات البحرية أكبر مناطق الجذب السياحي في النرويج. (م).

والأصفر في مؤخرة القارب فوق جلد الخروف، وبجانبهما حقيبة صغيرة، وبينهما دفّة القيادة غير الفعّالة الآن.

«أنت لا تجدّفين بالشكل الصحيح!».

«بل أجدّف جيّداً!»، تقول ماريا وتترك أحد المجدافين، فينحرف القارب بشكل مفاجئ.

تضحك باربرو ثانية، رغم أنها تعرف ماذا ينتظرها، إنه الأمر ذاته كما في السابق، سوف يتخلّصون منها.

يرسون ثانيةً بالقرب من المركز التجاري ويصعدون الرصيف، يتقدّمهم هانس حاملاً الحقيبة، وفي إثره باربرو وإنغريد يداً في يد، وأخيراً ماريا، وقد تأنّقت اليوم، وكأنها تؤكّد جدّية الأمر، وتصميمها، فقد فشلت المحاولة الماضية، ولم ينطق أيّ منهم بكلمة واحدة.

يتوقّفون ثانية في المتجر، يشترون السكاكر، ثم يتابعون سيرهم إلى بيت القسّ حيث تستقبلهم زوجته كارين لويس ماليرغيت التي كانت، قبل ثلاث سنوات، تُدعى كارين هوسفيك، وهي شابّة على نحو مذهل بالقياس إلى القسّ يوهانس ماليرغيت، الذي ترمّل مرّتين قبل أن تدخل كارين لويس إلى بيته وحياته. لم تنجب كارين لويس أولاداً، بينما أنجب القسّ خمسة أبناء، التحقوا جميعاً بمدارس دينية في أماكن مختلفة في مدن مختلفة، كما لو أنهم غادروا إلى الأبد ونسوا منذئذٍ مسقط رأسهم.

ترتدي كارين لويس فستاناً فاتح اللون ومريلةً بيضاء كما تلبس جوارب وحذاء، رغم أنها في البيت. تصافح كارين باربرو، وترحّب بها وهي تثرثر وتمشي بخفّة، كأنها كانت تنتظرهم بلهفة، تأخذهم في جولة في المنزل، تُريهم الغرف والأثاث وماكينة الخياطة والمكواة، وتُري باربرو الغرفة التي ستنام فيها، في طابقٍ آخر، وهي غرفة جميلة نَيّرة ومكسوّة بورق جدران،

وفيها خزانة ملابس وفوقها مزهرية صغيرة، وطاولة سرير عليها إناءٌ من البورسلين على قاعدته ختمٌ أزرق.

تشرح لباربرو طبيعة العمل المطلوب منها.

المهامّ المطلوبة من باربرو ليست كبيرة، ويبدو أن زوجة القسّ تبحث عن رفيقة في المنزل، ربما عن صديقة، إذ إنّ فارق العمر بينهما يكاد لا يُذكر. في المطبخ المطلي باللون الأبيض تحمل كارين كتاب طبخ، بحجم الكتاب المقدّس، وتسأل باربرو ما إن كانت تستطيع القراءة؟

يلوذون بالصمت جميعاً.

تعتذر كارين لويس منهم وتقول إنه كان سؤالاً غبيّاً، وتقلب صفحات الكتاب حتى تصل إلى فصلٍ عن صناعة المربّيات، وتشرع في شرح مراحل التحضير التي ينبغي على باربرو القيام بها، وتشير بيدها عبر النافذة إلى جيش من شجيرات التوت مختلفة الأحجام متراصفة في ستة صفوف مستقيمة، تنتهي عند سياجٍ من أوتادٍ بيضاء اللون في الطرف الآخر من هذه الحديقة ذات الربيع البنّي(*)، الكشمش الأسود، الكشمش الأحمر، عنب الثعلب، والتوت هناك عند تلك الصخرة، فتخبرها باربرو أن لديهم منه في بارأوي، كما لديهم الكشمش الأحمر، وأنها تعرف كمية السكر التي ينبغي استعمالها لتحضير هذه المربّيات أيضاً.

يشعر هانس بارأوي أنه بحاجة إلى الجلوس.

يجلس على كرسي وُضعت، دونما فائدة، بين غرفتَيْ استقبال، وكأنها وضعت هناك للزينة فحسب، ويخطر له أن لا أحد قبله قد جلس عليها؛ لكنه وبدل أن يقف، يحني جذعه إلى الأمام، يضع رأسه بين يديه ويسند مرفقيه على ركبتيه كما لو كان يبحث عن شيء في أعماق عقله، شيء هو

(*) أوائل الربيع بعد ذوبان الثلوج مباشرة. (م).

عاجز عن العثور عليه، وفجأة ينتابه شعور أنهم جميعاً قد توقّفوا وأنهم ينظرون إليه.

يرفع رأسه وينظر إليهم ويقول شيئاً، يسأل أين القسّ؟

تقول زوجة القس إنه في شمال الجزيرة، في بعض المهام عند...

يتحدّثون عن أولئك الناس الذين يزورهم يوهانس مالبيرغيت، ويتبيّن أن هانس يعرفهم. بعدئذٍ تُستأنف الجولة في المنزل بينما يبقى هانس وحده على الكرسي التي لا معنى لوجودها في مكانها. أخيراً يجد ما كان يبحث عنه، فينهض عن الكرسي ويلحق بهم إلى غرفة معيشة أخرى، فيمسك بيد أخته ويجرّها إلى الفناء خارج البيت، بينما هي تصرخ محتجّة، لأنها تريد البقاء في هذا البيت الجميل. تلحق بهما ماريا وإنغريد ويقف الجميع على درجات الحجر العريضة وينظرون إليه بذهولٍ، وتصرخ ماريا عليه ببعض العبارات، وعلى وجهها تعبير إحباط مؤلمٍ.

تصرخ باربرو: «أريد أن أبقى هنا!».

«لن تبقي في أيّ مكان!»، يقول أخوها ويسحبها نحو البوّابة ومن ثم إلى الشارع، حيث يقف ليلتقط أنفاسه وينتظر أن تنضمّ إليهما ماريا وإنغريد. تصل ماريا وهي تحمل الحقيبة، تسأله ما الأمر وعلى وجهها تعبير الإحباط المؤلم ذاته، أقرب إلى حزنٍ كارثيّ.

«لا شيء»، يقول هانس.

يسيرون صامتين، يتجاوزون المتجر فلا شراء اليوم، يتابعون طريقهم وينزلون الرصيف ويركبون القارب. يقول هانس إن الريح قد تحوّلت واشتدّت، وهي الآن جنوبية غربية. يرفع الشراع ويحاول أن يصل إلى المنزل في أسرع وقت. لكن المطر يباغتهم، وتشتدّ غزارته كلّما اقتربوا من مدخل الفيورد. ترفع باربرو وإنغريد جلد الخروف فوق رأسيهما اتّقاءً

للمطر. لكنّه يسمع ضحكاتهما على أي حال، إلا أنه لا يحاول، هذه المرّة، الاختباء عن نظرات أحدٍ، فلا فائدة من ذلك، ولا حتى من نظرات ماريا التي تجلس وقد أدارت ظهرها للمطر، والماء ينساب فوق خصلات شعرها البني التي تزداد قتامة وتصبح مثل خيوط أعشاب البحر المتموّجة على الشاطئ. لكنه لا يجد في وجهها تلك الابتسامة التي تهبّ عادةً لإنقاذهم.

تمطر بغزارة حتى وقت متأخر من الليل، وتهبّ عليهم عاصفةٌ قوية. ثم تتجه على مضض نحو الغرب والشمال، وتصبح أكثر برودةً وأقلّ شراسة. تضيء السماء، ويتوقّف المطر عن طرق النوافذ، وعندما تفتح ماريا عينيها وتنظر إلى السرير بجانبها، تجده فارغاً. وتخبرها يدها أنه بارد أيضاً.

تنهض وتهرع إلى باربرو وإنغريد، وتطلب منهما النهوض وارتداء ملابسهما واللحاق بها إلى المطبخ، حيث لم يشعل أحدٌ الموقد بعد. يسألان ماريا عما جرى. تلوذ ماريا بالصمت. يشعلون الموقد ويتناولون الطعام مع مارتن، الذي يلوذ بالصمت أيضاً. بعد الانتهاء من الطعام ينزلن إلى سقيفة القارب، حيث يكتشفن أن القارب غير موجود في السقيفة، فيجلسن ويبدأن إصلاح شباكِ الصيد وباب السقيفة مفتوح على مصراعيه فيستطعن رؤية الجهة الشمالية عند المركز التجاري والكنيسة وبيوت القرية من حولها. يعملن بدقّةٍ وصمتٍ وترقّبٍ حتى يشاهدن في نهاية المطاف شراعاً مائلاً يعلو ويهبط مثل أسنان المنشار في ذلك البحر الهائج، إنه القارب في طريق عودته، وقد حلَّ المساء.

يُنزل هانس بارأوي الشراع. يصل القارب إلى شاطئ فناء المزرعة ويتوقّف. يقف هانس متأرجحاً فوق مقعد القارب، وينحني إلى الأسفل نحو مقدمة القارب، يحمل جسماً يتلوّى بين يديه ثم يطلقه في الأرض.

يبدأ الخنوص الصغير بالركض في أنحاء هذا الشاطئ الرملي وهو يزعق. لقد كلّف اثنَي عشر كروناً(*)، له أذنٌ واحدة، وفي جبهته لطخةٌ سوداء تشبه ثقب رصاصة. يمكنهم تسميته ما يشاؤون. يناول باربرو كيس سكاكر بنّي اللون، ويدخل، بعدئذٍ، سقيفة القارب ويضفر من حبال الشباك رسناً للخنوص، ثم يصنع في نهايته أنشوطة، ويناوله إلى إنغريد، التي كانت واقفة تراقب الخنوص وقد بدأ يأكل العشب.

«لا تفعل هذا ثانية!»، تقول ماريا ثم تدير ظهرها له ولخنوصه وتصعد إلى البيوت لتحضّر وجبة الغداء، بينما يبقى هانس واقفاً مكانه وعلى شفتيه ابتسامة لم ترَها إنغريد من قبل. وتلاحظ إنغريد أن أمها تبقى غاضبة طيلة المساء واليوم التالي. لكن شيئاً خفيّاً يحدث بعد ذلك، ويختفي غضب ماريا. ويطلقون على الخنوص اسم «غروتن».

(*) الكرون: وحدة النقد في النرويج، وكذلك في السويد والدانمارك. (م).

- 7 -

تشكّل البيوت في بارأوي زاوية حادّة أحدها مع الآخر. ومن ينظر إليها من علٍ يجد أنها تشبه أربعة أحجار نرد رُميت كيفما اتفق، إضافةً إلى مخزن البطاطس الذي يتحوّل إلى كوخٍ إسكيموفيٍّ في فصول الشتاء. ممرّات حجريّة للسير عليها أثناء التنقّل بين البيوت، وسقالة لتجفيف الملابس وممرّات عشبية في كلّ الاتجاهات، في الواقع، لقد شُيّدت البيوت مثل أسافين في وجه الطقس العاصف ولذلك فإنه لا يمكن قلبُها حتى لو فاض البحر كلّه فوق الجزيرة.

لا أحد يستطيع أن يدّعي الفضل لنفسه في ابتكار هذا التصميم الذكيّ لفناء المزرعة، إنه حصيلة حكمةٍ جماعية متوارثة، وقد بُنيَ بخبرةٍ مريرة. لكن رغم ذلك لا يمكن لأيّ عملٍ عبقريّ تاريخي أن يمنع موجات المَدّ، في فصل الشتاء، من تكديس الثلوج بين المزرعة والحظيرة، حيث يخوضون فيها بصعوبة وهم يحملون دلاء الماء وسطول الحليب من الحظيرة وإليها. يسمّونها الموجة ويلعنونها كما يلعنون الظواهر الأخرى، ذلك أن الموجة غالباً ما تضرب على الأعصاب في أحرج حالاتها، في شهري كانون الثاني وشباط، في كانون الأول، وفي آذار أيضاً، يرتفع جدارٌ

من الثلج بين البشر والحيوانات، ويجرفونه رغم أن لا فائدة من جرفه، لأن الثلج ينجرف بسرعة ويتراكم من جديد. يجرف الرجال الجليد بينما تنقل النساء الماء والحليب، وهكذا لا بديل أمام النساء سوى الدوران حول البيت وحول الحظيرة، وهذا مشوارٌ طويل جداً خصوصاً عندما لا يستطيع المرء أن يقف أو يمشي منتصباً في وجه الرياح العاصفة.

لكن البيوت لم تكن دوماً حيث تقف الآن شاهقة وسط مجموعة من الأشجار وحديقة التوت على هذه التلّة الأعلى في الجزيرة. لقد كانت في منطقة منخفضة، على بعد بضع مئات من الأمتار في منطقة في خليج يُعرف باسم كارفيكا. لم يبقَ منها في ذاك الخليج سوى جدارين أساسيين، وبقايا رصيف قارب تغطّيه الأعشاب البحرية والرمال. ولا أحد يفكّر عادة في هذا، فسكّان الجزيرة غافلون عن حقيقة أن أحداً قد عاش هناك من قبل. لكن حتى الأشخاص الذين يسيرون على أرضٍ صلبة لديهم لحظات يفكّرون فيها بطرقٍ غريبة، وعندئذٍ يخطر لهم فجأة أن لا بدّ من تفسيرٍ لعدم وجود أي منازل في كارفيكا، ما الذي حلَّ بتلك المنازل؟ ولماذا لم تعد موجودة هناك؟

التفسير مأساويٌ بالتأكيد، وربما مخيفٌ.

مارتن العجوز، الأقدم هنا، هو المصدر الأعلى للمعلومات، ولديه بالطبع آراؤه الخاصة في سبب اختفاء تلك الحضارة المفقودة وزمانه، فهذه تخصّ أسلافه، ويتذكّر مارتن شذراتٍ من الطفولة، وبعض الصور والجمل والحكايات. لكنه ما عاد مصدر العائلة الموثوق، وهذا بسبب تقدّمه في العمر والتراجع الطبيعي الذي لا ينهش ذاكرة المرء فحسب، بل يجلب معه أيضاً أفكاراً وأطواراً غريبة تجعل العجوز يبدو سخيفاً في نظر الشباب، وهكذا يستطيع كلّ جيل أن يشكّل ذاكرته الانتقائية، ويمضي في

دروبه الخاصة. وهذه الدروب الجديدة تقود بلا شكّ إلى مكان محدّد، وفي أسوأ الحالات إلى الدوران في الحلقة ذاتها، لتبدأ من حيث انتهت، وهذا يستغرق وقتاً طويلاً.

لكن، وعلى الرغم من أنهم لا يعرفون شيئاً عن الآثار في كارفيكا، ولا يعرفون سبب اختفاء البيتين اللذين كانا هناك ذات يوم، فهم يحترمون هذه الآثار. يتجنّبها الكبار، ولا يلعب فيها الصغار، ولا تبني الطيور أعشاشها هناك أيضاً، ولا حتى طيور العيدر المحلية، كما أن سكّان الجزيرة لا يفكّرون في تفكيكها واستخدام أحجارها لبناء جدرانٍ أخرى، مثل الأسيجة الحجرية التي تفصل بين الحدائق. بدلاً من ذلك يبحثون عن أحجار أخرى، وهكذا تبقى الآثار في مكانها كنصُبٍ تذكارية أو مقبرة مشؤومة تزيد في حجمها النباتات التي تنمو فوقها، مثل نبات القرّاص وأعشاب الصفصاف، وتبعث إحساساً بشعور بارد ودافئ في الوقت نفسه. ومن ينظر إلى هذهِ الآثار من الحديقة العليا، تبدو له مثل رموز صينية، كُتبت بيدين مختلفتين. تعلوها الثلوج في الشتاء، فتجعلها تبدو أكثر وضوحاً مقارنة بالعشب البنّي المتحلّل، قبل أن يغطّيه الثلج أيضاً.

- 8 -

لقد ناقشوا مراراً وتكراراً في أيّ غرفة ننام؟ في الغرفة الشمالية بردٌ قارس، وهي غير صالحة للسكن عندما تهبّ عليها الرياح الشمالية الشرقية في الشتاء، لكنها باردة ولطيفة في الصيف. وهي عازلة للصوت عملياً، خصوصاً أن المطر يأتي عادةً من الجنوب الغربي ويجعل الحياة جحيماً سواء كان الفصل صيفاً أم شتاءً. وعندما يكون الصيف شديد الرطوبة ولا يستطيعون تجفيف التبن، لا في المروج ولا على السقالات، يقول هانس بارأوي: «حسنٌ، يا عزيزتي، ينبغي أن ننتقل الآن إلى الغرفة الشمالية. لا يمكننا البقاء هنا!».

في الشتاء، عندما تتشكّل بلورات الجليد على لُحُفِ العيدر، يقول، عكس ذلك، إنهم ينبغي أن ينتقلوا إلى الغرفة الجنوبية: «سنتجمّد حتى الموت هنا!».

يأخذون أغطيتهم معهم من الغرفة الشمالية إلى الجنوبية، والعكس بالعكس، ويُسلّمون قيادهم للطقس والفصول، بما أن لديهم فُرشاً كبيرة في هذه الغرف العُليا(*)، التي يسمّونها صالات، الصالة الشمالية والصالة

(*) يعتمد نمط العمارة النرويجي -والإسكندنافي عموماً- على البساطة والراحة، =

الجنوبية. تنام إنغريد في غرفة صغيرة تقع بين هاتين الصالتين، نافذتها غربية وتُضيئها شمس منتصف الليل في هذا الفصل الذي يُمضون الفصول الثلاثة الأخرى يحلمون به، وتنام باربرو في الغرفة الشرقية، من حيث يأتي الطقس الجيّد. أما العجوز مارتن فينام في الأسفل في غرفة صغيرة داخل غرفة الجلوس؛ ولديه مدفأته الخاصة التي لا تنطفئ نارها أبداً، لأنه يبرد كثيراً. في بعض الأحيان يترك باب غرفته مفتوحاً، فتصبح غرفة الجلوس دافئة غالباً حتى في الفصول التي لا يستخدم فيها سكّان هذه البلاد غرفة الجلوس أبداً، وهكذا يستطيع سكّان بارأوي أن يتناولوا طعام الغداء هنا في أيام الآحاد العادية في شهر تشرين الأول أو آذار. عندئذٍ تستعمل ماريا مفرش الطاولة الأبيض.

مفرش الطاولة هذا مُقَوَّر الأطراف، طرّزته والدة ماريا بزهور صغيرة حمراء وصفراء، وربطتها إلى بعضها بخيطٍ أخضر، لكنّه وقبل كلّ شيء مفرشٌ أبيض اللون.

تفضّل ماريا النوم في الصالة الجنوبية، حتى لو كانت حارّة جداً عندما يكون الطقس جيّداً في الصيف، وصاخبة جداً في الطقس السيّئ، شتاءً وصيفاً، لأنها من نافذة هذه الصالة تستطيع أن ترى بارأوي كلّها والجزر الصغيرة في الجنوب؛ وعندما يكون الطقس صافياً تستطيع أن ترى «بوأوي»، مرابع طفولتها، والتي هي مرجعها الأساسي في المقارنة. كما أن الصالة الجنوبية أكبر قليلاً من الصالة الشمالية، وهذا يسمح لها أن تسند صندوقها إلى الحائط، ويبقى لديها مساحة كافية لطاولتَي السرير

= ويستخدم المواد البيئية مثل الخشب والحجارة، يتألّف البناء عموماً من ثلاث طبقات: المخزن، الطابق الأول، والطابق الثاني، إضافةً إلى علّيّة. في بارأوي، في ذلك الزمان كانت البيوت مؤلّفة من طابقين: الأول للأنشطة اليومية العادية، والثاني للنوم. (م).

الصغيرتين، هدية والدها بمناسبة زفافها، قطعتي القمامة القديمة، كما تسمّيهما هي، كانتا في الأصل لوالدتها، التي ماتت في عزّ شبابها ضحية جائحة وباء حصدت أرواح معظم البشر في مسقط رأسها حيث لم ينجُ إلا الأقوياء.

تسأل ماريا: «ألن نستقرّ مثل بقية البشر المحترمين؟ أم أننا سنبقى نتنقّل مثل المسافرين؟!».

بعد وصول الخنزير غروتن إلى المنزل –وهو يعيش في سقيفة التورف الفارغة الآن– يشعر هانس بضرورة القيام بمبادرة ما، وبما أن أعشاش طيور العيدر قد أُصلِحت، والبطاطس قد زُرِعت، وسيصبح النهار أطول، وألطفَ وأكثر اعتدالاً، وسينشغلون عندئذٍ بتقطيع التورف، يأخذ إزميله ومطرقته الثقيلة والديناميت ويذهب إلى الواجهة الصخرية الحادّة المقابلة للخليج في الشمال الغربي، حيث غُرِست أعمدة مطليّة بالقطران عمودياً في البحر، ثم رُبطت إلى جانبي الصخور مع مسافة نصف متر بينها تسمح لقارب متوسط الحجم أن يرسو هناك عندما يسمح الطقس بذلك، كما هي الحال عند رصيف المركز التجاري، على سبيل المثال، أو رصيف قارب إرلينغ، شقيق هانس، الذي يأتي في بداية كلّ عامٍ لاصطحاب هانس ومعدّات صيده إلى لوفوتن. يوجد في بارأوي سقيفة قارب، يسمّونها سقيفة لوفوتن، لكنها مُغلقة طيلة العام، وتحتوي كلّ معدّات الصيد الثمينة الخاصة بلوفوتن. وإن كان هناك ما يحتاجونه فعلاً هنا فهو رصيف جيّد. والآن يقف مارتن العجوز، الذي عاش هنا قرابة ثمانين عاماً دون رصيف للقارب، في فناء المزرعة، وينظر صوب الشمال ويتساءل: متى سيقوم ابنه بالعمل الذي لا مفرّ منه، فقد جمعا خلال حياتهما هنا ربما أكثر من حاجتهما من الأخشاب الطافية من أجل هذا المشروع.

لكن هانس باراُوي لديه خططٌ أخرى. يحفر عشر حُفَرٍ عميقة في صخور الجبل، يحشوها بالديناميت والصواعق ثم يفجّرها. يحصل على ثلاثة أمتار مكعّبة من الصخور. ويعالج الصخور الكبيرة، الناتجة عن التفجير، بالإزميل والمطرقة.

يعود إلى المنزل ليُحضر الحصان والعربة. ويطلب من ماريا أن ترافقه، ويشرح لها، في الطريق، أنه يفضّل استعمال هذا النوع من الصخور لبناء الأساسات، ذلك أن استخدام صخور الشاطئ الناعمة والمدوّرة هو مضيعة للجهد، لأن هذه الصخور التي فجّرها لها أسطح خشنة يتعشّق بعضها مع البعض الآخر، ولا تتزحزح من مكانها قيد أُنملة. فتقول ماريا: «أساسات؟!»

نعم، لأن حلّ مشكلة النوم واتجاهات الرياح يحتاج طبعاً إلى توسيع البيت باتجاه الجنوب، وهكذا فإن بناءً إضافياً من طابق واحد مع سقيفة، هو الشكل الأمثل لتوسيع البيت، ثلاثة أو أربعة أمتار إضافية ستحمينا من المطر والشمس، وهكذا نستطيع أن نستقرّ في الصالة الجنوبية.

يمسك المجرفة ويبدأ بملء العربة بالصخور وشظايا الغرانيت المتناثرة وينقلها إلى البيت، ويستمرّ في هذه المهمة طيلة اليوم التالي، وينضمّ إليه مارتن وباربرو.

باربرو تحب القيام بالأعمال المجهدة، تختار قطع الصخر الكبيرة من العربة وتمشي بها خمس خطوات إلى موقع العمل، ثم تقف وتسأل أخاها أين تضع الصخرة، ولا تتركها قبل أن يريها أين تضعها بالضبط. يتلكأ هانس في الإجابة، ليغيظها، فيحتقن وجهها وتبدأ بالصراخ، ثم تضطرّ إلى رميها أرضاً. عندئذٍ يأتي هانس ويحملانها معاً إلى حيث يجب أن تكون.

يسألها كيف حال العمل معها؟

فتقول: «ليس سيّئاً»، ثم تمضي لتجلب صخرة أخرى.

يتابع مارتن مزاحهما، يهزّ رأسه ويسأل عمّا إن كان على النساء، أصلاً، أن يساعدن في بناء الأساسات.

يتظاهر هانس بأنه لم يسمع مارتن، رغم أنه هو نفسه قد بدأ يتساءل مثل مارتن. تدرك ماريا فجأة أنه إن وُسِّع البيت، فسوف يتلاشى المشهد العام لمرابع طفولتها هناك في أقصى الأرخبيل، الدافع الحقيقي لإصرارها على النوم في الغرفة الجنوبية. تُمسك نفسها عن الكلام حتى ينتهي زوجها من بناء العتبة فوق الأساسات، وعندما يوشك أن يبدأ في تركيب الإطار الخشبي، بعد أسبوع تقريباً من عمله على هذا البناء، تسأل ماريا: «ماذا عن المشهد العام؟».

عندئذٍ ترى ما لم تره من قبل، إذ يجلس هانس فوق الأساس ويبدو كما لو أنه سيتخلّى عن كلّ شيء، كزوج وكرجل. يبتعد مارتن مشمئزّاً وهو يتمتم: «كرمى للمسيح!». وماريا لا تستطيع أن تتنازل أبداً لمواساة رجل، وهكذا تغادر هي أيضاً، لكن باربرو تجلس بجانب شقيقها وتسأله ما الذي يبكيه، كما اعتاد أن يسألها عندما كانا صغيرين.

يبعدها عنه، يجفّف عرقه ثم ينهض ويستأنف عمله بصمت، يحمل المجرفة ويزيل طبقة التورف من داخل جدار الأساس، يضعها في العربة، ثم يدفعها أمامه إلى حديقة الصدر حيث يمكن استعمالها لتسوية الأرض هناك.

«ما خطبك؟!»، تسأله ماريا على مائدة الغداء.

فيجيبها: «ماذا تعتقدين؟».

في الصباح التالي يذهب إلى القرية، ثم يعود بقارب مليء بأكياس

الأسمنت، التي اشتراها بالدَّيْن. يشرع في نقل الرمل، ثم يبدأ في بناء جدار خرساني جديد على الجانب الداخلي من الجدار الذي رفعه سابقاً، ثم يمدّ طبقة خرسانية فوق الأرضية الصخرية، ليست مستوية تماماً لكنها مصمتة. يُسمّر قالباً من الألواح على العتبة، ثم يصبّ خرسانة بارتفاع قدم، هذا ما تسمح به كمية الأسمنت. وعندما يفكّ القالب يبدو أنهم حصلوا على ما يشبه صندوقاً رمادياً من الحجر ملحق بالبيت، ثلاثة أمتار في خمسة أمتار وارتفاع متر.

سوف يكون خزّاناً لمياه الأمطار.

يسمّر هانس بارأوي ألواحاً خشبية طويلة على شكل حرف U، ويثبّتها مثل المزاريب تحت طنفي سقف الصالتين، ويجعل نهايتي المزرابين تميلان إلى الداخل وتلتقيان في شكل قمع فوق فتحة الخزّان. ثم يأتي ببعض الألواح ويبدأ بتسميرها وصنع غطاء للخزّان. فتصبح مثل أرضية، متينة، يمكنهم الجلوس أو المشي عليها. ويعلّق فوق الفتحة غطاءً، بطريقة لا تعيق عملية إنزال الدلو إلى الخزّان أو رفعه منه.

بما أن الطقس كان جيّداً في ذلك المساء، عندما فرغوا من تثبيت المزاريب، وتركيب سطح الخزّان، جلسوا جميعاً على غطاء الخزّان وتناولوا وجبة العشاء. في شهر حزيران المبلول امتلأ الخزان. الماء بلّوريّ نقيّ، بخلاف الماء الموحل الذي سيكون من حصة الحيوانات وحدها من الآن فصاعداً.

بعد موسم لوفوتن القادم، سيعمل هانس على تركيب مضخة يدوية في المطبخ. التحدي الحقيقي ليس في المضخة، بحدّ ذاتها، بل في الأنابيب النحاسية، التي ينبغي تمديدها تحت البيت كلّه، والتي من المتوقّع أن يتجمّد الماء فيها في فصل الشتاء. من الناحية المثالية، كان ينبغي بناء الخزّان في

الجهة الشمالية، وملاصقاً لجدار المطبخ. هم ينامون في الصالة الشمالية وينتقلون للنوم في الصالة الجنوبية، عندما يكون الحرّ شديداً أو صخب الأمطار قوياً. كما ينقلون معهم لُحُفَ العيدر، عندما يكون البرد قارساً في الصالة الشمالية. هذه هي مباهج الحياة.

- 9 -

يتبادل سكّان الجزر في ما بينهم الأكباش والثيران للاستيلاد. عندما يقتني سكّان بارأوي كبشاً، يحتفظون به بعيداً عن الأغنام والخراف. لديهم جزيرة صغيرة، يسمّونها جزيرة الكبش. يضعونه هناك ليرعى العشب وحشائش البحر طيلة العام تقريباً، وينقلونه إلى بارأوي لمدّة شهر فقط، في فترة عيد الميلاد، عندما ينبغي أن يُلَقِّحَ الأغنام. يجلبه هانس، وتكون إنغريد برفقته.

تخاف إنغريد الكبش، إنه شرّير. لكن أباها يضع عصا كبيرة بين قرنيه، يمسك بصوفه، يقلبه أرضاً ثم يربط قوائمه معاً ويسحبه إلى القارب، بينما تجلس إنغريد تراقبه وهي ترتجف خوفاً. للكبش أرواح كثيرة. إنه حيوانٌ متوحّش جامح، ذو صوفٍ طويل أشعث، تتدلّى قشور الطين والرمل المالح من فوق حوافره وحولها، وتتمايل على معطفه الصوفي الأسود الذي تفوح منه رائحة البحر والحظائر. عندما يصلان بارأوي، يضع هانس رسناً حول رقبته ويقوده بيسرٍ إلى الحظيرة دونما خوف من ردّة فعل مفاجئة، خصوصاً أنه قد أصبح بطيء الحركة وسهل القياد بعد رحلة العبور إلى الجزيرة. عندما ينجز الكبش مهمّته، يعيده ثانية إلى جزيرته، أو في بعض الأحيان،

وإن كانت نادرة، إلى جزر صغيرة أخرى حيث لا ترعى أغنامٌ في ذلك الوقت.

لكلّ الجزر الصغيرة أسماء. إحداها تُدعى العِقدة. ذات مرّة حاول كبشٌ أن يهرب. سبح الكبش حتى بلغ جزيرة العِقدة، وعندما وجده سكّانها تركوه حيث وجدوه. بعد ثلاثة أيام سبح عائداً. قال هانس: «لقد تلقّى درساً لن ينساه!»، بينما فكّرت إنغريد إنه شيء مخيف. وإن كان يشعر بالوحدة، فلماذا لا يسبح إلى جزيرة فيها أغنام؟ وتتساءل ما إذا كان أعمى. وهذا يجعل الأمر أكثر رعباً. لكن حتى الكبش الأعمى بوسعه أن يسمع، أليس كذلك؟

عندما تغيب الشمس في بحرٍ من اللهب يستطيعون أن يروا ظلّ الكبش في الأفق الأحمر، مثل حشرةٍ صغيرة فوق طوفٍ حجري عائم في المحيط. وعندما تهبّ الريح باتجاههم، يستطيعون سماع ثغائه.

«إنه يتضرّع إلى الله»، تقول باربرو.

يموت الكبش مثل كل الحيوانات الأخرى. لكن عندما يموت كبش يدفنونه. ذلك أن الكبش هو الحيوان الوحيد الذي لا يأكلونه.

- 10 -

لا يأكل سكّان الجزر طيور العيدر، رغم أنها ليست طيوراً أليفة. يبنون لها أعشاشاً حجرية من أجل الحصول على زغبها. ومنذ سنوات بنوا لها، هنا، عشّاً تحت درجات الشرفة(*)، ولهذا السبب يحتجزون القطّ في البيت أسابيع عديدة. وهو لا يحبّ هذا الحجز، لأنه يُمنع من مغادرة حجرة مارتن، حيث لا توجد ستائر يمزّقها. يسمّونه بونكن، وهو ذكر، لأنهم لا يحبون اقتناء قطّة تلد كثيراً من الفراخ في كل ولادة، وعندئذٍ سيقوم هانس بقتلها. لكن حال القطط كحال كلّ الحيوانات الأخرى على الجزيرة، كيف يمكنها الإنجاب إن كانت وحيدة؟

عندما يكون الطقس سيئاً في نهاية فصل الربيع ولا يستطيعون القيام بأيّ عمل في الخارج، تعمل باربرو وماريا على تنظيف زغب طيور العيدر بواسطة أمشاط خاصة، ثم تغسلانها. زغب طيور العيدر هو المادة الأثمن، والأكثر غرابة، التي يتعاملون بها في بارأوي. يمكن أن تأخذ حفنةً من هذا الزغب وتضعه على وجهك، فتشعر بدفءٍ مقدّسٍ قَصِيٍّ. كما يمكنك أن

(*) الشرفة في مثل هذه البيوت هي عبارة عن غرفة مسقوفة، أو مدمجة بالكامل مع الباب الأمامي للمنزل من أجل صدّ التيارات الهوائية، ولذلك تسمّى مصيدة الرياح، أيضاً. (م).

تعصر حفنةً منها في قبضتك، فتشعر كما لو أنك تعصر الهواء، ثم تفتح قبضتك ثانية وتراقبها كيف تعلو في راحتك مثل غيمة رمادية وكأن شيئاً لم يحدث.

عندما يريدون بيعه، يضعونه في كيس من القماش، ويربطونه بخيط ينتهي ببطاقة مكتوب عليها سنة جمع الزغب، واسم الجزيرة التي جُمِع فيها، والوزن، كيلو غرام واحد. كيلو من الزغب له حجمٌ مذهل، وخفّةٌ لا تُصدّق. هذا ما يجعل السعر الذي يتقاضونه مقابل هذه الكمية سخيفاً جداً. ولهذا السبب أيضاً يحتفظ سكّان بارأوي بهذا الزغب لأنفسهم. وهذه فكرة هانس. يصنعون منها لُحفهم، مثل لحف الأغنياء في المُدن، أو يخزّنونه في العلّيّة، الأكثر جفافاً، فوق الحظيرة، حتى تتحسّن الأسعار ويبيعونه بضعف السعر الذي يحصّلونه في السوق صيفاً، أو من توميسين في المتجر الرئسي؛ ذلك أن سعر الزغب ينخفض عندما يكثر عرض البيع، ويرتفع فقط عندما يريد هانس بيعه. هانس هو الوحيد، من بين سكّان الجزر، الذي ينجح في بيع زغب العيدر. ويُمكن أن يُعزى ذلك إلى أن حالة سكّان بارأوي المادية أفضل من حالة الآخرين، لأن هانس يحصل على نصيبٍ كامل من الصيد في لوفوتن، وربما أيضاً لأن عائلته صبورة جداً. يحتاج سكّان الجزر إلى التحلّي بالصبر أكثر من الآخرين.

لا تحب باربرو غسيل زغب العيدر، لأن يديها خشنتين كثيراً، ولهذا، في ذلك الصيف، عندما بلغت إنغريد الرابعة من عمرها بدأت تساعد أمها في هذه المهمة. تعشق إنغريد زغب العيدر، في البداية كانت تحب أن تلعب به، تنثره على المقعد الصغير الذي تجلس عليه. ثم تكتشف أنها عندما تمسك حفنة زغب نظيف بيد، وفي اليد الأخرى حفنة زغب وسخ، تدرك أنه لا يمكنها احتمال فكرة ألّا تنظّف تلك الحفنة غير النظيفة، وقد

تجنّ إن لم تنظّفها من الحشائش والرمال العالقة بها، قد تفضّل الموت على التقاعس عن هذا العمل.

أمّها علّمتها هذا. تطلب منها أن تجلس ساكنة، مغمضة العينين، وتتحسّس بهدوء حفنتين من الزغب، واحدة نظيفة والأخرى غير نظيفة، بينما هي تعدّ بصوت مرتفع ولا تكاد تصل العشرة أو الأحد عشر حتى ترى الابتسامة على وجه طفلتها وقد أدركت الفارق بينهما. عندئذٍ، تقول لها إنها قد تعلّمت شيئاً لن تنساه طيلة حياتها.

منذ ذلك الوقت وإنغريد تنظّف زغب العيدر أسرع من باربرو، التي تحرّرت من هذه العبودية وأصبحت قادرة على العمل في شيء آخر، في الحظيرة أو في سقيفة القارب حيث تُصلح شباك الصيد مثل الرجال.

- 11 -

تستطيع باربرو أيضاً أن تحيك شِباك صيدٍ جديدة، شباكاً لصيد سمك القدّ، والرنجة، والفلوندر، وسمك الخطّاف أيضاً. وتمضي معظم فصل الشتاء في هذا العمل، بينما يكون هانس في لوفوتن. الممتع في حياكة الشباك الجديدة أن الخيوط نظيفة وجافة وليست نتنة الرائحة، كما يمكنها أن تحيكها وهي جالسة في المطبخ تستمتع بدفء الموقد وهو يسري في جسدها، وتستمع إلى همهمات النار فيه، غير عابئة بالبرد القارس في الخارج.

لكن مارتن يكره أن يرى المطبخ مليئاً بعدّة العمل، ويعتقد أن هذه الأعمال ينبغي أن تُنجَز في الخارج، في الفناء أو في سقيفة القارب.

تنظيف الشباك وإصلاحها في البرد القارس هو أسوأ الأعمال على الإطلاق، وهو العمل الذي عطب كلّ الأيادي على هذا الساحل، لأنه العمل الوحيد الذي لا يمكن إنجازه مع استخدام القفّازات، وهذا ما يجعل مارتن يرى أن العمل بالخيوط النظيفة والجافة، لصنع شباكٍ جديدة، هو ضربٌ من الرفاهية، فكيف إن كنت تنجزه داخل البيت بالقرب من الموقد المتوهّج، فهذا بالنسبة له ليس ترفاً فحسب، بل غباء أيضاً، وهو ليس بحاجة إلى من يُذكّره أن ابنته الصغيرة لن تتغيّر.

لا تكترث باربرو لما يقوله والدها. ولا يكترث لكلامه الآخرون أيضاً. لا بدّ أن هذا قد بدأ منذ بضع سنوات فقط، لكن لا أحد منهم يستطيع أن يحدّد سبب ذلك بالضبط، غير أنه بين عشيّةٍ وضحاها ما عاد مارتن صاحب القرار في بارأوي، بل هانس.

إن كان الآخرون لا يتذكّرون فإن مارتن يتذكّر ذلك جيّداً: لقد حدث ذلك عندما وجدوا جذع الشجرة الروسية ذاك الذي لم يعرفوا ماذا يفعلون به. كان هو وابنه يعملان على رفعه على مزلقة، باستخدام عتلة فولاذية، وعندما حاول مارتن استخدام قوّته، انهارت كلّ طاقته فجأةً، انسربت من جسده إلى الأسفل كما لو كانت وتداً معدنياً يغرزه في الطين. حصل ماسٌّ كهربائي في دماغه. اضطرّ إلى الجلوس لاستعادة أنفاسه، وهو يلهث بشدّة، بينما ابنه ينوء تحت ثقل الجذع وحده.

منذ ذلك الوقت تغيّرت النغمة. وقد لاحظ الآخرون ذلك.

حتى إنغريد بدأت تتمرّد عليه. فقد كانت، على سبيل المثال، تفعل كلّ ما يمنعها عنه، فتلجأ إلى أمها التي تسمح لها بفعل كلّ ما يمنعها مارتن عنه. تنحاز ماريا أحياناً إلى مارتن، لكن وفقاً لمزاجها، وكأنها ببساطة لا تبالي لوجوده أو لما يقوله أو يقرّره.

تصالحَ مارتن مع هذا الوضع. لكنه أصبح غاضباً. عندما كان يافعاً، رجلاً في عزّ شبابه، لم يكن يغضب أبداً، لكنه الآن غاضبٌ دوماً. ولا أحد يهتم لهذا أيضاً.

في ليالي الصيف ينام القط فوق بطنه، هناك في حجرته، وعبر الحائط الرقيق يستطيع الجميع سماع شخيره وهرير القطّ أيضاً. شيء يبعث على الضحك. عندما تفقس طيور العيدر بيوضها، في العشّ تحت درجات الشرفة، وتقود صغارها، كرات الريش، نازلةً الطريق الطويل إلى البحر،

يطلقون سراح القطّ من جديد حيث ينام بقية العام تحت الموقد في المطبخ، عندما لا يكون في الخارج يتصيّد فئراناً أو طيوراً صغيرة.

كانت نهاية القطّ بونكين مأساوية.

لقد اختطفه نسر البحر. حدث ذلك في موسم تجفيف التبن. سمعوا صراخاً. رفعوا رؤوسهم عن مِدَمّاتهم(*) وأسلاك التجفيف، فشاهدوا بقعة سوداء غير واضحة المعالم تحت جناحي نسر البحر الكبيرين. كان يتلوّى ويخرمش ويهسهس، وللحظة اعتقدوا أنه سينجح في تحرير نفسه. وقد نجح فعلاً. لكن في اللحظة التي بدأ فيها بالسقوط، أدركوا كم كان مرتفعاً. راقبوه كيف كان يرفس بأرجله مثل جناحي خفاش، ويهبط هبوطاً لا نهائياً، قبل أن يبدأ، دون سبب واضح، بضرب الهواء بأرجله، ربما لأنه سئم السقوط وأراد أن يجري، لكنه بدلاً من أن يجري انقلب نصف قلبةٍ وارتطم ظهره بصخرة، بالقرب من سقيفة قارب لوفوتن.

قال هانس: «كان سقوطاً عالياً حتى بالنسبة إلى قطٍّ!». وذهبت قولته مثلاً في الجزيرة، وكان يكرّرها كلّما حدث شيء يفوق طاقة سكّان بارأوي.

دفنت إنغريد وباربرو القط في زاوية الحديقة الوردية، ووضعتا فوق القبر بعض الأصداف على شكل قلب. غنّت باربرو بعض الترانيم، وبكت إنغريد. وبعد أسبوع تقريباً أحضر هانس بدلاً منه. لكنه أحضر قِطّةً وأطلقوا عليها اسم كارنوت، على اسم أحد زملاء هانس في المدرسة، الذي يعتقد هانس أنه كان يشبه القطة، حتى إنه كان يُلقّب بالرجل القط عندما كان صغيراً. كانت القطة كارنوت بنّية اللون وجميلة مثل حلوى الكراميل الطازجة. كانت رشيقة ومحبوبة، وتجلس على طاولة المطبخ عندما تكون

(*) مِدمّة: تسمى أيضاً «مشط الأرض»، وهي أداة زراعية تستخدم في تسوية الأرض وتليين تربتها، وجمع الأوراق والتبن والعشب. (م).

وحدها في البيت. في الليل تنام عند قدمي سرير إنغريد. ولقّبوها بالقطّة النهارية، لأنها كانت تنام طوال فترة نوم البشر وفي الأوقات نفسها. وكانوا يضطرّون إلى حجزها داخل البيت عندما تعود طيور العيدر في الربيع التالي إلى العشّ تحت درجات الشرفة. طيور العيدر حيوانات مقدّسة.

- 12 -

يبدأ الشتاء بعاصفة. يسمّونها عاصفة الشتاء الأولى. وقد هبّت على الجزيرة عواصف، من قبل؛ ففي شهري آب وأيلول، على سبيل المثال، تسبّبت العواصف بتغييرات مفاجئة وعديمة الرحمة في حياتهم.

تكون هذه العواصف قصيرة عادة، وتتسبّب بتساقط أوراق الشجر. وكما قلنا سابقاً، لا يوجد الكثير من الأشجار في الجزيرة، لكن، هناك عددٌ لا بأس به من شجيرات التوت والبتولا والصفصاف، التي تتحوّل أوراقها في أواخر الصيف إلى اللون الأصفر، البني والأحمر في أوقات متفاوتة، فتصبح الجزيرة في بعض أيام شهر أيلول مثل قوس قزح أرضي. وتبقى على هذه الحال حتى تهبّ على الجزيرة ريحٌ مفاجئة تذرو أوراقها إلى البحر، وتحوّل باراأوي إلى حيوان ذي فراءٍ بنّي متقرّح، وتبقى على هذه الحال حتى الربيع التالي، عندئذٍ تكفّ عن أن تشبه جثّةً بيضاء الشعر تحت أكوام من الثلج والماء الطيني، بينما ثلج جديد يهطل ويختفي، ثم يليه ثلجٌ يتكدّس كأنه يحاول أن يقلّد البحر على اليابسة. لكن هذه العواصف ليست أقسى من العواصف التي خبروها من قبل، حتى إنهم يستطيعون أن يتذكّروا آخر عاصفة، في العام الماضي.

من ناحية أخرى، فإن العاصفة الشتوية الأولى أمرٌ مختلف تماماً.

وهي عاصفة لا شبيه لها أبداً، وتأتي دوماً بعنفٍ مفرط، لم يعهدوه من قبل، رغم أنها قد حدثت في العام الماضي. ومن هنا جاء تعبير «في الذاكرة الحيّة»، فقد نسوا ببساطة كيف كانت الريح، بما أنهم لا يملكون خياراً آخر سوى أن يركبوا هذا الجحيم بأفضل ما بوسعهم، ثم يمحونه من ذاكرتهم بأسرع ما يمكن.

الآن، هم وسط عاصفة من هذا النوع، اندلعت في غضبٍ مستمرّ منذ أكثر من نهار وليلة، وتُطيّر ندف الثلج فوق الجزيرة مثل خصلاتٍ من الصوف الأصفر، والمطر يهطل بقوة مثل البَرَدِ، وفوق ذلك كلّه هناك مَدٌّ لا يتراجع. وقد خرج هانس ثلاث مرّات ليربط أشياء لم يخطر له يوماً أنه سيضطرّ إلى ربطها. فقد رأى العاصفة ترمي إحدى غنماته إلى البحر قبل أن يسرع إلى إدخال الأغنام الأخرى إلى سقيفة القارب، لأنهم لم يذبحوها بعد وليس لديهم مكانٌ آخر يضعونها فيه، وهكذا يربطها إلى القارب الذي يربطه أيضاً إلى المرساة. مضحكٌ ما يجري في عقول الرجال عندما تهبّ عاصفة الشتاء الأولى.

يربط أيضاً غطاء خزّان الماء الجديد بالحبال، ويستغرقه هذا العمل بضع ساعات. كما يضطرّ إلى جمع كلّ مزاريب الأسطح التي بعثرتها الريح، ويضع فوقها حجارة كبيرة قبل أن يتمكّن من الزحف عائداً إلى البيت. يدخل إلى البيت مبلّلاً من رأسه إلى قدميه، ووجهه متشنّج لدرجة أن إنغريد عرفته بصعوبة.

لا تحبّ إنغريد هذه العواصف، ولا تحبّ صرير البيت ونفخات البوق من المدخنة. الكون كلّه مضطرب، والريح تمزّق الأنفاس في رئتيها، عندما تخرج مع أمها إلى الحظيرة، وتجفّف الرطوبة في عينيها، وترطمها بالجدران والأشجار المنحنية، وتجبر العائلة كلّها على التخييم في المطبخ

أو غرفة الجلوس، وحتى هناك لا يغمض لهم جفنٌ. حتى مارتن يجلس في كرسيّه ساكناً، عندما تجتاح عاصفة الشتاء جزيرته، قبّعته الصوفية فوق رأسه، ويداه الكبيرتان تستريحان فوق ركبتيه مثل قذيفتين فارغتين؛ ما لم تمسك بهما إنغريد، التي لا تتوقّف عن الجري بينه وبين طاولة المطبخ والموقد ومخزن المؤن، ثم تجلس على صندوق التورف، مؤرجحةً قدميها، وبعد ذلك تعود إلى جدّها وتلعب بيديه كأنهما دبدوبان صغيران.

تكفهرّ وجوه الكبار. يقطّبون جباههم ويتهامسون ويحاولون أن يضحكوا، لكن سرعان ما يكتشفون أنهم يمثّلون ويعودون إلى مزاجٍ أكثر جدّية، صحيح أن الأبنية في بارأوي قد صمدت في وجه كلّ العوامل حتى الآن، لكنها ليست أكثر من أثر من الماضي: فقد كان في قديم الزمان بيتٌ في كارفيكا، لكنّه ما عاد موجوداً.

منظر والدها هو الأسوأ. لو لم تكن إنغريد تعرفه جيّداً لظنّت أنه كان خائفاً، وهو لا يخاف. سكّان الجزر لا يخافون أبداً، وإلا لما كانوا قادرين على العيش هنا، كانوا سيضطرّون أن يحزموا أشياءهم وممتلكاتهم ويرحلوا، أن يكونوا مثل الآخرين في الغابات والوديان. ولكان ذلك كارثة، لدى سكّان الجزر ميولٌ سوداوية، وهم محاطون بالجدّية لكن ليس بالخوف.

لا ينتهي هذا الحدث الجلل إلا مع خروج ربّ العائلة مرّةً أخرى، ثم يعود ووجهه مدمّى ويقول بتكشيرةٍ كبيرة: «الطقس في الخارج رائعٌ الآن!».

تمضي برهة من الزمن قبل أن يفهموا أنه يمازحهم. عندئذٍ يمسحون الدم عن وجهه ويجدون أنه قد أُصيب بجرح بسيط في ذقنه. يطلب أن يعدّوا له فنجاناً من القهوة ويخبرهم أن شجرة الغبيراء العجوز قد بدأت

الآن تميل نحو الشرق، فيفهمون أن الرياح قد غيّرت اتجاهها، من جديد، من الجنوب الغربي المخيف إلى الغرب، وهذه أول أمارة على أن إعصاراً جديداً على وشك أن يتحوّل إلى عاصفة عادية، ثم يتحوّل إلى عاصفة شمالية وتخفّ قوّتها، قبل أن تنحسر في النهاية بما يكفي ليتمكّنوا من حمل دلاء الماء إلى الحظيرة دون أن يصلوا بها فارغة.

تحمل باربرو وماريا دلاء الماء الآن نصف ملأى، وتذهبان إلى الحظيرة. بينما يقف هانس في المطبخ متأملاً وهو يعبث بالجرح الصغير في ذقنه؛ وفجأةً تخطر له فكرة غير متوقّعة ويطلب من إنغريد أن تخرج معه لتتفرج على البحر، كي تتعلّم ألّا تخافه، الآن، وهو في أوج هيجانه، وفي أكثر حالاته إفادةً.

لا يعرف لماذا يختلق هذه الفكرة.

ولا هيَ تعرف أيضاً.

لكنّه يُلبِسُها معطفها، ويربط حبلاً حول خصرها، بينما مارتن يراقبه ويهزّ رأسه. يخرجان تحت السماء المربدة الغاضبة، ويتجهان نحو الجنوب، يسيران عكس التيار وسط نهرٍ من الريح والماء، بصعوبة يتسلقان ثلاثة أسيجة حجرية ويقرفصان وراء أحدها ليستردّا أنفاسهما، ثم يتجاوزان سياجاً آخر بينما والدها يضحك من كلّ عثرة وإنغريد ترفع يديها أمام وجهها كي تستطيع أن تتنفّس، يصعدان الهضبة المنخفضة وراء جذع الشجرة الروسية التي تشكّل آخر حصنٍ أمام الزئير الذي يتقدّم نحوهما - جدرانٌ من الماء الغاضب ترتفع عالياً مقتحمةً عتمة الليل، ثم تهوي نحوهما وتتكسّر فوق الصخور والشاطئ والحجارة، وتسوطهما بالرمل والأصداف والثلج، وهذا ما لا يستطيع أحدٌ أن يتخيّله، أو يستوعبه، أو يتذكّره، أبواق الجحيم، لا يسعك إلا أن تنساها فوراً.

«لن تؤذيكِ!»، يصرخ والدها في أذنها.

لكنّها لا تسمعه. كلاهما لا يسمعان. يصرخ بأنها ينبغي أن تعرف بجسدها أن الجزيرة لا تتزحزح، حتى لو اهتزّت، وحتى لو اضطربت السماء والبحر معاً، فالجزيرة لا تختفي أبداً مهما اهتزّت، لأنها راسخة وأبدية، ومُثبّتة في الأرض ذاتها. أجل، في هذه اللحظة على الأغلب يريد هانس أن يشارك ابنته معتقداته الدينية، بما أن لا ولد لديه، ومع كل يوم يمضي يزداد ثقة أنه لن يكون لديه ولد، ولذلك عليه أن يرضى بابنةٍ ويعلّمها المبدأ الأساسي القائل بأن الجزيرة أبداً لا تغرق، أبداً.

لاحقاً ستفكّر إنغريد كم كان ذلك المساء غريباً، وسوف تقول لن أنساه أبداً، لكن بعد فترة طويلة من مرور العاصفة، عندما لا يبقى إلا ما هو راسخٌ، أي السؤال عما إذا كانت الجزيرة أكثر من حبة رمل. وهذا سؤال لا يستحثّه أبوها، بل أمها، التي ما إن يدخلا البيت حتى يعلو صراخها بوابلٍ من التوبيخ، وتشكو من أنها لا تستطيع حتى أن تذهب إلى الحظيرة دون أن يقوم هذا الأخرق، زوجها، بتعريض حياة صغيرتها للخطر، وأنه إذا كرّر أفعاله الخرقاء هذه: «سوف أطلّقه وأغادر الجزيرة!».

ليست هذه المرة الأولى التي تُقال فيها هذه العبارة في هذا البيت المتداعي، لديهم أعصاب فولاذية، لكن هذه هي المرة الأولى التي تفهم إنغريد دلالة ما يقال: أن الجزيرة مكان يمكن أن يهجره المرء.

تجهش إنغريد بالبكاء، وتستغرق ماريا بعض الوقت لتفهم أنها لا تبكي بسبب العاصفة، بل إنّ كلماتها هي التي صدمتها، لكن ما قيل لا يعني شيئاً، إنها مجرّد أصوات غضب. إلا أن ماريا لا يمكن أن تحمل نفسها على قول ذلك صراحةً، بالطبع لن يغادروا باراوي أبداً، إنها فكرة مستحيلة،

خصوصاً الآن حيث عاصفة الشتاء الأولى في سكرات موتها الأخيرة وراء هذه الجدران التي تفرقع، في هذه الظروف يفقد المرء توازنه، ولا يستطيع أن يفهم كيف أنه ما إن يعيش على جزيرة، حتى يغدو غير قادر على مفارقتها، وأن الجزيرة تتمسّك بما عليها بكلّ ما لديها من قوّة.

- 13 -

في الأيام التالية يخرجون إلى الشواطئ في جنوب الجزيرة، هانس يحمل مذراةً طويلة، ومارتن يحمل خطّاف القارب، والآخرون كلٌّ يحمل مدمّته. يجوبون الشواطئ وينقّبون في أكوام الأعشاب التي قذفتها العاصفة على الشاطئ، أكوام كبيرة، مثل السجق البنّي، تغطّي الحقل والأسيجة الحجرية، متداخلةً في بعضها مثل حبالٍ قوية لزجة، ينبشونها ويجدون فيها قطعاً من الخشب وخيوط صيد سمك ومغارف وعلبة شاي غريبة على غطائها صورة عقربٍ، ساعة حائط لا تعمل، وكتاباً منتفخاً من الماء وقد انمحت كلّ الكلمات من صفحاته. يتناقلون في ما بينهم الأشياء التي يجدونها، وهم يطلقون صيحات الدهشة، قبل أن يحملوها إلى التلة حيث يضعونها في العربة المربوطة إلى الحصان الذي يقف هناك حانياً عنقه وهو يلوك الحشيش، وبعد قليل يستلقي فوق العشب لأنه ما عاد قادراً على تحمّل عناء الوقوف أكثر من ذلك، يستلقي بين ساعدَي العربة مثل ثور.

الحصان.

الحصان ليس فتيّاً. ولم يكن فتيّاً عندما وصل إلى الجزيرة أيضاً. لقد جاء في قارب، أكبر سفينة شاهدتها إنغريد، وأُنزِل إلى الشاطئ في حزام

بواسطة رافعة وضعته على الأرض الصخرية بجانب سقيفة قارب لوفوتن، حيث سيبنون يوماً ما رصيفاً. في تلك اللحظة كان حصاناً متوحّشاً ذا نظرةٍ شريرة، قلبَ بياض عينيه، ورفس، وصهل، وعضّ. فما كان منهم إلا أن قصّوا الحزام وتركوه يركض على هواه حتى هدأ من تلقاء نفسه. كان يُفترض أن يكون حصاناً أليفاً، هذا على الأقل ما بدا عليه عندما كان يقف هادئاً في مرج المتجر. وهذا ما دفع هانس إلى شرائه برخص. كان ثمنه زهيداً جداً.

كانت مراقبة هذا المواطن الجديد ممتعةً. لقد ركض مثل المجنون في كلّ أنحاء الجزيرة، وعندما فوجئ بالبحر أمامه في الشرق حوّل مساره إلى الجنوب حتى واجه مزيداً من البحر هناك، فعاد على أعقابه مرّةً أخرى وجرى صوب الشمال، وحرّك رأسه في كلّ الاتجاهات، حصان عجوز، شاهد جداراً من البحر أمامه واستمرّ في تغيير مساره حتى زار معظم أرجاء موطنه الجديد، واضطرّ عندئذٍ أن يدرك أنه على جزيرة ولن يغادرها أبداً.

لكنّه لم يكن حصاناً لطيفاً.

كان يرفس الحيوانات الأخرى، مما اضطرّهم أن يخصّوه بحيّزٍ في الحظيرة، وأقاموا حاجزاً بينه وبين الأبقار، لأنه يرفس ويعضّ. وكان هانس الوحيد القادر على التعامل معه، في البدء كان يضربه بالعصا أو يصفعه بيديه. غير أنهما توصّلا في نهاية المطاف إلى ما يشبه الاتفاق بينهما، بناءً عليه كان الحصان حرّاً في أن يفعل ما يريد، وكان هذا مقبولاً، ما دام يجرّ العربة المليئة بالتبن والتورف وجزازة العشب، التي بوسعهم استعمالها فقط في المروج الأربعة المسطّحة، وما دام قادراً على جرّ المحراث الصغير الذي اشتراه هانس، وجعل حديقة البطاطس أكبر وأسهل للعمل، أجل، في هذه الحال يتغاضى هانس عنه عندما يستلقي وينام كثيراً ويطوّح

برأسه بعنف، ما يعني أن إنغريد لا تستطيع ركوبه، حتى عندما يُلبَس اللجام. لكنهم لم يطلقوا عليه اسماً.

لديهم أسماء لكلّ شيء برّي على الجزيرة.

لوتس كورنيكولاتوس، البرسيم، قضيب آرون، منقار اللقلق، الحوذان، سحلية الخلنج المرقّطة، ملكة المرج، حشيشة الملاك، الجريس مستدير الأوراق، جرس الثعلب، الساكسفراج، نبات السلّة والحمّاض. نورس الرنجة، الزاغة، الغاق، الغلموت، طائر البفن، مالك الحزين، زمار الرمل، الكروان، الأبلق، والذعرة البيضاء، وفأر الحقل وقنفذ البحر، البطلينوس، غلاية العملاق وقمة الرياح الشمالية، التوت البري، الخلنج، الراوند، نبات القرّاص، والبجع المغنّي الذي يستقبل موسمين بأصوات تشبه البوق الحزين... وكل شيء مروَّض له اسم: الأبقار، الأغنام، القطط، وحتى الخنزير، الذي جلبوه قبل نصف عام فقط، باستثناء الحصان، وهذا نشازٌ مضاعف، لأنه حيوان مروَّض ويختلف عن كلّ الحيوانات الأخرى من النوع ذاته، لكن هذه هي الحال مع هذا الحيوان، لا مثيل له.

العربة مليئة الآن. ينخس هانس بمقدّمة قدمه بين أضلاع الحصان كي يقف على قدميه، ثم يسكسك له بلسانه وهو يمشي بجانبه صاعدين المروج باتجاه سقيفة القارب في الشمال، وهناك يقدّم له بعض التبن اليابس في عليق، ربطه إلى باب السقيفة، بطريقة لا يستطيع فيها الحصان سحبه والهروب به.

يفرغون العربة من كل الأشياء التي حملتها العاصفة إلى الشاطئ، ويبدؤون بفرزها، معظمها من الخشب، الذي ينشرونه ويكدّسونه في الحظيرة، وهناك أيضا ثماني وعشرون عوّامة زجاجية، سيأخذها مارتن، خمسة أوتاد تعليم مع عوّامات أو من دونها، وواحد بحبل سحب بطول ستّين ياردة، وهذه يلفّها هانس ويعلّقها بخطّاف في سقيفة القارب. أربعة

إطارات على شكل مربع مفتوح مع خيوط الصيد المتدلّية منها، خمسة صناديق سمك وهذه يضعونها في سقيفة القارب وسقيفة قارب لوفوتن، ثلاثة صناديق أشراك، أحدها ينقصه عارضة وسوف يصلحه مارتن، ما يكفي من الأعمدة لصنع نصف رفّ تجفيف، غطاء تعليق للسفينة يحتاج إلى شخصين لرفعه، ستة أحذية بحرية، وكلّها فردة يُسرى وإحداها غير قابلة للاستعمال لأن شخصاً ما قد قصّ كعبها، أو أنها تعرّضت للعضّ.

وقناع كرنڤال تنكّري.

يرفعه هانس أمام وجهه ليخيف إنغريد، لكنّه ينزله بسرعة، لأنه نتن ويحتاج إلى غسل بالماء الساخن.

إنه قناع شيطان، بلونٍ أحمر، مثل البرق، فوق الحاجبين، شاربان أسودان وعينان فارغتان، فمٌ بلا أسنان وخَدّانِ أبيضان عاليان وعليهما دُوّامتان حمراوان، ممّا يجعله يبدو مخيفاً ولطيفاً في آنٍ معاً. وجه غبيٌّ وفارغٌ، لكنه قد يبدو أفضل حالاً عندما يزيلون عنه الوحل والطحالب البحرية الدبقة، ويفركونه بورنيش مناسب للونه، وقد يمنحه عمقاً خاصاً. سوف يعلّقونه على جدار غرفة الجلوس، حيث سيبقى عمراً قبل أن يكتشفه زائرٌ غريب ويقدّم لهم ثمناً باهظاً. يقول الضيف الغريب إن هذا القناع لا يساوي بالطبع الثمن الذي يدفعه لهم، غير أن وجود القناع هنا، جسمٌ غريب في بيت متواضع على جزيرة نائية، يجعله استثنائياً، لا بدّ أن يكون أمارة على شيء ما، لكنّه لا يقدّم أيّ تفسيرٍ إضافيّ.

كلام الضيف الغريب يثير شكوك سكّان الجزيرة، ويرفضون بيع القناع، ويفضّلون بقاءه على جدار غرفة الجلوس، فقد عرفوا الآن أيضاً أنه قناع فرنسي، ولن يكلّفهم الاحتفاظ به شيئاً، عدا عن أنهم يؤمنون بالله لا بالأَماراتِ.

يعثرون بعد العاصفة أيضاً على خمسة أعمدة مطليّة بالقطران، كلّها جديدة وسليمة، وقد صُنعت فيها ثقوب للتثبيت ولا تزال البراغي موجودة في بعض الثقوب. وهذا يجعلهم يخمّنون أنها من رصيف واحد. لقد فقد أحد سكّان الجزر رصيفاً كاملاً في هذه العاصفة، رصيفاً جديداً. ربما يعيش على مقربة منهم. حتى إنهم قد يعرفونه شخصياً، ويعيش على إحدى الجزر المجاورة في الجنوب.

يسحب هانس ومارتن الأعمدة ويضعانها، في كومة منفصلة، إلى جانب المواد التي جمعاها كي يبنيا رصيفاً خاصاً بهم في يومٍ من الأيام. ثم يقول أحدهما ويوافقه الآخر على أن أخشاباً باهظة الثمن كهذه ينبغي أن تُستثنى من القاعدة القائلة بأن كل ما تأتي به العواصف يصبح ملكاً لمن يجده، ويتفقان أن هذا يشبه أن يجد أحدٌ قارباً تائهاً، برقمٍ واسمٍ، وهذا يعود للمالك، حتى إشعارٍ آخر. لكن الآن لديهما موادّ كثيرة، لذلك إن لم يستخدما الأعمدة الجديدة الآن، فهي تحفّز الفكرة، فكرة أنه لم يعد من الممكن العيش هنا دون رصيفٍ للقارب.

- 14 -

في شهر شباط يمكن أن يكون البحر مثل مرآة فيروزية؛ وجزيرة بارأوي، المغطاة بالثلوج، مثل غيمة في السماء. الصقيع هو ما يجعل البحر أخضر، وأكثر صفاءً، وهادئاً ولدناً كالهلام. ويمكن أن يتجمّد تماماً مثل طبقة شفافة، ويتغيّر من حالة إلى أخرى. لقد اكتست الجزيرة بحافة جليدية، أحاطت أيضاً بالجزر الأخرى، فأصبحت أكبر.

تقف إنغريد بجزمتها الصوفية على أرضية زجاجية، في منتصف الطريق بين بارأوي ومولتهمولمن، وترى من تحتها أعشاب البحر والسمك والأصداف في منظر طبيعي صيفي. وترى قنافذ البحر ونجوم البحر والصخور السوداء في رمل أبيض، وأسماكاً تنطلق عبر غابة من أعشاب البحر المتأرجحة؛ الجليد عدسة مكبّرة، نقيّة كالهواء، وإنغريد طفلة في السادسة من العمر تحلّق فوق الجليد، من المستحيل أن تقاوم الرغبة في السير فوق الجليد بمجرّد أن يتشكّل.

لقد راقبت الجليد وهو يزداد سماكة وأماناً، ففتحت ثغرة فيه باستخدام حجر، ثم سرقت أحد فؤوس والدها وبدأت تضرب الجليد بها، وهي تشقّ طريقها خطوةً إثر أخرى نحو الشاطئ، وحيث لا يتكسّر الجليد تحت الفأس، تعتبره طريقاً آمناً للسير عليه.

إنها تمشي، الآن، في نومها، إلى مولتهولمن، التي تشبه أيضاً سحابةً في السماء، ثم تجلس على الثلج وهي تلهث، قبل أن تكتشف أن السير على الجليد ليس أخطر من السير على اليابسة. تعاود السير بهدوء على الجليد، وهي تميل إلى الوراء قليلاً كي توازن جسدها، لا صوت في هذا العالم، ولا ريح، ولا طير، ولا حتى بحر.

تدفع بجسمها إلى الأمام وتنزلق بسرعة فوق الجليد، تركض ثم ترتمي على بطنها وتتزلّج إلى الوراء باتجاه الجزيرة، وعندما تصبح على بعد عشر أو اثنتي عشرة ياردة من الشاطئ تسمع صوتاً يشقّ السكون. صوت أمها، التي رأتها من الفناء وجاءت راكضة بأقصى سرعتها فاغرةً فمها وهي تومئ بذراعيها، تقفز فوق الأسيجة والصخور وغبار الثلج يتطاير من حول قدميها.

لكنّها تتوقّف عند الشاطئ، كما لو أنها أمام جدارٍ، وتبدأ في الركض جيئة وذهاباً، يعوق تقدّمها حاجزٌ لا وجود له.

تضحك إنغريد من حالة أمها. وتقوم بدورة أخرى وتنزلق، وأمها تصرخ لا، لا، وهي تركض جيئة وذهاباً وراء ذلك الحاجز اللامرئي حتى تزول الغشاوة عن عينيها فجأةً وتخطو خطوتها الأولى على الجليد إلى الأمام، وذراعاها مشدودتان كأنها تمشي على حبلٍ مشدود، وهي تحبس أنفاسها وتعضّ على شفتيها، ولا يهدأ غضبها قبل أن تضمّ طفلتها إليها وتتأكّد أن كلتيهما بخير.

تقف ماريا متيبّسةً في مكانها وتتلفّت حولها، لا تستطيع أن تصدّق عينيها؛ إنهما طافيتان.

«تعالي!»، تقول لابنتها.

تتزلّجان بضع خطوات، ثم تجريان، وتتزلّجان الخطوات القليلة التي

تفصلهما عن الشاطئ وهما تضحكان وتلهثان. لكن إنغريد تحرّر نفسها من أمها وتركض مبتعدة. ماريا تصرخ لا، لا، من جديد لكنها تتبعها. تمسكان إحداهما بيد الأخرى وتتزلجان على طول الشاطئ باتجاه الشمال، في الخلجان وحول الرؤوس البحرية، بين الجزر الصغيرة والتلال حتى تسمعا صوتاً وتريا باربرو قادمة من ناحية سقيفة القارب وهي تحمل كرسيّها وتحدّق بهما مرعوبة.

تصعدان إلى الجزيرة ثم تجرّانها إلى الجليد، تُجلسانها على كرسيّها وتفتلانها فوق الجليد، وتزلّجانها متجاوزتين الجانب الشمالي من الجزيرة، لكنهن لا يصعدن الجزيرة هنا، ولأن باربرو قد أحبّت اللعبة، تستمرّان في تدوير كرسيّها على الجليد بينما هي تصرخ وتُوَيّل، ويذهبن حول الجزيرة حتى يصلن إلى الأطلال في كارفيكا.

هناك يخُضنَ في الثلج ويحملنَ الكرسي إلى البيت. لم يكن مسموحاً لباربرو أن تُخرج الكرسيّ من البيت، ولا حتى عندما تريد أن تذهب إلى سقيفة القارب لحياكة الشباك.

مارتن هو الشخص الوحيد الذي لا يمشي على الجليد. يبقى في البيت ولا يُصدّق أن هناك جليداً، رغم أنهنّ يخبرنه ذلك، لم يتشكّل الجليد هنا من قبل، فالمدّ والجزر يجعلان ذلك ضرباً من المستحيل، بصرف النظر عن قوة الصقيع والصمت. وليس لديه أي نيّة في الخروج ليرى بنفسه أيضاً. لكن عندما يعود ابنه هانس من لوفوتن آمناً وسالماً، في الوقت الذي يعود فيه صائدو المحار إلى اليابسة، ويسأل عما استجدّ في غيابه، سيخبره مارتن أن الجليد قد تشكّل هنا في الشتاء، حول الجزيرة كلّها، وإن يكن لبضع ساعات فقط، لكنه كان كثيفاً وقوياً بما يكفي ليمشوا عليه، حتى

هبّت عاصفة وكسرته وجرفته إلى الشاطئ، حيث تجمّع هناك مثل حطام زجاج لأسابيع عديدة قبل أن يذوب، في أواخر شهر آذار.

يسأله ابنه ما إن كان قد فقد عقله تماماً.

ويندم مارتن العجوز لأنه أخبره ذلك.

- 15 -

في اليوم الثاني من العام الجديد يرى سكّان بارأوي أضواءً في عتمة الشتاء. إنه قارب العمّ إرلينغ يخرج من عتمة الليل، ثم يتوقّف متأرجحاً صعوداً وهبوطاً أمام قمة الصخرة الكبيرة، التي يسمّونها هامر، حتى يتجمّع أهل الجزيرة هناك. وسرعان ما ينزلون؛ فقد انتظروا هذه اللحظة طويلاً.

عندما يكون الطقس مناسباً يضع هانس لوحاً خشبياً بين هامر وحافّة القارب، ومثل مؤدٍّ في سيرك يبدأ بنقل معدّاته إلى القارب: عشرة أحواض أشراك، وثلاثة صناديق من العوّامات، واثنتَيْ عشرة علامة بحرية، حبال، صندوق لوفوتن الثقيل، ويحتاج في حمله إلى مساعدة أحد عمّال القارب، وبُسُطٍ، وسطول اللبن الرائب، ومعاطف مطرية، بينما يُطِلّ العمّ إرلينغ برأسه من نافذة قمرة قيادة القارب، يراقب الطقس ويتحدّث إلى أبيه، مارتن، الذي يقف على الصخرة ويداه في جيبيه. يتحدّثان كأنهما قد التقيا آخر مرّة ليلة أمس، لكنّهما في الواقع لم يلتقيا منذ ثمانية أشهر، منذ أيار الماضي، عندما أنزل إرلينغ أخاه هانس في هذا المكان ذاته بعد نهاية موسم الصيد الماضي. غير أنه لم يحدث شيء يستحقّ الذكر منذ ذلك الوقت، إذ إنه لم يمت أحد ولم يولد أحد أيضاً، وبالمناسبة إن زوجتي هيلغا تبلغكم السلام.

وعندما يكون الطقس سيّئاً أيضاً، يستعمل هانس اللوح الخشبي ذاته، غير أن نقل الأشياء إلى القارب يستغرقه وقتاً أطول. ويطلّ العم إرلينغ برأسه من نافذة قمرة قيادة القارب أيضاً، ويقول العبارات ذاتها، التي تحملها الريح معها قبل أن تصل إلى آذان الواقفين على هامر، بينما يمسك عجلة القيادة بيده اليسرى متحكّماً بتوازن القارب المتأرجح ويبقيه على مسافة آمنة من الصخور، في كل مرّة تعتقد فيها إنغريد أن كارثة ستقع الآن وتغمض عينيها.

لا يقدّم مارتن أي مساعدة لهانس.

يقف على الرصيف، وهو ربّان هذه الجزيرة، تاركاً ابنه الصغير يجاهد وحيداً في نقل المعدّات إلى القارب بينما يتحدّث مع ابنه الأكبر، في قمرة القيادة، حول شيء ما وبالطريقة ذاتها لو لم تكن هناك ريح.

ماريا وباربرو موجودتان أيضاً، تقفان وقد عقدتا ذراعيهما فوق صدريهما وتنحنيان إلى الأمام قليلاً في وجه الريح، بينما يرفرف وشاحاهما مع الريح مثل علمين.

يحصل أن تصيح ماريا بملاحظة مضحكة للعم إرلينغ، الذي يبتسم ويردّ بشيء لا تفهمه إنغريد، لكن ماريا تضحك له ويتجاهله مارتن. تودّ باربرو لو تساعد أخاها في نقل الأحواض، لكنها تعرف أنهم لا يسمحون بوجود النساء على متن قوارب الصيد. من أجل سلامتهن طبعاً، كما أن ليس لديهم على متن السفينة كعك الوافل ولا جبن بنيّ(*)، وهم لا يصفّرون

(*) هو منتج نرويجي نموذجي، على الرغم من إنتاجه في عدد قليل من مصانع الألبان في السويد. كما تظهر منتجات مصل اللبن المغلي بشكل متقطع في بعض الثقافات الأخرى في العالم. في الأصل، كان الجبن البنّي يُصنع في المزارع عن طريق غلي مصل اللبن، فيحصل المزارعون على منتج سكري وخالٍ من الدهون. أما الجبن =

أبداً، ومن يصفّر في البحر هو في حكم الميّت بلا شك، سواء آمن بالله أو بالقدر، فلا فرق هنا بين إيمانٍ وإيمان.

تتجمّد إنغريد من البرد، تتجمّد حتى نقيّ العظم في كلّ مرّة تقف فيها هنا وتشاهد أباها يرحل. إنه اليوم الثاني من العام الجديد، وهو اليوم الأتعس من بين الثلاثمئة وخمسة وستين يوماً، وهذا يومٌ ينتهي بمشهد فوانيس القارب الخلفية المتأرجحة وهي تختفي في هذه الليلة الصاخبة كما تختفي جمرةٌ متوهّجة في مدخنة مدفأة.

وهكذا تحلّ عليهم جديّة الموقف.

ليس جديّة العاصفة، بل جدّيّة دروس الوحدة التي تُلقّنهم إياها السنة والجزيرة ببطءٍ. فجأةً يقلّ عددهم، فيهيمون في الجزيرة وقد فقدوا قائدهم. يتحدّثون بأصوات منهكة أو صامتة، سريعو الغضب وضيّقو الصدر. إضافةً إلى أن لوفوتن هي مكان ليس بالضرورة أن يعود المرء منه إلى بيته سليماً معافى، الأمر هناك أشبه بلعبة النرد مع الموت، وفي لوفوتن يموت أكثر من مئتي رجل في كلّ شتاء، وهذا أمر لا يتحدّثون عنه صراحة، بل يلمّحون إليه مواربةً. حتى إنه لا توجد أي مقبرة في العالم يفوق عدد الأموات فيها عدد أولئك الذين يقبض الله أرواحهم على طول هذا الشاطئ.

وهكذا تمضي الأيام، في شهر كانون الثاني.

= البني الدهني، السائد اليوم، فقد اختُرع في منتصف القرن التاسع عشر من قبل آن هوف في مزرعة Rusthâgå في Nord-Fron، حيث جرت إضافة الكريما الحامضة السميكة إلى مصل اللبن المغلي. وقد كان الجبن البني على الفطائر وجبة منتظمة في جميع كنائس البحّارة حول العالم.
يمكن القول إن الجبن البنّي هو «مُرَكّزٌ مكرمل من مصل اللبن، مضافاً إليه الحليب و/ أو القشدة». ما يقرب من نصف المادة الجافة في الجبن البنّي هي سكر الحليب. (م).

وكذلك في الأشهر الثلاثة التالية. إذ ليس هناك سوى الصقيع، والثلج المتكدّس، وإريك القديم(*).

إلى أن تُضاءَ هذه الجدّيّة، على نحوٍ غريب حقاً، بأمل جديدٍ؛ يتجلّى عالياً مع الشمس في السماء السوداء. في البدء مثل عين مكدومة في بداية كانون الثاني، ثم مثل عين مُدمّاة في نهاية شباط، حتى تضيء أخيراً في السماء كما ينبغي أن تكون فوهة بركان؛ فقد أرسلوا رجلاً على جناح الأمل في ظلمةٍ هائجة، ويأملون الآن أيضاً أن يعود إليهم سالماً وربما بجيوب عامرة بالنقود، وهذا في نهاية المطاف ما يمنح الجزيرة الأمل، أن يعود ربّ أسرتهم بمعدّات صيده الخاصة وحصة صيدٍ كاملة.

ويحصلون أيضاً على رسالة، رسالة منه.

يجلبها لهم توماس من الجزيرة المجاورة، ستانغهولمن، أو شخص من هافستاين، حيث يبقى الناس في بيوتهم في الشتاء ويصطادون في المياه المحلّيّة. تقول الرسالة إنهم سيصلون، كما هي العادة، ذات يوم جميل في عيد الفصح.

لكنّها رسالة قصيرة.

حتى إنها ليست مكتوبة بالطريقة التي يتذكّرون أن الزوج أو الأخ أو الابن أو الأب يخاطبهم بها، بل مكتوبة بلغة منمّقة، لغة توراتية، كما لو أنها كُتبت من قبل شخص آخر لا يعرفونه. حتى إنهم يشعرون أنه قد ابتعد عنهم أكثر، إلى درجة يتمنّون معها لو أنهم لم يحصلوا على هذه الرسالة

(*) إريك القديم، هو أحد الألقاب العديدة لـ«الشرّ» أو «الشيطان» في الفولكلور النرويجي. ويظهر في الرسوم على شكل حيوان بقرنين في الجبهة وحدوة الحصان في قدم، ومخالب في القدم الأخرى، وله أجنحة الخفافيش أو التنّين، وهو يهاجم بحّاراً على متن قارب صيد. (م).

الإنجيلية. غير أن ماريا تعترف بصراحة، أنهم على الأقل يعرفون الآن أنه بخير، حتى اللحظة، وأن الصيد كما هو دوماً، إضافة إلى أنهم عرفوا وقت عودته إلى الشاطئ، وأن العامل الذي يبخّر كبد الحوت هو إسكافيٌّ أيضاً، وقد صنع لهانس زوجاً جديداً من الأحذية مسمارية النعل، كي لا تتجمّد قدماه في حذائه القديم، وهذا أمر جيّد حقاً إذا ما فكّرنا في الأمر بتجرّد.

أخيراً يعود إلى البيت بجسده الهزيل، يبدو أكبر ثلاث مرّات من عمره الحقيقي، ونظرته نصف مجنونة بسبب كثرة العمل وقلّة النوم، حتى إنه لا يستطيع أن يحسم أمره بين أن يبدأ العمل في بناء الرصيف، الذي هم في أمسّ الحاجة إليه الآن، أو أن يستلقي في سريره، وينام نومة أبدية.

عجيبةٌ هي تلك الأيام، التي تلي يوم عودته إلى البيت، عودة الأب والزوج والأخ والابن، في نهاية شهر نيسان حيث يُقصي الضوءُ الظلامَ، الذي لا يجد له موطئ قدم في أيامهم سوى في سويعات الفجر القليلة، وتخرج الخراف إلى المروج مع ظهور براعم الحشائش الخضراء، وتعود طيور العيدر إلى الشواطئ. ويمكن للغائب أن يطمئنّ إلى أن كلّ شيء على ما هو عليه، وكما كان دوماً، لأن من كان غائباً هو الأكثر سعادةً بمعرفة أن الزمن لم يسبقه.

في الصباح، يُسمع ضحكٌ في الصالة الشمالية قبل أن ينزل الوالدان إلى المطبخ، الذي تملؤه رائحة القهوة من جديد، فبعد انقطاع دام أربعة أشهر، لا تشرب النساء القهوة وحيداتٍ الآن، أما مارتن فيقتصد. يحكي لهم هانس حكاياتٍ من رحلته الطويلة في الشمال، ونوادرَ يضطرّ إلى شرحها وإطالتها. ولا يتوقّف عن الإشارة إلى كم كبرت إنغريد، كبرت بما يكفي لتكفَّ عن الجلوس في حضنه، لكنّها في حضنه الآن، وستبقى تجلس في حضنه لسنوات أخرى.

إنه موسم البيض والزراعة الربيعية وطيور العيدر في أشهر الصيف الهادئة، وهم يعملون على مدار اليوم، ويصبح بناء الرصيف حقيقةً، ولن يكون رصيفاً بالأعمدة المُقَطرَنة، كما كان قد خطّط، بل رصيفاً من الصخر، هذا لأن لا شيء، في نهاية المطاف، كما ينبغي أن يكون في طفولة إنغريد السعيدة، فالعالم مضطرب، كما لو أنه على فوهة بركان.

- 16 -

يُقال إن أمرين في الحياة ينبغي أن يكسبهما المرء: المال والحرب. وهذا الشتاء لم يكن قاسياً فحسب، بل وبخيلاً أيضاً، فقد كانت غلّة الصيد قليلة. لكن ذات يوم في شهر حزيران، وأثناء وجوده في المتجر الرئيسي، يسمع هانس صوتاً يرطن بلغة غريبة، لغة سويدية. خمسة رجال غرباء متحلّقون حول توميسين، صاحب المتجر، وأحدهم يتكلّم السويدية. لم يتفوّه الآخرون بأي كلمة، وهم سويديون أيضاً.

في غرفة التمليح يسمع هانس أن الوضع في السويد صعبٌ جداً بسبب الحرب، وأن الرجال الخمسة في الخارج هم بنّاؤون ويريدون العمل مقابل الإقامة والطعام فقط، والآن سوف يبدؤون ببناء الأساسات لإسطبل جديد لتوميسين، وبعدئذٍ سيبنون أساسات مخزن للسمك المجفّف.

لقد جاء هانس إلى المتجر لشراء الملح وبراميل الرنجة، لكنه يشتري بدلاً منها الآن براغيَ، ألواحاً وستة أعمدة مقطرنة، إضافةً إلى مئة وستين متراً من الألواح الطويلة، بسماكة بوصتين وعرض ستّ بوصات، بمبلغ لا يمتلك سوى نصفه. إضافةً إلى كلفة التوصيل، التي لا يملكها أيضاً، لكنه لا يبالي بذلك.

عندما يعود إلى الجزيرة، يتحدّث إلى ماريا على انفراد، وفي اليوم التالي يبدأ بفتح حفر الأعمدة على الشاطئ دون أن يستشير مارتن في الأمر. لا يحفر للأعمدة على الجانب البعيد من لوفوتن هامر، بل على الجانب الداخلي من الخليج. وهنا سيبدأ ببناء سقيفة قارب كبيرة جداً، ستقوم على أعمدة، بطريقة يمكن فيها الدخول إلى السقيفة من اليابسة على ما يشبه جسراً مستوياً منحدراً قليلاً، وسيكون لها بابٌ كبير مقابل الحائط الغربي، ومنصّة بارزة ينحدر منها درجٌ نحو الشاطئ وبذلك يمكن للقوارب الصغيرة أن ترسو هناك أثناء المَدّ. لكن هذا ليس سوى نصف الحلم، بالنسبة للعجوز مارتن، كما لو أن ابنه لا يملك القدرة، أو ربما المال الكافي، للذهاب بالحلم إلى نهايته، كما جرت العادة.

إنه شهر حزيران. مطرٌ مدرار ليلَ نهار. لقد كان شهر أيار جافّاً تماماً، لكن الآن يمتلئ خزّان مياه الأمطار ثانية، والبُرَكُ أيضاً: البركة الصخرية التي تشرب منها الحيوانات. وحفرة المستنقع، التي كانوا يستخرجون التورف(*) منها في السنوات الماضية، امتلأت أيضاً حتى حوافها وأصبح الماء بنّي اللون، مثل بحيرة داخلية، وعليهم الآن أن يحرصوا على عدم وقوع الحيوانات فيها.

ولن يستطيعوا أن يجفّفوا تبناً هذه السنة.

(*) التورف هو الخث. يتكوّن الخث من ترك المواد العضوية مثل الطحالب والأعشاب والأوراق في حفرة مشبعة بالماء، فلا تتمكّن الكائنات الحية الدقيقة من تكسير المادة بسبب نقص الأوكسجين. وعندما يجفّ الماء قليلاً ويتحوّل إلى ما يشبه الطين يستخدمه الناس لتغطية الجدران من الخارج، أو يقطعونه ويجففونه لاستخدامه وقوداً في فصل الشتاء، خصوصاً على طول الساحل في شمال النرويج حيث كان من الصعب في كثير من الأحيان الحصول على الحطب بسبب قلّة الغابات. (م).

لكن في منتصف شهر تموز تهبّ رياحٌ شرقية مستقرّة، ينجلي الطقس ويصبح جافّاً، ينخفض مستوى الماء في البحيرات الداخلية بنّية اللون، وتتشكّل طبقة طينية سوداء متشقّقة، ينجحون في حفظ نصف كمية التبن في المنزل، قبل أن يهطل المطر من جديد، دون انقطاع. ويفقدون بقيّة التبن.

وفي بداية شهر أيلول ينتهي بناء سقيفة القارب الجديدة. لكنّهم لا يضعون فيها كل العدّة وأدوات صيد السمك التي يتركونها في العراء، فهناك خمسة أسِرّةٍ قابلة للطيّ، وعشبٌ أخضر وبُسط، وطاولة أمام النافذة، وكرسيّ ومقعد.

بعد ثلاثة أيام يصل قارب النقل التابع للمتجر الرئيسي وعلى متنه العمّال السويديون الخمسة، الذين جاؤوا من بلدهم سيراً على الأقدام، عبر الغابات وفوق الجبال. استغرقت رحلتهم ثلاثة أسابيع، وكلٌّ منهم يحمل على ظهره جعبة مليئة بالمؤن وعدّة العمل. لقد عملوا خلال الصيف لدى صاحب المتجر الرئيسي، والآن يصلون إلى الجزيرة، وهم عمّال جيّدون.

يفجّرون ما يحتاجونه من الصخور ويبنون الرصيف بالطريقة التي بنى فيها هانس خزّان مياه الأمطار. وبعد أسبوع من العمل أصبح الرصيف فوق مستوى سطح البحر، وصار باستطاعتهم أن يعملوا دون أن تبتلّ ثيابهم بالماء، ثم يأتي الخريف لطيفاً وصافياً بألوان ثابتة ورياح جافّة مثل أنفاس رطبة فوق رؤوس البشر والحيوانات. وفي هذا الصيف الهندي(*)

(*) هو نوبة من الطقس المشمس تحدث في شهر تشرين الأول وأوائل شهر تشرين الثاني، في أول تدنٍّ كبير لدرجات الحرارة إلى حدّ تَشكّل طبقة طفيفة من الجليد حتى في فصل الخريف، ويأتي بعدها مباشرةً جوٌّ لطيف دافئ ومشمس في غالب الأحيان يدوم ثلاثة أيام على الأقل، وفي الشرق يقولون: «بين تشرين الأول وتشرين الثاني: صيفٌ ثانٍ». (م).

ينجحون في إنقاذ بعض التبن أيضاً، فتمضي العائلة كلّها أسبوعاً كاملاً في جزّ الحشيش من الجزر الصغيرة، ينقلونه إلى البيت مساءً ويجفّفونه على المنحدرات جنوب الحديقة، ثم ينقلونه مباشرةً إلى الحظيرة، على الرغم من أنه لا يزال أخضر، لكنّه جافّ.

يرفع العمّال الرصيف متراً آخر فوق سطح الماء.

لكنّهم يأكلون كمياتٍ هائلة من الطعام: خبزاً ومربّى الراوند، اللذين تخبزهما وتطبخهما ماريا وباربرو. وفي أيام الآحاد يحصلون على خبز وزبد وقهوة أيضاً. وكلّ يوم تطهو لهم ماريا السمك وتقدّم لهم البطاطس حتى آخر حبّة في مخزن البطاطس، الذي لأول مرة منذ قدوم ماريا إلى الجزيرة تسنح لها فرصة تنظيفه. فتكشط الأرضية وتغسلها وتكتشف ثلاثة جحور فئران، يسدّها هانس بالإسمنت. يضعون طبقة تورف جديدة على الجدار الخارجي المتضرّر من الصقيع، ويضعون صناديق جديدة للبطاطس في أرضية المخزن. وبعدئذٍ يبدؤون بجني البطاطس، بينما يبني العمّال السويديون الرصيف ويرفعونه متراً آخر. ويغدو السؤال الآن ما إذا ستكون أرضية الرصيف من الخشب أم من الحجر؟

لقد استهلك هانس كلّ ما لديه من مواد بناء في السقيفة التي ينام فيها الضيوف، بل وأكثر قليلاً، ولا بدّ أن تكون أرضية الرصيف من الحجر أيضاً.

إنه تحفةٌ معمارية. وتطفر الدموع من عيني هانس يوم يمشي عليه أول مرّة؛ أرضية فسيفساء صلبة مستوية من الغرانيت الأحمر بكلّ أطيافه في بارأوي، في حين أن أرضية الكنيسة من الأصداف والرمل الأبيض.

على الجانب الخارجي من الرصيف غُرِستْ ثمانية أعمدة في البحر، ثلاثة منها ترتفع قرابة متر فوق الرصيف، بطريقة يمكن فيها للقوارب أن

تربط مراسيها إلى هذه الأعمدة. حتى إنهم يمكن أن يستضيفوا باخرةً كبيرة. يمكن تثبيتها بحبلين، أمامي وخلفي. غير أن سقيفة قارب لوفوتن، مثار فخرهم، تبدو الآن صغيرة جداً مثل مرحاض خارجي، بُنِيَ في المكان الخطأ، ولونه رمادي مُرَقّش. لكن، لدى هانس خططٌ جديدة للمكان، في العام المقبل.

في نهاية المطاف، لم يكن وجود الغرباء على الجزيرة أمراً مألوفاً. فقد تضاعف عدد سكّان بارأوي. ويمضون الأسابيع الأولى وهم يحاولون إبعاد باربرو عن موقع العمل.

وهي تصرخ: «أريد أن أُضاجَع!»، فتسرع ماريا بوضع يديها على أذني إنغريد كي لا تسمع ما يقال. ذلك أن أخت زوجها «ليست مجرّد فَرجٍ».

وتصرخ باربرو بعبارات أخرى ينبغي ألّا تسمعها إنغريد. لكن إنغريد لا تحب أيضاً أن تُمنع من سماع ما يقال، وفي النهاية تفهم ما يدور حولها، حتى إن باربرو تخبرها بذلك، وتخبرها في الوقت نفسه أن أحد العمّال السويديين يُدعى لارس كليميت. لارس في العشرين من العمر، وهو الوحيد من بين العمّال الذي يتحدّث لغة تفهمها باربرو. حتى إنغريد تحب لارس كليميت، فهو مرِح، ويتحدّث إليها ويلعب معها عندما لا يكون في العمل، وهو يجيد الغناء. وهذا ما تجيده باربرو أيضاً.

تحمل باربرو كرسيّها إلى هامر وتجلس مثل ملكة يقظة تشرف على البنّائين، أجساد نحيلة، عارية تتلألأ بحبات العرق والملح، وتزداد سمرةً في هذا الصيف الطويل المتأخر، وتتحرّك الأوتار والعضلات تحت جلد رجل في أوج قوّته. تخبز باربرو وتُحضِرُ لهم الخبز الطازج والمزيد من مربّى الراوند، الذي لديهم مخزون جيّد منه. ولارس كليميت هو

العامل الوحيد الذي يستحمّ في البحر، ولهذا تفوح منه دوماً رائحة البحر والأعشاب البحرية مثل حصان وأكثر، ويقول لها دوماً إنه لم يتذوّق في حياته أشهى من هذا الطعام، ثم يقرصها من كفلها عندما لا يراه أحد، لكن كم هي كبيرة هذه الجزيرة؟

طول الجزيرة أقل من كيلومتر من الشمال إلى الجنوب، ونصف كيلومتر من الشرق إلى الغرب، وفيها الكثير من الأعشاب القصيرة والحفر والوديان الصغيرة، وخلجان عميقة تشقّ سواحلها، والعديد من الرؤوس الحجرية وثلاثة شواطئ بيضاء.

في الأيام العادية يمكنهم أن يقفوا في الفناء ويراقبوا الخراف، لكن من الصعب رؤيتها عندما تكون مستلقية بين الأعشاب الطويلة، وهذا يصحّ على البشر أيضاً، حتى الجزيرة لها أسرارها.

السبب الرئيس في أنّ ماريا وهانس وحتى مارتن يفقدون اهتمامهم تدريجياً في ما تسعى باربرو إليه هو أن عليهم أن يجزّوا التبن ويجفّفوه.

أخيراً يغادر العمّال السويديّون -يصافحون سكّان الجزيرة واحداً واحداً، بمن فيهم إنغريد- ويمنح هانس كلّ واحدٍ منهم مبلغاً صغيراً من المال علاوة على إقامتهم والطعام الذي قُدّم لهم، فقد كلّفوه كلّ ما لديه وأكثر، لكنّه يدرك قيمة ما حصل عليه، رصيف من الصخر يدوم إلى الأبد، لذلك لا يستطيع أن يدع العمّال يغادرون دون أن يعطيهم أكثر مما طلبوه. كان ينبغي أن ينالوا ما يستحقّونه، لكنه لا يملك ذلك، وهكذا تجري تسوية ترضي الطرفين.

يغادرون في طقسٍ جديد ماطر، يبدأ مع بداية شهر تشرين الأول ويستمرّ، ومع أن سكّان الجزيرة يتنفّسون الصعداء لأنهم عادوا إلى عددهم المألوف، لكنهم يشعرون بالحزن. لوجود الضيف حسناته أيضاً. وعندما

يغادر الضيف، يبقون وحدهم ويشعرون أن ذلك غير كافٍ. فغياب الضيف يترك فراغاً. يقول لسكّان الجزيرة إنهم يفتقدون شيئاً، شيئاً ربما شعروا به قبل زيارته، وسيشعرون به دوماً.

- 17 -

لدى هانس مِنظار. لا شيء مميّزاً في هذا المنظار سوى أنه لدى هانس، في مكان ما، ولا يستخدمه قطّ. لا يتذكّر هانس من أين جاء هذا المِنظار. لكنهم ينقلون، الآن، العِدّة والأدوات من سقيفة القارب المكتظّة إلى السقيفة الجديدة التي بناها العمّال السويديون. يعثر هانس على لفافة قماش مُزيّتة، فيقف ويتأملها متسائلاً. إنها بين ممتلكاته منذ زمن طويل على ما يذكر. يفتح اللفافة ويكتشف ببساطة أنها تغلّف منظاراً، أجل...

إنه منظار يُكبّر المرئيات أربعين مرّة، يكسوه ورنيش أسود - أو ما يشبه الجلد من الطراز الألماني، فيه أربع حلقات نحاسية وحلقة أخرى للعين، وهذه من النحاس أيضاً، إضافةً إلى برغي من أجل تثبيت الطول البؤري.

يُريه لأبيه.

يقول مارتن الشيء نفسه: «أجل، إنه منظار».

وعندما يسأله من أين جاء هذا المنظار، لا يحصل على إجابة واضحة أكثر من إجابته عندما يتحدّث عن الأطلال في كارفيكا، لا بدّ أنه قد ورثه عن والده، الذي كان يعمل مُرشِد سفنٍ ورجل منارةٍ احتياطيّاً عندما لا يعمل في الصيد، ويبدو أن المنظار كان موجوداً في سفينة شراعية صغيرة.

يأخذ هانس المنظار ويخرج إلى ضوء النهار الخريفي النقي، يتفحّص المنظر بحرص وهو يتساءل لماذا لم يلعب به في طفولته. ويتذكّر السبب. لم يسمح له والده بذلك. عندما طلب منه الإذن، اكتفى مارتن بالابتسام وقول إن والده لم يسمح له أبداً أن يلعب به.

يضع هانس المنظار على لوح خشب مضغوط كانوا قد وضعوه فوق ثلاثة أحجار، واستعملوه طاولة عمل أمام سقيفة القارب، يقرفص وينظر في فوهة المنظار. يستطيع أن يرى الجبال هناك على اليابسة، ويرى تفاصيلها، كأنه يقف أمامها مباشرة، وهي تتلألأ تحت طبقة الثلج الأولى. لكنه لا يستطيع أن يرى الساحل، حيث يعرف أن هناك العديد من المنازل. لقد اختفت المنازل وراء البحر، بسبب كرويّة الأرض.

ويرى مارتن الجبال أيضاً كأنه يقف أمامها مباشرة.

يبتسمان.

يُعدّل هانس الطول البؤري للمنظار، فيرى القرية، والكنيسة، والمتجر الرئيسي، وبيت القسّ والبيوت الأخرى، بيتاً بيتاً، وهو يغمغم: هنا يعيش كونراد، وهناك يعيش أولاف... حتى إنه يستطيع أن يرى من لديه ستائر في نوافذه، ومن قد دهن بيته مؤخراً. لكنه ينهض فجأةً وقد اعتراه شعور بأنه اقتحم مُلكياتٍ وخصوصيات لا شأن له بها.

يناول والده المنظار. يتخذ مارتن الوضعية المناسبة، لكنه سرعان ما يغيّر اتجاه المنظار أيضاً. يشعر هانس أنهما يفكّران بالطريقة ذاتها، بأنهما ربما لا يحتاجان إلى هذا المنظار. لديهم منظار أصغر منه في لوفوتن، لكنهم لا يستخدمونه على الإطلاق، لأن كل ما يرونه بواسطة المنظار يختفي فوراً، حالما يزيحون المنظار عن أعينهم.

لكن هذا المنظار ثقيلٌ وصلب، صناعة يدوية عالية الجودة، ولا بدّ أنه

ثمينٌ جداً. بعفوية يفكّر هانس بأشياء أخرى توازيه قيمة، لكنه لا يستطيع مقارنته إلا بآلة السدس(*) ربما، أو بالبوصلة على سفينة إرلينغ، وهذه أيضاً مُلكية موروثة.

أيّ شيء آخر؟

هل يملك أيّ شيء قيّمٍ؟

يأخذ المنظار ويصعد إلى المنزل، ثم يطلب من ماريا أن ترافقه إلى الصالة الجنوبية. وهناك، يضع المنظار على إطار النافذة، ويطلب من ماريا أن تنظر إلى بوأوي، مرابع طفولتها. تركع ماريا على السرير وتنظر باتجاه جزيرة طفولتها. يسألها هانس ماذا ترى. تقول إنها ليست متأكّدة مما تراه، تغمض عينها ثانيةً ثم تركّز النظر. يستلقي هانس على السرير وينظر إليها. تقول إنها ربما ترى أناساً هناك. يخمّن من تعابير وجهها أنها مرتبكة، كما لو أنها تتذوّق شيئاً ولا تستطيع أن تقرّر ما إذا كانت تستسيغه أم لا.

دعيني أرى!

يرى البيوت، ويعدّها، ثمانية عشر، وبضمن ذلك البيوت الملحقة وسقائف القوارب. هناك قارب يرسو أمام الرصيف، يغطس ببطء، حتى لا يُرى منه سوى قمة الصاري، ثم يرتفع ثانية وببطءٍ. الأمواج الطويلة هي التي تجعله يختفي، وهي التي تجعله يظهر ثانية. لكن هانس لا يرى بشراً هناك، بل يعتقد أنه يرى شيئاً مثل خروف، ربما حصاناً، حقلاً محروثاً حراثة الخريف.

تأخذ ماريا المنظار منه ثانية.

يستلقي على السرير ويعقد يديه تحت رأسه ويقول لها إنه ليس لديهما

(*) جهاز بقوس متدرج بزاوية 60 درجة وآلية رؤية، تستخدم لقياس المسافات الزاويّة بين الأشياء وخاصة قياس الارتفاعات أثناء الملاحة. (م).

نقود. تزيح المنظار عن عينها، وتحدّق إليه. يعيد ما قاله، لكن دون أن ينظر إليها الآن. تقول إنها تعرف ذلك جيّداً، وتقولها بنبرة تشي بأنها ليست سعيدة بمعرفتها هذه. ويفقد كلاهما الاهتمام بالمنظار.

تسأله لماذا يذكّرها بهذا الأمر الآن؟ فيقول إنه لا يعرف.

تسأله: «هل الوضع سيّئ جدّاً؟». لا يجيبها.

تسأله كم هو الوضع سيّئ؟ يندم لأنه قال لها ذلك.

شيء ما يضطرب في عينيها. تضربه بالمنظار على معدته.

يسألها ما إن كانت تفكّر في قتله. تقول له نعم، وتلوّح بالمنظار ثانية. يمسك بيديها، ويشعر برغبة في أن يمزّق ثيابها عن جسمها وينتزع منها ابتسامة، في منتصف النهار، في وقت العمل، في ضوء النهار. لكنّه بدلاً من ذلك ينهض ويتجاهل ما تصرخ به عليه، يعرف جيّداً ما الذي تصرخ به، ينزل الدرج، ثم يخرج إلى الفناء حيث إنغريد ووالده يقفان هناك وينظران إليه.

«فيمَ تحملقان؟».

يبدو مارتن كمن ضُبِطَ متلبّساً في جرمٍ، يستدير ويمشي نازلاً باتجاه سقيفة القارب وذراعاه متدلّيتان عن جانبيه. يبقى هانس واقفاً في مكانه، المنظار في يده، وهو ينظر إثر مارتن، ويتساءل ما إن كان ينبغي أن يلحق به.

تسأله إنغريد ما الذي يحمله في يده. فيقول مارتن إنه منظار. فتسأله إنغريد ماذا يعني منظار.

انظري! يقول هانس وهو يمشي إلى جسر الحظيرة، يوجّه المنظار صوب أكمة عشب صغيرة ويُريها. تنظر عبر المنظار وتتراجع إلى الوراء. يا لضحكتها! ألا تُسعده دوماً هذه الضحكة؟! تنظر في المنظار ثانية، إلى البيوت وإلى ستانغهولمن، وابتسامتها تكبر، حتى يقول لها: «كفى!».

ويأخذ المنظار منها، وينزل باتجاه سقيفة القارب. يقف قبالة والده ويتبادلان نظرة كما لو أن بينهما مواجهة مؤجّلة.

لكنّها لا تدوم طويلاً.

يحمل مارتن صندوق سمك مليئاً بلفائف خيوط صيد سمك الحدوق وصينية طعوم، ويمشي متثاقلاً نحو الرصيف الجديد. يلفّ هانس المنظار بلفافة القماش، ثم يلحق به ويضع المنظار على أعلى رفٍّ في السقيفة، حيث سيبقى هناك حتى يجده شخصٌ يقول: أجل، هذا هو المنظار، ويستغرق هانس في التفكير في أن هناك سبباً وجيهاً في أن العين لا ترى أبعد مما تراه، وأن هذا قد يكون في صالح العين والجسم الذي تنظر إليه؛ على أي حال، لقد نسي هانس ما لا يحب التفكير فيه، المال، هذه الرابطة الأكثر إحباطاً في علاقتهم مع البرّ الرئيسي.

- 18 -

يتناهى إلى سمع إنغريد أصواتٌ من المطبخ تشي بأن أمراً جللاً قد حصل. لكن، هناك صوتٌ آخر لا تسمعه. إنه صوت باربرو.

رغم أن صوت أمها كان الأعلى، فقد صمتت فجأة عندما نزلت إنغريد الدرج. والطقس في الخارج شتويٌّ مظلمٌ، لكن دون رياح. وفي غضون ساعات ستنجلي السماء بالضوء، وفي وقتٍ لاحق من النهار قد يفوزون برؤية شمس حمراء في الجنوب. لكن باربرو ليست هنا. لقد اختفت هي والقارب رباعي المجاديف، ولا ضرورة للبحث عنها. فآثار قدميها واضحة في طبقة الثلج الجديدة، وتقود إلى سقيفة القارب، حيث بابا السقيفة مفتوحان على آخرهما. وهي لم تقُد قارباً وحدها من قبل؛ ولم تأخذ الشراع، لقد اكتفت بالتجديف، ولا وجود للقارب في البحر الآن.

كان لديهم قواربُ عديدة، قوارب تجديف كبيرة وصغيرة، وقارب تجديف بيندال(*). لكن أيّاً منها لم يُزحزَح من مكانه.

«أين باربرو؟!»، سألت إنغريد.

(*) نسبة إلى مقاطعة بيندال، الواقعة جنوب شمال نورلاند -الجزء الشمالي من النرويج- وتشتهر بيندال بصناعة هذا النوع من القوارب، والذي يعتبر من بين أهمّ مصادر الدخل هناك. (م).

«لقد رحلت»، أجابت أمها.

ومضى النهار دون أن يُقال شيءٌ آخر. حتى يدا الجَدّ لم تكونا في مكانهما المعهود. وبقي وجهه واجماً. وعندما حان وقت النوم، سُمِحَ لإنغريد أن تنام في سرير والدها، كما تفعل عندما يكون في لوفوتن. قالت ماريا إنهم ينبغي أن يقدّموا للخراف المزيد من أغصان البتولا، في الأيام القادمة، لأنها تحتاج إلى وقتٍ أطول في أكلها، ذلك أن كمية التبن تتناقص، وهي تفكّر في الأبقار والحصان. كما قالت إنها تأمل في أن يذوب الصقيع قريباً، عندئذٍ بوسعهم ترك الحيوانات تنزل باتجاه الشاطئ، فقد يعتدل الطقس ويهطل المطر وتستطيع أن ترعى بعض الحشائش القديمة.

سألت إنغريد ما إن كان بوسعها أن تحيك الصوف وهي جالسة في السرير.

سألتها ماريا ما إن كان البرد شديداً عليها.

ليس إن وضعت اللحاف على كتفيها.

استلقت أمها بجانبها على السرير وهي تشرح لها وتعلّمها كيف تحيك حتى غطّت في النوم. عندئذٍ وضعت إنغريد عدّة الحياكة جانباً ونامت. وعندما استيقظت وجدت أن أمها لا تزال نائمة. وكذلك القطّة. ومن الضوء الشاحب وراء زجاج النافذة، عرفت أنهما قد استغرقتا في النوم طويلاً. وكانت هذه تجربة جديدة بالنسبة لها.

نهضت إنغريد ونزلت إلى المطبخ البارد، وضعت نشارة الخشب وبعض قطع الحطب الصغيرة ثم التورف، كما علّمتها باربرو، التي كانت مسؤولة عن إيقاد المدفأة. والآن أخذت إنغريد مكانها. لاحظت أن سطلَ التورف فارغ، فحملته وخرجت إلى السقيفة الموجودة في الحائط الشمالي من الحظيرة. كان البرد قارساً. ركلت بعض الثلج، وفتحت الباب على

مفصّلاته المصرصرة، ثم ملأت السطل؛ وعندما أدركت أنه ثقيل أفرغت نصف كمية التورف، أغلقت الباب وراءها وعادت إلى البيت. كانت يداها متيبّستين من البرد. فوضعتهما فوق المدفأة حتى احمرّتا، وبدأت تشعر بالوخز فيهما. عندئذٍ ذهبت إلى حجرة جدّها الذي كان لا يزال نائماً بعمقٍ. هزّته، فنهض هلعاً كمن استيقظ من حلم مزعجٍ.

«ماذا بحقّ الجحيم؟!» -قال جدّها عندما رأى الضوء الرمادي وراء زجاج النافذة المكسو بالجليد- «في هذا الوقت ننام».

ثم استلقى وتابع نومه.

وفي الصباح التالي، استغرق البالغون في النوم أيضاً. كما لو أنهم متعبون، أو يتعافون بعد فترة إجهاد طويلة. أو كما لو أن باربرو كانت ساعة البيت، ضابط الوقت، وقد توقّفت الآن عن العمل. لكن إنغريد استمرّت في الاستيقاظ، وإشعال المدفأة، وجلبِ التورف. في اليوم الثالث، سمعت أمها وجدّها يتجادلان في الحظيرة، التي نادراً ما يدخلها الجدّ. كان القارب موضوع حديثهما، وكانا غاضبين من باربرو لأنها أخذت أفضل قاربٍ لديهم، في حين أن هناك ثلاثة قوارب أخرى.

شيءٌ آخر دفع إنغريد للوقوف والتنصّت إليهما، فقد بدا لها أنهما لم يُفاجأا من غياب باربرو، كما لو أن الأحداث الأكثر غرابة يمكن توقّعها وبالتالي قبولها. عندئذٍ فهمت أن باربرو ميّتة.

في ذلك المساء أيضاً سُمحَ لها بالحياكة في سرير والدها. كانت خيوط الصوف لزجة وتفوح منها رائحة اللانولين(*)، الأحمر الصدئ والأصفر والذي جعل أصابعها قوية وناعمة، وكانت تثنيها إلى الوراء كي تطقطق، وكانت تفعل ذلك في محاولة لمغالبة دموعها. طلبت منها ماريا أن تتوقّف

(*) اللانولين: هي رائحة دهن الصوف. (م).

عن الحياكة. ثم قالت لها إن الطقس ينبئها أن الصقيع سيذوب قريباً، وأنها، أي إنغريد، الماهرة في حياكة الصوف، تستطيع أيضاً حياكة الشِّباك، شِباك سمك القدّ، أليس كذلك؟

«قليلاً!»، قالت إنغريد، فقد تعلّمتُ القليل على يدي باربرو، وحاكت شبكة صغيرة وسميكة استعملوها لحمل الحطب، وحقيبةً من الشبك كانت تجمع فيها البيض.

«لكن ذلك ليس ضرورياً»، قالت إنغريد وقد شعرت بالدفء يسري في جسدها كلّه، لأن لديهم وفرة في الشِّباك، ذلك أن باربرو لم تفعل طيلة الشتاء سوى حياكة الشباك، كما أنها ستعود قريباً.

«كلّا، لن تعود!»، قالت أمّها.

«بلى، ستعود!»، قالت إنغريد.

- 19 -

ازدادت قساوة الصقيع، واستمرّ هبوب الرياح الباردة من الشمال الشرقي، فضاعفت من شدّة البرد. انتقلت إنغريد وأمها إلى النوم في الصالة الجنوبية فوق حجرة مارتن، حيث تبقى المدفأة في غرفته متوهّجة على مدار الساعة، وبما أن لديهم فتحة في أرضية الصالة، فقد نعمتا بالدفء ذاته. وعندما تنام أمها، كانت إنغريد تسمع أمارات نوم جدّها أيضاً، كما لو أنهم ينامون في الغرفة ذاتها.

لم يستطع مارتن أن يصطاد في هذا الصقيع. فأكلوا سمك البولاك والرنجة المملّح، والخبز والبطاطس، والمربّى. نفدت أغصان البتولا، لكن مارتن لم يرغب في تمشيط الشاطئ وقطف عشب البحر وتقديمه علفاً للحيوانات، في ذلك البرد القارس، وكان ينبغي أن يفعلوا ذلك من قبل، لقد فات الأوان الآن، وينبغي أخذ الخراف لترعى الأعشاب على شاطئ البحر.

قادت ماريا وإنغريد الخراف إلى شاطئ البحر. لكن سرعان ما بدأت تتدلّى من قوائمها كراتٌ من الجليد وتتلاطم مع كلّ حركة، مسبّبةً لها الهلع الذي جعلها تركل وتتدحرج على الأرض حتى تشكّلت على صوفها، أيضاً،

طبقةٌ من الجليد، فازداد ثقلها أضعافاً، وبدأت تترنّح في مشيتها. لاحظت إنغريد أن الخوف قد تملّك أمها. فعادتا بالخراف إلى البيت، واضطرّتا إلى جرّ العديد منها إلى الحظيرة، ولم يذُبِ الصقيع عن صوفها إلا بعد مرور أكثر من يوم على بقائها في الحظيرة. في ذلك الوقت قدّمتا لها التبن الذي كان حصّة الأبقار من العلف، مما اضطرّ إنغريد وماريا إلى جزّ أعشاب البحر، ونقلها إلى البيت على زلّاجة، ثم سلقها لتحويلها إلى علف. لم يشاركهما مارتن في أيٍّ من هذه الأعمال؛ كان مستلقياً في سريره يمارس حزنه على غياب ابنته. واستمرّت إنغريد وماريا في تقديم العلف للخراف، كما أطعمتها كلّ ما بقي لديهم من كبد سمك القدّ، وسمك البولاك المطهو جيداً، إضافة إلى كل بقايا الطعام، حتى إنهما بدأتا ترتجفان وتدوخان من كثرة الإجهاد.

عندئذٍ فقط، نهض مارتن من سريره، لبس كلّ ما استطاع من ثياب، اختار أصغر قارب لديهم في السقيفة وأنزله إلى البحر، ثم نشر شباكاً طويلة قبالة الرصيف الجديد. غير أن الشباك كانت تتحوّل إلى ألواح من الجليد عندما يسحبها من الماء. فاضطرّ إلى تركها في مكانها، لياليَ عديدةً، وكان يفرغها من كلّ ما علق بها من أسماك، بقدر ما يستطيع، لكن بعد أسبوعين امتلأت الشباك بكلّ أنواع الطحالب والأعشاب البحرية، وما عادت تعلق بها أسماك، ولم يستطع سحبها، فتركها مكانها، وكانت تلك أحدث ما حاكته باربرو من شباك.

أخيراً، كان لديهم سمكٌ طازج يأكلونه مع رقائق الخبز المقرمش، وكبد السمك، والبطاطس أيضاً. لكنهم كانوا مضطرّين لإبقاء المخزن مغلقاً كي لا يدخله الصقيع أيضاً. وجرفوا الثلج عن سطحه، وبدؤوا بتخزين كميات بطاطس في الصالون، في صناديق السمك، تكفيهم لمدة أسبوع كل مرّة.

وخبزوا في فرن المطبخ كعكة البطاطس، التي يصنعونها عادة قبل عيد الميلاد. وملأت البيت رائحة عيد الميلاد. ثم انكسر الصقيع.

كان الشتاء الماضي قارس البرودة لدرجة أن الصقيع طوّق الجزيرة. وجاء الطقس أكثر برودةً هذا العام، بسبب الرياح.

- 20 -

إنغريد هي أول من رأت القارب. كانت حينئذٍ جاثية على ركبتيها في الثلج اللزج على الرأس البحري بجوار سقيفة القارب، وما عادت تشعر بالبرد في أصابعها على الرغم من أنها كانت تصنع كراتٍ من الثلج وتقذف بها طيور النورس التي تعتقدها طعاماً، فتنقضّ عليها وتتصارع في ما بينها. وكانت تغطّي رأسها بشالٍ واحد، بينما اعتادت أن تلبس ثلاثةً في أوقات الصقيع، وشالاً آخر لحماية وجهها. في هذه اللحظة، خلعت شالها ولوّحت به، وشعرت لأول مرة هذه السنة بالريح في شعرها، لقد انتهى فصل الشتاء.

لم يكن قارباً واحداً، بل قاربين، والأول يقطر الثاني وراءه. وفي القارب الأول يجلس أربعة مُجذّفين بثيابٍ سوداء وثلاثة أشخاص آخرين، بينما كان القارب الثاني فارغاً، وهو قارب بارأوي الذي اختفى مع باربرو.

عرفت إنغريد القارب من الألوان على جانبيه، فركضت صاعدةً إلى البيت لتخبر أمها بالأمر. لكن ماريا رأت القاربين أيضاً، وكانت في طريقها إلى الرصيف؛ ثم جاء مارتن يمشي متثاقلاً، من سقيفة القارب الجديدة؛ ورأى الثلاثة، من مكانهم على الرصيف الجديد، واقية الحديد الأمامية في القارب الأول تلامس الشاطئ. وكان في القارب الأول زوجة

القسّ، وامرأة أخرى لم تميّزها ماريا في البداية. وفي مؤخرة القارب وراء المجدّفين جلست باربرو بثياب غير مألوفة لدى ماريا وإنغريد. نهضت باربرو وخَطَتْ فوق المجاديف، وضعت يداً على كتف زوجة القسّ وصعدت إلى الرصيف، ثم انطلقت مباشرة إلى البيت دون أن تنبس بكلمة واحدة. وقفوا جميعاً يراقبونها حتى وصلت إلى البيت ودخلت وأغلقت الباب وراءها. وحدها إنغريد ركضت إليها.

قالت كارين لويس ماليرغيت إن باربرو لم ترضَ أن تبقى عندها أكثر من ذلك، وقد حاولت بشتى السبل أن تقنعها بالبقاء، لكنها لم تنجح، فكانت باربرو تبكي وتصرّ على العودة إلى باراوي، ولم يستطيعوا جلبها قبل الآن بسبب الرياح والصقيع.

وضعت زوجة القسّ كلتا يديها على فمها، عندما عرفت أن باربرو لم تغادر الجزيرة بالاتفاق معهم، بل هربت، وقد ظنّ أهلها أنهم فقدوها. ثم في اللحظة ذاتها، تلفّتت كارين لويس حولها، كما فعل زوجها منذ دَهرٍ، وحدّقت إلى البيوت على البرّ من حيث جاءت، وكأنها لم ترَها من قبل قطّ، وقالت: «أنتم تعيشون في مكانٍ رائع!».

كانت تلك جملة لا معنى لها في نظر مارتن الذي لم يجد سوى كلمة «أوخ!» للردّ عليها. وقال أيضاً «كلّا!» فظّة للمجدّفَين اللذين سألاه ما إن كان بحاجة إلى مساعدة كي يُدخل القارب إلى السقيفة. ثم اتجه إلى السقيفة وعاد بمزلاقين خشبيين، وطلب منهم أن يدفعوا القارب فوقهما، ثم سحبه هو إلى السقيفة. وكانت تلك فرصة مناسبة سنحت لماريا أن تتعرّف إلى المرأة الثانية، واسمها إليسا هافستاين، فقد كانتا زميلتين في المدرسة ذاتها.

تصافحتا وتبادلتا الابتسامات. لقد كان لقاءً قاسياً. ترتدي إليسا ثياباً

لم تُخِطها بيديها، وتربط حول رقبتها وشاحاً أبيض جعلها تبدو مثل راهبة، وهي قابلة قانونية، وأخبرتها أن باربرو حامل، وسوف تضع مولودها في الصيف، وهذا ما دفع كارين لويس إلى جلب إليسا معها إلى الجزيرة، كي تتعرّف إلى المكان.

لم تستطع ماريا فهم الأمر، فمنذ الأزل وهنّ يلدن أطفالاً في هذه الجزيرة وكلّ الجزر الأخرى دون مساعدة قابلة. لكن كارين لويس تتمتّع بسلطة، وقد قرّرت أن باربرو تحتاج إلى مساعدة أكثر من غيرها، ومن خبرتها في هذا المجال تعرف أن باربرو مختلفة عن الأخريات. وافقتها إليسا الرأي تماماً، واكتفت بإيماءة من رأسها بطريقة توحي أنها ليست مضطرّة إلى إضافة أي كلمة إلى ما قالته كارين لويس.

بعد أن وضعت زوجة القسّ الخطوط العريضة للولادة، تصافحتا ثانيةً، وساعد المجدّفون السيّدتين في ركوب القارب ثانية وبدؤوا التجديف.

بقيت ماريا واقفةً في مكانها وهي تتساءل لماذا لم تقدّم لهما قهوةً أو طعاماً، فلم يحدث قطّ أن جاء زائرٌ إلى الجزيرة دون أن يحظى بضيافة لائقة.

سارت على الشاطئ وهي تفكّر كيف ستخبر الآخرين بأمر باربرو، ابنتها وحماها. ثم قرّرت أن تبدأ مع إنغريد، فقد كبرت كفايةً. أما زوجها فسوف تخبره حالما يعود من لوفوتن. لكنها تردّدت في العودة إلى المنزل.

خلعت شالها وسارت على الشاطئ باتجاه الرصيف الجديد، ثم تابعت باتجاه الجنوب وسمعت خرير الجداول التي بدأت تنقل الشتاء من الجزيرة إلى البحر. جلست على صخرة، عَرّت قدميها ووضعتهما في ماء البحر. وبقيت على هذه الحالة حتى ابيضّتا وبدأ الخدر يسري فيهما، فأخرجتهما من الماء وجفّفتهما كما جفّفت دموعها بالشال، ثم لبست

جوربيها والخفّين الصوفيين، وعادت إلى المنزل ودخلت إلى المطبخ، حيث كانت إنغريد تقف بجوار جدّها وتلعب بيديه، وهو جالس في كرسيّه الهزّاز ويحدّق إلى باربرو كما لو أنه ينتظر الإثبات النهائي على أنها لا تزال حيّة. لم تنبس باربرو بأي كلمة. بدا كما لو أنها لم تعد إلى البيت ولن تعود أبداً.

اقتربت ماريا من باربرو، ووضعت يداً على كتفها، فصعدت إلى أنفها رائحة الورد، والليلك، والقرّاص التي تفوح منها، كما لاحظت أنها قد قصّت شعرها وسرّحته مثل النساء على البرّ أو في الجزر الكبيرة. واحتارت في أمرها هل تصفعها أم لا، لكنها تركت يدها فوق كتفها. أمسكت باربرو بيد ماريا، ضمّتها بين يديها بقوّة، ثم نظرت إليها كما لو أنها تنظر في بئر من اليأس، ثم أفلتتها، ونهضت إلى غرفة الطعام وعادت بعلبة الخبز، وقالت إن أكثر ما افتقدته هناك، في بيت القسّ اللعين، كان الطعام اللذيذ.

- 21 -

منذ أن بدأ الصقيع يتراجع والرياح تهبّ من الجنوب الغربي، حاملةً معها المطر الغزير، عادت إنغريد وأمها إلى النوم في الصالة الشمالية. هناك كان بوسعهما أن تتكلّما بحرية دون أن تضطرّا للنظر إلى الفتحة في أرضية الصالة التي يسمع مارتن من خلالها كلّ ما تقولانه وهو مستلقٍ في الأسفل.

لا جديد في ما قيل لإنغريد، فقد سبق أن أخبرتها باربرو بالأمر في اليوم الأول من عودتها، وهكذا بوسعهما الاحتفاظ بالسر بعيداً عن الجدّ. وأخبرتها أمها الآن أنها عندما وُلدت كان أبوها خائفاً من أن تسير على خطا باربرو، ففي جينات عائلة هانس يحدث أن تولد باربرو في كل ثاني أو ثالث جيل في العائلة. وقالت إنها لاحظت منذ اللحظة الأولى أن إنغريد هي ما هي عليه الآن، وأن أباها هو الذي لم يكن واثقاً من ذلك، كان خائفاً.

«ممَّ كان خائفاً؟».

تنهّدت ماريا بعمق، وقالت إنها هي فقط كانت واثقة من ذلك.

كانت تلك كلماتٍ ثقيلةً على إنغريد، ولم تقدّم ماريا أيّ توضيحٍ لها، مجرّد عبارات مراوغة أُرتِجَ عليها طويلاً في أعماقها حيث كان ينبغي أن تبقى.

لم تستطع إنغريد أن تقول أيّ شيء.

فقد كانتا في نهاية الطريق.

لكن، بعد مضيّ بضع ليالٍ، أدركت إنغريد أن أمها هي التي لم تكن واثقة منها، ذلك أنها أفلتت بعض العبارات التي أخافتها، ولم تفعل أيّ شيء لتبدّد مخاوفها، رغم أنها سمحت لها أن تحيك الصوف دون وضع لحاف العيدر على كتفيها، فقد حلَّ الربيع الآن. وعلّمتها ماريا كيف تحيك كعب الجورب، وهكذا تستطيع أن تقدّمه هدية لوالدها عند عودته من لوفوتن.

كان عمر إنغريد سبع سنوات.

لم تنسَ إنغريد هذه المحادثة التي لم تكتمل. ولم تكن قادرة على صياغة السؤال الصحيح لتطرحه على أمها، والذي كان سيبدّد مخاوفها. بقي السؤال غصّةً في حلقها، وغلالة حمراء أمام عينيها، جعلت يديها ترتجفان، ثم انفجرت الغلالة في الحظيرة عندما كانت وحدها مع باربرو، باربرو التي عادت من الموت في ثياب امرأة أخرى وفي أحشائها طفل لا ينتمي إلى أحدٍ، أيضاً.

قالت باربرو إن لم تتوقّف إنغريد عن البكاء فسوف تصبح مثلها، كما لو أنها تمطر داخل نفسها، وهذا مطر لا تفيد معه الثياب المطرية، ويتعاظم خوف المرء باستمرار، لكن بالإمكان السيطرة على ذلك.

نظرت إنغريد إلى باربرو.

أزالت باربرو الطين من فتحة في الجدار، وقالت لإنغريد إنّ عليها أن تتماسك، وإنّ ما يجول في خاطرها وتفكّر فيه ليس إلا أمارة على أنها قد بدأت تكبر. وفي الخريف ستبدأ بالذهاب إلى المدرسة في هافستاين، هي وصغارٌ آخرون من شتى الجزر. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً سيكون كلّ

شيء مختلفاً، وليس هناك ما تخشاه، وما يخيف حقاً هو ألّا يكون لديك شيء، ولذلك السبب هناك الكثير من الجزر. انحلّت الغمامة الحمراء وتحوّلت إلى بخار أبيض. أحاطت إنغريد عمّتها باربرو بذراعيها، ضمّتها بقوّة ولم تتركها البتّة.

- 22 -

في العام الماضي، عندما عاد هانس من لوفوتن، كان مرهقاً. هذا العام، عاد أقوى. على الرغم من أن الجليد قد أنهك لوفوتن، لكنه لم يؤثّر كثيراً على غلّة الصيد. إضافة إلى أن لديه رصيفاً في بارأوي، لم يستطع قارب العم إرلينغ أن يقف بقربه فحسب، بل أن يرسو هناك أيضاً لأكثر من أربع وعشرين ساعة، باستخدام حبل الربط الثخين، والنوابض الارتجاعية. وسُمِحَ لإنغريد بالصعود إليه رغم كونها أنثى، وأُخذت في جولة في قمرة القيادة، والحجرات، والمطبخ أيضاً؛ لقد كان قارباً ضخماً، منزلاً عائماً يُبحر تحت اسم قارب بارأوي.

جرت استضافة البحّارة وتقديم الطعام لهم على الشاطئ. وجلس العم إرلينغ مع أخيه وأبيه في الصالون وشربوا الأكوافيت(*)، والقهوة، وتناولوا اللحم فوق مفرش الطاولة الأبيض، وضحكوا بصخب لم يعرفه البيت منذ أكثر من أربعة أشهر؛ عندئذٍ، وعبر باب المطبخ الموارب، سمعت ماريا زوجها يستفسر عن آخر الأخبار، ومارتن يخبره أن صقيعاً رهيباً قد حلّ بهم، لكنّه نجح في اجتيازه، رغم أنهم كادوا أن يفقدوا النعاج عندما أخذتها النساء لترعى الأعشاب البحرية على الشاطئ.

(*) مشروب كحولي إسكندنافي يُستقطر من البطاطس أو أيّ نبات نشوي. (م).

توقّفت ماريا وفي يدها إبريق القهوة.

وضعته جانباً، ومشت إلى المشجب بجوار الباب، حيث يعلّق حموها قبّعته الصوفية الحمراء، تناولتها من على المشجب ورمتها في الموقد.

دخلت إلى الصالون، سكبت لهم القهوة، وأخبرتهم بما فعلت، وقالت أن لا أحد سيلبس قبّعة صوفية حمراء بعد الآن، فهي قديمة ونتنة الرائحة، وأن حماها ينبغي أن يستحمّ مرّة واحدة في الأسبوع على الأقل، في حوض الغسيل في الحظيرة، لأن رائحته نتنة مثل خنزير. وهناك شيء آخر أيضاً: إن ستّاً من شباك باربرو الجديدة، مع عوّاماتها وثقالاتها وحبال التثبيت، ما تزال عالقة في البحر مثل جدارٍ بنّيٍّ قذر جنوب الرصيف السويدي، ولذلك ينبغي أن ينتبه إرلينغ جيداً عندما يبحر جنوباً، ويلتفّ حول مولتهولمن.

حدّقوا إليها مشدوهين.

أجل، وهناك شيء آخر: فهي ستسافر في غضون شهر من الآن إلى «مو في رانا» وستبقى هناك طيلة فصل الصيف.

«مو في رانا؟»(*).

تفوّه مارتن ببعض الكلمات التي ينبغي ألّا تسمعها إنغريد، التي كانت تجلس من جديد في حضن والدها. تبادل هانس النظرات مع أخيه. أومأ إرلينغ برأسه. أنزل هانس ابنته عن حضنه وخرج إلى المطبخ.

ما سمعه الجالسون في الصالون بدا محادثة عادية. ثم انصفق الباب

(*) لقد هدّدت ماريا سابقاً بتطليق زوجها، والآن تهدّد بأن تدير ظهرها بازدراء لبارأوي وكلّ ما تعنيه لساكنيها خصوصاً أن «مو في رانا» ليست مجرد مدينة صغيرة، فهي على اليابسة وعلى مسافة طويلة من بارأوي وتعداد سكّانها بالآلاف، وهي تمثّل النقيض التام لبارأوي. وإذا أضفنا إلى ذلك كله مكانة ماريا ودورها الكبير في تسيير أمور الحياة في بارأوي يصبح رد فعل مارتن مفهوماً وكذلك تصرّف هانس. (م).

الخارجي. نهضت إنغريد ونظرت من نافذة الصالون، ورأت والديها يسيران جنباً إلى جنب فوق المروج الربيعية البنيّة. كانا يتحدّثان. والدها يطوّق أمها بذراعه، وأمها قد وضعت رأسها على كتفه، ثم سارا يداً بيد، ثم قاطعت الأم ذراعيها فوق صدرها، ووضع الأب يديه في جيبيه، توقّفا وتحادثا، ثم تلفّتا حولهما وتابعا سيرهما واختفيا. لم تلاحظ إنغريد أيّ شيءٍ غريب، أو مخيف، ولم ترَ أيّ شيء لم تفهمه، لكنّها كانت قد رأت شيئاً لن تنساه أبداً.

منذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ مارتن يستحمّ، في الحظيرة. في ما يتعلّق بالشباك، قال مارتن إن الصقيع كان فظيعاً فلم يكن هناك مجالٌ لسحبها من البحر، وبعدئذٍ نسيها تماماً. وعندما جدّف بالقارب، اضطرّ إلى قطع حبل مرساها البعيد لأنه لم يستطع تحرير المرساة، ثم استعان بالحصان لسحبها إلى الشاطئ. وبقيت هناك، كومةً نتنة طوال الصيف، لم يتوقّف تعفّنها إلى أن حلَّ الشتاء التالي، وبعدئذٍ بدأت تتحلّل وتتحوّل إلى تراب، كرة من التراب بين الصخور الملساء، حيث سرعان ما ينمو نبات رقصة العجل، والحمّاض وجرس الثعلب. بدت كومة تراب غريبة، كما لو أنها بحاجة إلى سبب، أو تفسير لوجودها هنا. حتى في نهاية المطاف ستحظى على الأقل باسم، وسمّوها جزيرة الصقيع، وكانت إنغريد صاحبة التسمية.

لقد حدث ما تنبأت به ماريا في يوم العودة إلى البيت، باستثناء ما يتعلّق بذكر مدينة «مو في رانا»، الاسم الذي لم يتكرّر قطّ، والذي ما كان ينبغي أن يُقال. ولهذا السبب لا يُنسى بسهولة وسرعة، وهذا يصحّ على ما قالته ماريا أيضاً لإنغريد عن الخلل في جينات العائلة وعن أبيها، وما قالته باربرو عن

المطر الداخلي وعن المدرسة والصغار الآخرين في مثل عمرها، وأن ليس في نمو الإنسان ما يخيف.

عندما وضعت باربرو طفلها، في آخر فصل الصيف، وكان المخاض مؤلماً وطويلاً، اضطرّ مارتن وهانس أن يمضيا أكثر من يوم خارج المنزل، وكانت ماريا هي من ولّدتها. وصلت إليسا هافستاين متأخرة ثمانية أيام عن ولادة باربرو، فقدّموا لها القهوة وبسكويت القرفة في المطبخ، بينما قدّموا الخبز المقرمش والزبد والشراب لبحّارة القارب الذين جلسوا على المرج في ذلك الطقس الرائع. وقدّموا لهم الحليب أيضاً. أطالت القابلة إليسا زيارتها، وشاهدت الطفل الوليد، الذي كان أبيض البشرة ومدوّراً مثل زلابية، وكان يبكي كلّما عجز عن الرضاعة من باربرو التي توقّفت عن العمل وأخذت مكان مارتن على الكرسي الهزّاز. كانت باربرو تُرضع وليدها وتغني.

إليسا هافستاين لديها أيضاً ابنة من عمر إنغريد، اسمها نيللي وستبدأ المدرسة هذا الخريف أيضاً، وسوف تصبحان صديقتين بالتأكيد. بقيت إليسا هافستاين في ضيافتهم حتى تحوّل لون الجبال في البرّ إلى اللون الأزرق، قبل أن يختفي وميض شفرات المجاديف عن نظرهم عند الأفق في الشمال. سمّت باربرو الطفل «لارس» على اسم السويدي لارس كليميت، الذي كان على الجزيرة مع رفاقه الذين جاؤوا هرباً من الحرب، وشيّدوا الرصيف، قبل أن يغادروا.

- 23 -

إنهم يقطّعون التورف. وهذا عملٌ ينبغي إنجازه في فترات الذروة بين موسمين، في شهر حزيران، لأن التجفيف يستغرق وقتاً طويلاً. يستعملون نِصال المناجل القديمة، التي نجّر لها هانس مقابض خشبية. بينما يقطّع هو التورف بالمجرفة، التي شحذها جيّداً، وأصبحت حادّةً مثل منجلٍ. ولهذا السبب هو الوحيد الذي يعمل واقفاً؛ بينما يعمل الآخرون راكعين في المستنقع. تشاركهم باربرو في العمل أيضاً. وطفلها الرضيع نائم على جلد خروف على العشب بالقرب منها.

تبدو قطع التورف مثل كتابٍ أسودَ سميكٍ ورطب، وستبقى منشورةً في المرج أسبوعاً كاملاً حتى تجفّ، وعندئذٍ يستطيع هانس ومارتن أن يرصفاها في حلقة بارتفاع قامة رجل على شكل برجٍ مخروطيّ تتخلّله فراغاتٌ كثيرة، مثل كُوّات في جدران حصنٍ، قبل أن يُلقوا بقيّة القطع الصغيرة كيفما اتفق في أسطوانة المخروط، قبل أن يكملوا البناء الذي يضيق باتجاه مركز البرج حتى يصبح سقفه على شكل قبّة لا تشبه أيّ سقف آخر، لا سقف كنيسة ولا سقف بيت، غير أنه لا يسمح أيضاً بدخول أي قطرة ماء؛ ويسمح في الوقت ذاته للرياح بالدخول من الكوى الصغيرة في

جدار البرج، مثل آلاف تيارات التجفيف، ثم الخروج من الجهة الأخرى حاملة معها الرطوبة إلى خارج البرج.

إن البناء الصحيح لكومة التورف ليس مجرّد شكلٍ جميل، كأيّ عمل بشري لافت للنظر في الريف، بل هو تحفةٌ فنّية. وأيّ خلل في القاعدة، أو تسرُّع في بناء البرج، ينتهي إلى كارثة، تكشف عن حقيقتها في وقت لا ينفع فيه الندم، في شهر كانون الثاني، عندما يحملون على ظهورهم قطع التورف في أكياس الشبك التي نسجوها بأنفسهم، ويخوضون في الثلج من الحظيرة وإليها، ويكتشفون بعدئذٍ أن قطع التورف قد غطّتها قشرة من الجليد، فأصبحت قطع حجارة صلبة. يضطرّون إلى استعمال الإزميل والمطرقة لتفتيتها؛ أو الديناميت. ثم يجمعون قطعها المتناثرة في المكان، ويُلقّمون بها المدفأة، فيكتشفون بعد ذلك أنها ليست وقوداً بل مجرّد قطع طينٍ أسود قاسٍ لا تصلح لأيّ استعمال. ثم تأتي الطامّة الكبرى، عندما يضطرّون إلى التجديف بقواربهم أميالاً إلى المركز التجاري من أجل شراء ما هو متوفّر مجاناً في مستنقعاتهم، ويكتشفون أن تلك كانت أقصى درجات الغباء.

لا تشارك إنغريد في تقطيع التورف، فهي ما تزال صغيرة جدّاً على هذا العمل، فتكتفي بجمع قطع التورف الصغيرة نصف الجافة وترصفها مثل قطع الدومينو في هيئة سمكة كي تمرّ الرياح بينها وتجفّفها، هذه الرياح الأرضية الدافئة التي تهبّ على الجزيرة منذ أيام عديدة، والتي تتوقّف فجأة.

يلاحظون جميعاً توقّف الرياح المفاجئ.

يتوقّفون عن العمل، يرفعون رؤوسهم وينظر بعضهم إلى بعض، ويصيخون السمع.

فجأةً تصمت الطيور جميعاً. لا خشخشة في الحشيش ولا طنين حشرات أيضاً. البحر مثل قطعة جليد، تتوقّف قرقرة الماء بين صخور الشاطئ، ويسود الصمت جوف الآفاق المحيطة بهم.

هذا النوع من الصمت نادرٌ جداً.

والأكثر غرابة في هذا الصمت هو أنه يحدث في جزيرة. وهو أكثر غرابة من الصمت الذي يخيّم فجأة على غابة. يسود الصمت في الغابة غالباً؛ أما على الجُزُرِ فالصمت أقلّ نسبياً، وهذا ما يجعل سكّان الجزر يتوقّفون عما يفعلونه ويتلفّتون حولهم متسائلين عما يجري. أمر يثير العجبَ. شيء غامض، يثير الأعصاب، إنه غريبٌ عديم الملامح، في عباءة سوداء، يجوب الجزيرة بخطا صامتة. تتفاوت طول فترة هذا الصمت حسب الفصول، ففي الشتاء يسود طويلاً، عندما تصقع الأرض، أما في الصيف فهو أقصر، ويحدث بين تقلّب الرياح، بين المَدّ والجَزْرِ، أو مثل المعجزة التي تحدث عند البشر عندما يبدّلون بين الشهيق والرفير.

يسمعون فجأةً زعيق نورس، وصوت ريح جديدة تهبّ من اللامكان، وهذا المولود النائم فوق جلد الخروف، وقد أرضعته أمه جيّداً، يستيقظ ويبدأ بالصراخ. يمكن أن يستأنفوا عملهم وكأن شيئاً لم يحدث. لأنه في الحقيقة لم يحدث شيءٌ. يتحدّث المرء عن الصمت الذي يسبق العاصفة، وكيف أن الهدوء قد يكون تحذيراً، دعوة لفعل شيءٍ ما، أو قد يعني أن على المرء البحث في التوراة طويلاً ليفهم دلالته. لكن الصمت على الجزيرة لا معنى له، لا أحد يأتي على ذكره أو التفكير في تسميته، بصرف النظر عن عمق الانطباع الذي يتركه فيهم. إنه اللمحة الخاطفة التي يرون فيها الموت وهم على قيد الحياة.

- 24 -

يعود هانس بارأوي من لوفوتن مع أدوات جديدة، هذا الربيع. يضعها في سقيفة القارب التي كان ينام فيها العمّال السويديون. يحوّل اثنين من الأسرّة إلى طاولة نجارة، وذلك بربطهما معاً بواسطة مَلازم ربطٍ خاصة جلبها معه أيضاً. يأتي مارتن لمعاينة الأدوات الجديدة: فأرتا النجارة، المَلازم، المثقب، وثلاث شفرات منشار مختلفة، ومسطرة مائية يمكن استعمالها أفقياً وعمودياً.

«هل كلّفتك الكثير؟».

لا يجيبه هانس.

لقد أحضر هانس معه قوائم عديدة من خشب الصنوبر، رفيعة وصفراء اللون مثل لون الشراب، وقد جرى تفريغها مع أدواته وعدّته. والآن يرفع في وجه والده زوج مفصّلات نحاسية رفيعة ويسأله ما إن كان يفتقد قبّعته الصوفية الخرقاء؟

يضع مارتن يده على صلعته وهو على وشك أن يغادر غاضباً. لكن لأن هذه المعاملة القاسية من ابنه وقعت بعد نسيانه الشباك في البحر للمرّة الثانية، استبدل بالعودة إلى البيت غاضباً الخروجَ في قارب إلى البحر، وسحب الشباك إلى الشاطئ، ثم أمضى معظم النهار في تنظيفها ونشرها

على الرفوف وراء سقيفة القارب، مثل غسيل عُلّق هناك كي ينظر إليه العالم كله ويُعجَبَ به.

بعد ثلاثة أيام استيقظوا على طَرقٍ مخيف في المطبخ. نزلت إنغريد تستطلع الأمر فوجدت النافذة في الجدار الغربي من المطبخ قد انتُزعت من مكانها لتحلّ مكانها نافذةٌ جديدة. وقفت تشاهد والدها يضع الأوتاد والكتل، يوازيها من الأعلى ويُسمّرها، ثم يملأ الفراغ بين الخشب، يضع العازل المطري من الداخل والخارج، ثم يثبّت عتبة النافذة. كانت نافذةً مفصلية بدرفتين يمكن فتحهما معاً.

على الجهة الخارجية من الجدار ثبّت مشبكين ووضع فيهما إسفينين كي تُربطَ إليهما درفتا النافذة، عندما تُفتحان، فلا تغلقهما الرياح عندما تهبّ. كان ينبغي إنجاز هذا العمل، وأعمال أخرى كثيرة، في زمن مارتن؛ وبما أنه ليس لديهم مخبز في بارأوي، كانوا يخبزون في المطبخ، ويضطرّون إلى فتح الباب من أجل خروج الدخّان، والدخّان لا يخرج. الآن بوسعهم فتح النافذة بدلاً من الباب. حتى إنها بقيت مفتوحة معظم فصل الصيف، حتى أثناء هطول المطر خفيفاً، لأنها مثل كل الأشياء الجديدة الأخرى، ينبغي أن تُستعمل طوال الوقت. ثم أغلقوها. لكن بقي استعمالها ممكناً في كل الأوقات، فعلى سبيل المثال، فتحتها ماريا بعد بضعة أشهر عندما أرادت أن تصرخ على عائلتها التي تعمل في حقل البطاطس لتقول لهم إنّ العشاء جاهز.

«اغسلوا أيديكم وتعالوا!».

كان التحدّي الآخر أكبر؛ ويتعلّق بالرصيف الجديد، الذي يحتاج إلى سقيفة قارب تليق به. في شهر آب، جلب قارب نقل المركز التجاري شحنة مواد وأنزلها على الشاطئ عند الرصيف القديم. جاءت ماريا وعدّت

المواد، وحسبت كلفتها، بصوتٍ عالٍ، لكنها لم تقل شيئاً، في الواقع هي لا تقول شيئاً.

تظاهر هانس أنه لم يسمع شيئاً.

على مدى شهرٍ كامل، قام هانس ووالده بنشر عوارض السقف على الأرض وتسميرها، ثم رفعاها الواحدة تلو الأخرى بواسطة بكرة وحبل، ثم بدأا، في مطلع شهر أيلول، بإكساء السقيفة بالألواح الخشبية. تناقشا حول أيّ جدار ينبغي أن يبدؤوا به، واتفقا على البدء بالجدار الطويل في الجنوب الغربي، من حيث تهبّ معظم الرياح، وهكذا سيكون بمنزلة الساتر لهما بينما يقومان بإكساء بقية البناء. لاحظ مارتن أن هذا القرار كان مناصفة بينه وبين هانس.

صباح اليوم التالي، عندما أرادا البدء في أول جدار جملوني، هبّت الريح. نظر هانس إلى السماء وقرّر أنه لا مجال للإرادة البشرية الآن.

عادا إلى البيت وشاهدا من خلال نافذة المطبخ الجديدة كيف كانت الرياح تمزّق بناءهم الجديد أشلاء وترميه في الفيورد الشمالي مثل أعواد ثقابٍ.

هدأت العاصفة ليلاً. وفي الصباح التالي ركبا القارب وراحا يجمعان ما استطاعا العثور عليه. توقّفا عند الجزر الصغيرة والصخور، وتحدّثا إلى توماس في ستانغهولمن، الذي شاهد بمنظاره ما فعلته الريح، وخرج لجمع ما استطاع أيضاً من المواد التي جرفها الموج. نجحا في استعادة كلّ ما خسروه تقريباً.

في اليوم التالي شرعا في تثبيت قواعد خشبية في المكان نفسه. وسمّراها بطريقة أفضل. وفي مطلع شهر تشرين الأول كان هناك هيكلٌ جديد في المكان. وبعد أسبوع انتهيا من بناء الحائط الجنوبي للمرة الثانية.

واستعملا في بنائه دعائم خشبية وأشرطة تثبيت أكثر من اللازم. وفعلا الشيء ذاته مع الجدران الأخرى. في نهاية الشهر هطلت الثلجة الأولى. في ذلك الوقت كانا قد فرغا من إكساء الجدران الأربعة، وعلى وشك تشطيب هيكل السقف الخشبي.

لكن، بعد ظهر ذلك اليوم حدث أمر عجيب، لم تظلم السماء فحسب، بل انخفضت كثيراً وأصبحت غريبة ومن الصعب قراءتها، وكان ذلك بحدّ ذاته نذيراً، نذيراً بالأسوأ. فاستغلّوا الساعة التالية في ربط هياكل الجدران وتثبيتها بكلّ ما وجدوه من حبال وأسلاك. وبعد هبوط الظلام مباشرة حدث أول تحطّم على الجزيرة.

في ذلك الوقت، كانوا في البيت.

هذه المرّة، لم يضطرّوا إلى مشاهدة الدمار. فقد حدث كل شيء في الظلام الحالك. لكنّهم سمعوا الأصوات. وكانت هذه العاصفة أعنف، ومرَّ يومان تقريباً قبل أن يستطيعا التجديف بالقارب للبحث عن المواد. ولم يعثروا على الكثير هذه المرة. وبعد ثلاثة أيام من البحث أحصى هانس ما استطاعا استعادته فكان لا يزيد عن ستين في المئة من المواد، وكثير من الأخشاب كانت معطوبة وليس بالإمكان استخدامها إلا حطباً.

في اليوم التالي، قاما بتثبيت أساسات جديدة، لكن هذه المرة تغيّر موقع البيت تسعين درجة، وسيكون اتجاه جملون السقف شمال جنوب، والجدار الطويل سيكون في مواجهة الرصيف إلى الغرب. فكّرا في أن ذلك ضربٌ من الجنون. لكن ما عاد القرار في أيديهم. وعندما جاء الصقيع في بداية كانون الأول، كان الهيكل الأساسي قد أُنجز للمرة الثالثة، وكانت دعائم السقف أخفض بمقدار نصف متر من المخطّط الافتراضي. نفدت المواد من عندهم. فقد استخدما آخر ما لديهم في التدعيم، وتركا الهيكل

الخشبي الكبير هديةً بيضاء لعيد الميلاد، وعادا إلى البيت، والقرار الآن في يد فصل الشتاء، فإذا بقي الهيكل اللعين سليماً حتى الربيع، فسيعملان على إكسائه.

ومرَّ اليوم التالي بسلام.

جلسوا في المطبخ ينظرون إلى ضوء الصباح الشاحب، وإلى الهيكل الخشبي الجديد فوق الصخرة، ما عاد يشبه هدية عيد الميلاد، بل كتلة جليد، ويحيط بها من كل الجهات البحر، أسود وهادئاً، مثل طبقة من الصمغ تحت سماء لا نجوم فيها.

نهض هانس ودخل إلى مخزن الطعام، حيث يعلّقون التقويم، وقرأ أن اليوم هو الرابع من كانون الأول، عيد القديسة باربروس. اضطرّ أن يتبسم، ثم عاد وفتح النافذة ونظر إلى الطقس؛ صمت جديد تقريباً. صمت مطبق ومستقرّ، همهمة سلام، تجعلك تعتقد أنها ستدوم، وبعد أن تبادل أطراف الحديث مع مارتن، لبسا ثيابهما، ونزلا إلى سقيفة القارب، أخرجا القارب رباعي المجاديف، وقطرا القارب الأكبر لديهم، وجدّفا باتجاه المركز التجاري. هناك حمّلا في القارب كل ما استطاعا الحصول عليه من مواد، واشتريا اثنَيْ عشر كيلو من المسامير، صندوق قهوة، وعشرين كيلو طحين، ثم عادا إلى الجزيرة، وفي عصر اليوم ذاته بدأا بإكساء الجدار الجنوبي الغربي، ولم ينتهيا منه إلا بعد منتصف الليل.

ناما بضع ساعات، ثم استيقظا لاستقبال قارب شحن المركز التجاري الذي أوصل لهما العديد من المواد. عملا طيلة النهار والليل على إكساء الجدار الثاني، وتناولا الطعام، الذي جلبته لهما ماريا وباربرو، في موقع العمل. واستأنفا العمل في الليلة التالية أيضاً. وبعد يوم وليلة كانت كل الجدران مكسوّة. وُضعت نافذة المطبخ القديمة في مواجهة الشمال،

وصنعا بابين كبيرين مقابل الرصيف، وفي الجدار الآخر الكبير صنعا باباً صغيراً مقابل باب سقيفة لوفوتن القديمة. بدا كأن البناءين ينظران أحدهما إلى الآخر. وكان بوسعهما الآن أن يبدأا بإكساء السقف.

استغرق منهما عمل يومين كاملين.

حملت ماريا وباربرو لهما المزيد من الطعام إلى موقع العمل، ثم ساعدتا في مناولتهما المواد من الأسفل إلى الأعلى. سمّر هانس ومارتن طبقتين مضاعفتين من الألواح على حواف السقف، بعدئذٍ وضعا العوارض. وأصبح السؤال الآن ما هي المواد التي سيستخدمانها لعزل السطح، وكان قرار هانس أن يستعملا الألواح الإردوازية، فقد شاهدها في العديد من البيوت في جزيرة لوفوتن، وكذلك في البرّ الرئيسي، وقرّر أنه سيشتريها في الشتاء وينقلها على قارب أخيه إرلينغ.

لم يستحسن مارتن فكرة الألواح الإردوازية. قال إنها تطير مثل أوراق كتاب غير مخروز وتغرق في البحر. لكن ابنه لم ينصت إليه. كان مشغولاً في ثقب حفرتين في الصخر ليثبّت فيهما كابلين فولاذيين يصلان إلى إفريز السقف بكلّابتين، وهكذا أصبح البناء يشبه صاري سفينة شراعية. وكان البيت الوحيد من بيوت الجزيرة المربوط بحبال. ولم يعرفا بعد ما إن كان سيبقى أم سينهار، فهذا ما سيقرّره الشتاء.

بقي الطقس هادئاً طيلة فترة عيد الميلاد وحتى بداية العام الجديد. وعندما رسا قارب العم إرلينغ، وقف الجميع يتفرّجون على هانس وهو ينقل عدّة صيده وأدواته إلى قارب إرلينغ. غير أن مارتن ساعده هذه المرّة في حمل صناديق الأشراك إلى القارب. وكانت باربرو واقفة هناك وبين يديها لارس الصغير، يرفس بقدميه ويضحك. لاحظت إنغريد أن قلبها لم يعد ينفطر لوداع والدها، رغم أن حزنها كان كبيراً. لوّح الجميع مودّعين، ثم عادوا إلى البيت، وبدأت وحدتهم، ووجومهم.

- 25 -

اليوم تبدأ مدرسة إنغريد. تجدّف بها أمها إلى هافستاين. تضحكان كثيراً في الطريق إلى المدرسة. ففي جعبة ماريا الكثير من القصص عن أيام الدراسة، ويبدو أنها تفتقد تلك الأيام. تسألها إنغريد: «هل كنت طفلة؟!». تضحك ماريا وتجيبها إنها بالتأكيد كانت طفلة، وفجأةً يبدو الأمر مزيجاً من السرّ والسؤال. تقول ماريا بحزنٍ إنها لم تحظَ بوالدٍ جيّد مثل والد إنغريد. تسألها إنغريد ما إن كان والدها شرّيراً. تقول ماريا إنه لم يكن شرّيراً. لا تطرح إنغريد مزيداً من الأسئلة، ولا تتبرّع ماريا بإخبارها بالمزيد.

تبحران بجانب سربٍ من طيور البفن، فتطلب ماريا من إنغريد أن تعدّد لها ألوان مناقيرها. تقول إنغريد إنه أمرٌ مملٌّ، وقد فعلته سابقاً. تشارك إنغريد في التجديف؛ لأن المسافة طويلة. بعدئذٍ تجلس على مقعد المجدّف الأول وتشعر بظهر أمها ملاصقاً لظهرها بينما تتراءى لها هافستاين كأنها تصعد من البحر، شريط من اليابسة مليء بالبيوت، أحدها لونه أبيض. إنه بيت مزرعة في قرية هافستاين، حيث ستكون المدرسة لهذا العام، مدرّسٌ وخمسة عشر تلميذاً، ثمانية منهم جدد. كلّهم قادمون من جزر مختلفة، بعضهم أكبر عمراً، لكن جميعهم صغار. سينامون في سقيفة المدرسة أسبوعين، ثم يعودون إلى بيوتهم أسبوعين، بينما يذهب المدرّس

أولاي كريستوفر كريستوفرسن لتدريس مجموعة أخرى في مدرسة ثانية في جزيرة أخرى. وبعد أن يُعلّم التلاميذ الجدد أن يرفعوا أيديهم ويطلبوا الإذن بالكلام قبل أن يتكلّموا، يطرح عليهم سؤاله الأول: «من منكم يجيد السباحة؟».

يتبادل التلاميذ الجدد نظرات حيرة، والأكثر خبرةً بينهم يخفضون بصرهم ويحدّقون في مقاعدهم. ترفع إنغريد يدها وتقول إن أمها تستطيع السباحة.

«هذا ما ستتعلّمونه اليوم جميعاً»، يقول أولاي كريستوفرسن بلكنته الغريبة، لأنكم سكّان جزر، ومن المهم جداً بالنسبة لسكّان الجزر أن يجيدوا السباحة كما يجيدون الإبحار بالشراع والتجديف والصلاة. ثم يأمر الطلاب الجدد بالخروج إلى فناء المدرسة والاصطفاف في رتلين.

يفعلون ما أمرهم به المدرّس، ثم يسيرون بانتظام إلى خليج صغير على الطرف الآخر من الجزيرة، فيه شاطئ رملي أبيض مثل الشاطئ الموجود لدى إنغريد في بارأوي. لكن هذا الشاطئ يكاد يكون على شكل دائرة كاملة وهو ضحل، لدرجة أنه يجفّ أثناء الجَزر، فتسخّن الشمسُ الرمالَ، التي تدفّئ الماء عندما يعود المدّ. وعلى طول الضفة الشرقية من الخليج يوجد ريفٌ صخري مستوٍ كأنه طريق اقتطعت من سفح الجبل، يقف المدرّس أولاي هناك وفي يده عصا بامبو طويلة، أطول من الرمح الذي يستخدمه والد إنغريد لسحب الأسماك المقاومة إلى القارب. ويأمرهم بالنزول إلى الماء بملابسهم الداخلية.

الماء باردٌ، لكنه دافئ أيضاً بالنسبة لماء المحيط. يمسكون كلٌّ بدوره نهاية عصا المدرّس، بينما يقف هو على الصخرة ويصدر تعليمات لا يفهمونها، لكنه يسحبهم بالعصا إلى الأمام ويدفعهم إلى الوراء مثل أسماك

بيضاء تتلوى. يضربون الماء بأقدامهم ويتلقّون التوبيخ منه حتى يجيدوا التمرين. بعدئذٍ يقفون في الماء ساكنين حتى رقابهم ويتعلّمون كيف يحرّكون الذراعين، قبل أن يغطسوا رؤوسهم تحت الماء، مراراً وتكراراً، ومن لا يفعل ذلك يتلقّى ضربةً بعصا البامبو؛ وبهذه الطريقة يتعلّمون التحكّم بتنفّسهم، وهذا فنٌّ بحد ذاته.

في النهاية يأمرهم بالتحرّك إلى الأمام باستخدام الحركات التي تعلّموها بأذرعهم وأرجلهم، وبما أنهم تعلّموا السيطرة على تنفّسهم فلا فرق الآن إن أبقوا رؤوسهم فوق الماء أو تحته. ينظر المدرّس أولاي إلى ساعة يده، ثم ينظر إلى الشمس، وإلى مقياس ارتفاع المدّ، ولا يسمح لهم بالخروج من الماء قبل أن تزرقّ شفاههم وتبدأ أسنانهم تصطكّ.

يقول: «هذه بداية جيّدة».

يسيرون إلى المزرعة بثيابهم الداخلية الرطبة، يدخلون من الباب الخلفي فلا يراهم أحد، ثم يصعدون إلى السقيفة التي سينامون فيها، الأولاد في القسم الشمالي، والبنات في القسم الجنوبي، ويجدون في الغرف سلسلة من الحبال ليعلّقوا عليها ثيابهم الداخلية الرطبة، ويلبسون ثياباً أخرى جلبوها معهم بناء على توصية المدرسة.

بعد ثلاثة أيام يصبح الجميع قادرين على السباحة. وتُقام منافسة، تحت المطر. على الجميع أن يسبحوا عبر الخليج ذهاباً وإياباً وهم يمسكون بعصا البامبو، التي تطفو الآن فوق الماء مثل ثعبان أصفر مربوط بين حبلين تحت الصخرة التي يقف عليها المدرّس أولاي الذي يقرّر أن الفائز هي نيللي إليسا، ابنة القابلة. ولأنه من غير المعقول أن تربح فتاة، يقرّر المدرّس أنها تجيد السباحة قبل أن تأتي إلى المدرسة. ولأن نيللي تتأتئ، فهي لا تعترض. حتى إنها لا تقول أيّ شيء في الصف مهما وبّخها

المدرّس أولاي، وقد وبّخها كثيراً قبل أن يستسلم في نهاية المطاف. نيللي قويّة.

بخلاف نيللي، تريد إنغريد أن تخالط الآخرين، وهي لا تعرف الخوف، بل هي متحمّسة دوماً، ولا تكفّ عن الضحك. لكن غير مسموح لها أن تضحك. فالضحك في الصف ممنوع، لثلاثة أسباب، يعدّدها المدرّس أولاي على أصابعه الطويلة الرفيعة: فالضحك يسبّب الفوضى، وهو مُعدٍ، ويبدو ضرباً من الغباء.

وغير مسموح أن تضحكي أثناء تناول الطعام أيضاً.

لم تفهم إنغريد ما يقصده المدرّس. فمنع المرء من الضحك عندما يحتاج أن يضحك، يشبه حرمانه من استعمال ساقه.

لكنّ الحياة جحيم، هذا ما تعلّمته إنغريد على الأقل، وهكذا توقّفت عن الضحك وبدأت تبكي بدلاً من ذلك. كلّ ليلة. تنام نيللي، التي ما تزال ممتنعة عن الكلام، في السرير ذاته مع إنغريد التي لا تخمد نار شوقها إلى البيت وبارأوي. وعادت تلك الغلالة الحمراء تحوم أمام عينيها من جديد. تنهض من السرير وتركض نصف عارية تحت المطر، تدور حول المدرسة، نازلةً إلى الميناء، ثم صعوداً باتجاه الشاطئ حيث تعلّمت السباحة. دون أن تصادف أحداً. ثم تعود ثانية، لأن هافستاين جزيرة أيضاً، بصرف النظر عن قدرتك على السباحة أو التجديف. تصعد إلى السقيفة، تخلع ثيابها المبلّلة، تنشرها على الحبل وتلبس ثياباً جافّة، ثم تستلقي في السرير وتبدأ في البكاء حتى تفتح نيللي فمها وتقول لها أنه ينبغي أن تسكت. وتقول لها أيضاً: «شـ.شـ.شـعرك جـ.جـ.ـميل جـ.جـ.جداً».

تطلب منها أن تسمح لها بتسريح شعرها وضفره. تفوز نيللي بذلك. في هذه الليلة، وفي الليالي التالية. لا تستطيع إنغريد أن ترفض. وعندما

تأتي ماريا لتعيدها إلى المنزل في الأسبوع الثاني، تقول لها العبارة نفسها: «شعرك جميل جداً!». وكأنها تكتشف ذلك الآن فقط. في الطريق إلى البيت تقول لها أيضاً: «تبدين جدّية جدّاً!».

لا تخبرها إنغريد الكثير عن أسبوعيها الأوَّلين في الجحيم، ولا تقول إنها قد بكت وتقيّأت وشعرت بنار تأكل أحشاءها، وداخت مرتين. بدلاً من ذلك، تخبرها كيف تعلّمت السباحة، وأن لديهم أبواباً لها مفاتيح، وهناك غرفٌ ممنوع عليهم دخولها، وقد تعلّمت الأحرف الأبجدية والأعداد، وأنها رأت نفسها في مرآة كبيرة معلّقة في غرفة في المزرعة، مرّةً واحدة عندما كان باب الغرفة مفتوحاً.

تطيل ماريا النظر إلى إنغريد، كأنها تبحث عن شيء ما.

نيللي هي من علّمت إنغريد السكوت، فالغريب في أمر العدوى هو أنها قد تكون مفيدة وقد تكون ضارّة أيضاً. والآن لدى إنغريد أسبوعان من الحرية. ولأن والدها وجدّها يعملان في تشييد أول بناء للرصيف الجديد، يسمح لها والدها بالبقاء معهما يومياً والمساعدة في مناولة المسامير الزيبقية(*)، التي جلبها معه من لوفوتن، والتي تضمن الوضع الدقيق لما ينبغي أن يكون أفقياً أو شاقولياً.

(*) هي التسمية العملية لدى الحرفيين، وهناك اسمٌ آخر لها وهو ميزان الماء. (م).

- 26 -

يقول مارتن إن تسمية جزيرة حيد الحصان لم تأتِ من فراغ، وكذلك تسمية جزيرة الثور التي مُنحت هذا الاسم بسبب المياه الخطيرة التي تحيط بها. أسماء الحيوانات هذه، هي تحذيرات، إشارات لحجب الأسماء الحقيقية للحيدان الصخرية وطبيعتها الحقيقية، إنها من رموز الشيطان، إبليس. ولديهم تسميات أخرى مثل صخرة التيس، حيد الماعز، وجزيرة الكبش؛ للأسباب ذاتها. حيوانات ذات حوافر. حيوانات على أربع. فوجود حصان على متن القارب، على سبيل المثال، يتعارض مع كلّ الغرائز، ويحدث فقط في الحالات الاستثنائية، أي من أجل نقله. تخيّل أيّ جحيم هو أن تضع ثور استيلاد على متن القارب هنا، أو عندما تضطرّ إلى نقل الأبقار، فهذا ليس عملاً عادياً، بل فيه ببساطة ما يتناقض كلياً مع العملية الطبيعية، وهذا أمرٌ تفهمه، تشعر به بكيانك كلّه.

هانس متخمٌ من هذه الأحاديث، يعتقد أنها لغو عجائز ومعتقداتٌ خرافية، بخلاف الإيمان الحقيقي، الإيمان بالله، الذي بيده القدر والطقس والصيد، كما يعرف الجميع. أما المعتقدات الخرافية فهذه تقوم على البلاهة.

لقد أصبح هانس أكثر ميلاً إلى التأمل، منذ أن بدأت ابنته المدرسة،

وعاد إليها هذا الاضطراب القديم، بعد أن لفّت نفسها بالتكتّم، وبعد أن ملأت عينيها تلك الجدّية الغريبة. وبينما هما جالسان على كومة من الأخشاب في استراحة من العمل، يستقرّ نظر هانس على الحصان الذي يرعى بعيداً في الحديقة الوردية، ويسأل والده، وكأن الوقت قد حان أخيراً، ما إن كانوا ما زالوا في حاجة إلى هذا الحصان؟

فهو يبقى في الحظيرة ثمانية أشهر في السنة، ويأكل ما يكفي لبقرة ونصف، صحيح أنه يجرّ حصادة التبن، والمحراث، وينقل التبن، لكنهم يحملون التورق بأنفسهم، فهل يحتاجون فعلاً إلى هذا الحصان، أم أنهم اعتادوا وجوده فحسب، مثل أيّ عادة سيئة، مثل الأصفاد والسلاسل في القدمين؟

إنه عجوز أيضاً، عتيق.

يلاحظ مارتن أن ابنه قد انتقل إلى موقعه هو، وما قاله هانس هو اعتراف بشكل أو بآخر، ورغم انتقاده لشراء الحصان، يقول الآن، إن الحصان كان مكسباً جيداً عندما وصل إلى الجزيرة، رغم أنه وصل في قارب، وهذه، على أي حال، الطريقة الوحيدة لنقله إلى هنا... ثم يصمت ويترك باقي التصوّر معلّقاً في الهواء ليتلقّفه هانس ويقرّر بنفسه ماذا سيفعل.

يذهب هانس إلى سقيفة لوفوتن، ثم يعود وبندقية في يده. يسحبان الحصان إلى المستنقع في الجهة الغربية -فأنت لا تدع النساء في البيت يرين أنك تقتل حصاناً- يطلقان النار عليه، ويدفنانه في المكان ذاته، كما يفعلان بالكبش. يستغرقهما ذلك نهاراً ونصف. لكنهما لا يسمحان لنفسيهما بالحزن عليه، ويكرّران باستمرار عبارة: «الحيوان اللعين»، ثم يجفّفان عرق جبينيهما ويعودان إلى الرصيف ويستأنفان إكساء السقيفة. كانا قد بدأا بإكساء الحائط الجنوبي، ويأملان الانتهاء منه قريباً كي يستطيعا إنجاز بقية العمل في حمايته.

لكن هانس بارأوي يشعر بقلق دائم عندما ينظر إلى ابنته، أو عندما يسرح بنظره في الجزيرة ويلاحظ أن لا شيء على ما كان عليه من قبل. وهو مضطرّ، طوال ساعات يقظته، أن يعرف أين يوجد كلّ واحد من حيواناته، فالجزيرة مليئة بالنسور والمنحدرات الخطرة، وفي هذه اللحظة يشدّ قامته ويجول بنظره بحثاً عن الحصان، قبل أن يتذكّر أنه قد مات، ثم يتابع عمله.

يتكرّر ذلك كثيراً.

يفكّر في قوة العادات ويتساءل ما إن كان نادماً على قتل الحصان، عندما يرى اضطراب السماء، هذه أول عاصفة، وقد تطيح بهذا البناء الجديد في أي لحظة.

ليس في وسعك سوى أن تبدأ من جديد.

بعد أن تطيح العاصفة بالبناء الجديد أيضاً، يبدأ هانس بالقراءة في التوراة. يأخذه معه إلى لوفوتن، ويقلب في صفحاته بين الأيام العادية وأيام الأعياد. في الأول من نيسان، عندما يبحرون بالقارب إلى الجنوب من جديد والعلم يرفرف على السارية، كإشارة للمنتظرين إلى أن الجميع سيعودون أحياء سالمين، يعتبر هانس ذلك فأل خير وإشارة إلى أنّ هيكل البناء الجديد في الجزيرة سيكون سالماً كما تركه، عندما غادرها في تلك الليلة المظلمة قبل أربعة أشهر، لقد ازداد فيه اللون الرمادي فقط. وسرعان ما سيقوم باستخدام كومة الألواح الإردوازية، الموجودة الآن في عنبر شحن إرلينغ، لتغطية السطح بها.

لا يستخلص أي نتائج موسّعة من نجاة المبنى الجديد القوي، لكنه يشعر براحة كبيرة، تتوّجها ابنته الواقفة الآن على الرصيف ممسكةً بيد الطفل الصغير وتشير بها نحو علم الصاري، ثم تهمس بشيء ما في أذنه. يرى الأب ابتسامة طفلته القديمة، التي تغمر روحه بالسعادة دوماً، على

الرغم من أنها ليست صبيّاً. وهذه السنة يحمل لها معه هديّة من لوفوتن، وهذا ما لم يفعله في العام الماضي، كما يحمل معه عُدّة وموادّ للنافذة؛ ولديه أفكارٌ جديدة في رأسه للشتاء.

يحصل مارتن على هدية أيضاً، موسى حلاقة بقبضة من عاج الفيل. ويحصل الآخرون على أقمشة فساتين وسكاكر، وتحصل إنغريد على صندوق موسيقا وكتاب بعنوان «السامريّ والحمار». لارس فقط لا يحصل على هدية.

كما تحصل إنغريد أيضاً على مرآة. هذه هي المرة الثالثة التي ترى نفسها في المرآة. كانت المرّة الأولى في هافستاين في العام الماضي. وحين سمحت لها أمها باللعب بالمرآة التي تحتفظ بها في صندوقها، والتي نادراً ما تخرجها منه، عندما عادت ذات يوم من المدرسة وتلك الغلالة الحمراء أمام عينيها ولم ترغب في تناول الطعام.

الآن تستطيع أن ترى نفسها في المرآة متى تشاء.

تُمرّي لارس، دون أن يفهم ما يجري. وتُمَرّي القطة وجدّها، ويُريها أبوها كيف أنها عندما تجلس أمام المرآة وتكتب، تصبح يدها اليمنى يُسرى وتصبح الأحرف غير مقروءة؛ وهي تنعكس، كما لو أنه من الممكن أن تكون شخصاً آخر بينما أنت نفسك في الوقت ذاته.

تصعد إلى غرفتها وتخبّئ المرآة في صندوق تحتفظ به هناك.

كلّ امرأة لديها صندوق، ويحصلن عليه قبل فترة طويلة من حصولهن على كرسي. على غطاء صندوقها محفور اسم، بيترينا، وتاريخ سنةٍ. بيترينا هو اسم جدّة أبيها. غير أن ماريا هي من تشرف على محتويات الصندوق وما ينبغي أن يكون فيه. وإن كان بخلاف ذلك، فقد تأخذه منها.

عندما ترى ماريا، على سبيل المثال، شالاً، أو كوباً أو دمية، تقول

لإنغريد: «أنت لا تحتاجين هذا»، وتعطيها بدلاً منه شيئاً من صندوقها. وهذا شيء سوف ترثه إنغريد ذات يوم. فيغدو السؤال هل من الضروري نقل أشياء من هذا الصندوق إلى ذاك؟ لكن هذا ما يجري. وهذا يتعلّق بالزمان والعمر، ويتعلّق بجيلين في العائلة سيندمجان في جيلٍ واحد. وصندوق إنغريد في حالة مقبولة إلى حدٍّ ما، وهي على وفاق مع ماريا بخصوص ذلك.

عندما يتجوّل هانس وماريا في الجزيرة ويرى هانس ثانيةً كلّ شيء، لا يذكر لها أنه قد فكّر كثيراً في الحصان في الشتاء، بل يصرّح لها أنه ربما قد أصبح أكثر ورعاً. ويقول أيضاً إنه سعيد بعودته إلى البيت من جديد، وقد نحتا تسميتهما الخاصة لوصف الحالة: حب-البيت. هذا عَرَضٌ ليس إيجابياً بالضرورة، بالنسبة لرجل، لذلك تقول ماريا إنه لم يصبح أكثر ورعاً ولا أكثر حباً للبيت، وكل ما في الأمر هو أنه قد كبر قليلاً، وأن الشيب قد بدأ يخِط فودَيه.

يشعر بارتياح مفاجئ، ارتياح لا علاقة له بحديثهما، ويلاحظ أيضاً أن الشيب قد بدأ يغزو رأس ماريا. لكن، خلال صعودهما المنحدر الأخير في طريق العودة إلى البيت، يضبط نفسه ثانية وهو يفكّر في أن هناك شيئاً مفقوداً، حيوان، حصان.

يتوقّف ويسأل ماريا عن عدد الحملان التي حصلوا عليها في هذا الربيع، ويصغي إليها وهي تعدّها وتشير إليها. فيدخل بينها ويبدأ بعدّها وهي تذكر له الأسماء التي أطلقوها عليها، ويتأكّد أنه من الآن فصاعداً لن يبقى شيء على ما كان عليه. لقد مضى عام، ولن يعود أبداً، ولذلك يسأل ماريا كيف هي حال إنغريد، ولن تجيبه ماريا بخلاف ما تجيبه عادة، كما لو أنه لا يثق بما ترى عيناه.

- 27 -

لم يكن لارس قد تجاوز الشهر السابع من العمر، عندما استطاع الوقوف متمسّكاً بشباك باربرو وثبت في وقفته قليلاً، ثم تمايل قبل أن يقع إلى الوراء ويضرب رأسه بالأرض. وتكرّر ذلك مراراً. وبعد أسبوع استطاع الوقوف بمفرده وأمسك بثبات بشباك سمك القدّ وهو يجول ببصره في المطبخ. كان لارس يحب الوقوف.

في الخارج، جمعت إنغريد الثلج حول جذعه السفلي بحيث استطاع أن يقف، ويلوّح بذراعيه. للارس شعرٌ أشقر، بلون الزُّبدِ الأصفر، عينان بنّيتان وخدّان أحمران ممتلئان. لم يكن قد تجاوز الشهر الثامن من العمر عندما استطاع الوقوف وسط المطبخ دون مساعدة، ومشى ووقع، ثم نهض ثانية ومشى إلى غرفة المؤونة وجلب شيئاً يأكله، وإن كان لا يستطيع الكلام بعد، كان يفهم ما يقولونه له، ويعرف الفرق بين الكأس والملعقة والصندوق المعدني الصغير.

وعندما ذاب الثلج عن الأرض، كان بوسعه المشي من البيت إلى الحظيرة وإلى أبعد كومة تورف. في شهر آذار صقعت الأرض، هطل المطر، وعاد الصقيع، وعندما صقعت الجزيرة كلّها، اضطرّوا أن يلبسوا النعال ذات المسامير. جرّت إنغريد الصبي على زلّاجة فوق المروج

المسطّحة، كما غرزت خطاطيف صيد الأسماك في نعليه، وصنعت له نعلين بمسامير أيضاً، كانت تلك محاولة لتعليمه المشي من جديد.

في مطلع شهر نيسان فقدوه مرّتين، وفي كلتا المرّتين وجدوه جالساً على شاطئ الرمال البيضاء يحفر الرمل بعصا. خلال فترة رعي الحملان، اضطرّوا إلى ربطه في الفناء. وكانت إنغريد، خلال أسبوعي عودتها من المدرسة، تقوم على رعايته من لحظة استيقاظه حتى يخلد إلى النوم. وفي الأوقات الأخرى، كان يبقى بصحبة جدّه في سقيفة القارب حيث يلعب بالكرات الزجاجية وخيوط صيد السمك، أو يجلس في صندوق من صناديق الأشراك ويأكل الخبز الجاف. وقبل يوم من عودة هانس من لوفوتن، قام مارتن بتغطيس يد لارس الصغيرة في القطران، وساعده على طبع بصمتين ليده اليمنى على جدار السقيفة، بصمتان صغيرتان تشبهان رأسي أرنبين لن ينمحيا أبداً عن جدار السقيفة.

لم تنظف يده من القطران أيضاً، وقبل أن يذهبا إلى احتفال عيد العنصرة في الكنيسة، قامت باربرو بفرك يده بقوة حتى أصبحت حمراء قانية، واضطرّت إلى إخفائها بقفّاز صوفي. مشى لارس وحده من رصيف القوارب إلى الكنيسة. وهناك اتفقوا مع القس يوهانس مالمبيرغيت على تعميد الطفل في الأحد الأول من شهر آب، رغم اضطرارهم للاعتراف بأن لا أب له.

قال القس يوهانس: «جميعنا أبناء أبٍ واحد، نحن أبناء الطبيعة».

في الحقيقة هذه الكلمات كذبٌ صريح يُراد بها مواساتهم، لأننا جميعاً نأتي من مكانين، ولارس أيضاً جاء من مكانين: الأول رجل غريب والثاني باربرو، وهذا ما جعل غيمة مضاعفة من الشك تخيّم فوق رأسه. وكانت لديه توقّعات وآمال أيضاً. تدريجياً، ومع نموّه خلال السنة، تلاشت تلك

الشكوك والآمال، وصارت تعاود الظهور ثانية فقط عندما يكسر شيئاً أو يحقق إنجازاً باهراً، وهو في الأساس لم يفعل أياً منهما.

خرج لارس من الكنيسة وركض إلى الشاطئ، ووقف هناك ينظر إلى جدّه الذي كان قد سبقه وجلس على مقعد المجدّف، ظهره إلى الشاطئ ووجهه بين يديه. لقد سمع العجوز الطفل وهو يطرطش في الماء، لكنه لم يلتفت إليه.

عندما وصل الآخرون وجدوا مارتن في الوضعية نفسها، بينما كان لارس قد خوّض في البحر والماء يغمره حتى خصره، أدركوا أن هناك خطباً ما.

سألت ماريا ما الأمر.

قال مارتن من بين أصابع يديه أن تلك هي المرة الأخيرة التي يأتي فيها إلى الكنيسة. وعندما سألوه: «لماذا؟» لم يجبهم. لكن عندما سألوه إن كان ذلك بسبب قبر كايا، هزّ رأسه نافياً وقال إنه لا يحتمل أن يقرأ ثانية ما قد كُتب على شاهدة قبرها، وكان ينبغي ألّا يكتبوا ذلك الشطر من الشعر، وأن القسّ على حقّ، وينبغي أن يستبدلوا الشاهدة، أن يتخلّصوا منها.

نعتته ماريا بالأحمق وطلبت منه أن يغيّر مكانه. صعد الجميع إلى القارب، ولفّوا لارس ببطانية. في الطريق إلى البيت، سألت إنغريد عن المشكلة في شاهدة قبر جدّتها، ولم تحصل على إجابة. وعندما ألحّت، قالت ماريا إنها لا تعرف، وهي لم ترَ حماتها قطّ، وأن بوسعها أن تسأل أباها. سألت إنغريد أباها. فابتسم وقال إنه بيت شعر جميل جداً، وأن جدتها قد أجادت الاختيار. أومأت إنغريد برأسها، ونقلت بصرها بين أمها وجدّها الذي كان يجلس في مقدمة القارب، ظهره إليهم، وهو يحدّق في يديه.

عندما وصلوا إلى الجزيرة واقتربوا من الرصيف، قال مارتن أيّ فائدة لعينة ينتظرونها من ذلك الرصيف الكبير إذا لم يكن لديهم سوى قاربَين رباعيّي التجديف، وقاربين صغيرين.

هزّت ماريا رأسها.

لم يقل هانس شيئاً. حملت باربرو لارس عالياً ودغدغته. نهض مارتن وصعد باتجاه البيوت، ولاحظت إنغريد أنها تشعر بالشفقة عليه. وكان ذلك شعوراً جديداً تماماً. ولم يكن لديها أدنى معرفة من أين جاء. اختفى هذا الشعور في اليوم التالي. لكنه عاد وظهر ثانية في لحظات كانت فيها مشغولة بأفكار مختلفة تماماً. عندئذٍ أدركت ثانية أنه الإحساس الذي خبرته في رحلة العودة تلك من الكنيسة إلى البيت، ضربات المجاديف في الماء، وتعابير الوجوه. لكنها لم تعتده أبداً، ولم تخبر أحداً به.

- 28 -

تجلس إنغريد في غرفة الجلوس الكبيرة في مزرعة هافستاين وفي حضنها لوح الكتابة، وقد ضمّت ركبتيها من تحته، وتمسك بيدها قطعة طباشير صغيرة، وتنظر عبر النافذة إلى شمس شباط المنخفضة التي سرعان ما ستغادر زجاج النافذة غير المستوي. لقد انتهت من الكتابة. وكانت واثقة من أنها قد تهجّت كلّ أحرف الكلمات بدقّة. تشعر بالدفء الذي يشعّ من المدفأة، وهي تعرف أن قفّازاتها معلّقة مع قفّازات الآخرين، وأن حذاءها هناك أيضاً بين أحذية الآخرين، وأن معطفها معلّق مع معاطف الآخرين في الممرّ. إنها واحدة من الآخرين. هي من جزيرة، وكلّ واحدٍ من الآخرين من جزيرة أخرى. إنهم هنا معاً. لم تعد تضحك عندما يُفترض بها ألّا تضحك، وشعرها مضفور. تنظر إلى المدرّس أولاي حتى يفهم نظرتها ويرفع بصره.

لكنه لا يفعل شيئاً. ينتظران الآخرين، الذين ما زالوا يكتبون. بعدئذٍ يسألها هامساً، من فوق ثلاثة رؤوس منكبّةٌ فوق ألواح الكتابة، ما إن كانت قد أنهت كتابتها. تومئ إنغريد برأسها. ويومئ هو أيضاً، ثم يتابع الكتابة في السجلّ بينما تعود إنغريد للتحديق في النافذة، حيث تنسلّ الشمس عبر الزجاج وتنزلق في مثلّث معتم على أرضية الغرفة المغطّاة بالرمال،

مثل شراع في قارب يبحر عبر الغرفة ويأخذ النهار معه، وسرعان ما يأتي غابرييل ومعه المصباح. غابرييل روحٌ لطيفة صموتة وهو الشخص الأكبر في عائلة المدرسة، واليوم هو يوم السبت وإنغريد ستعود إلى البيت.

لكن هذه هي المرة الأولى التي لا تشعر فيها إنغريد بالشوق إلى البيت.

تضع لوح الكتابة جانباً، تنهض دون أن تطلب إذن المدرّس، ثم تمشي إلى طاولته وتضع قطعة الطباشير على الطاولة أمامه، وترى نظرته المتفاجئة، ثم تستدير وتتناول ثيابها وحذاءها وتحمل حقيبتها الصغيرة، ثم تغادر الغرفة دون أن تطلب إذنه أو حتى دون أن تنظر إليه.

تخرج إلى الممرّ، تلبس معطفها وتخرج إلى البرد، قبل عشر دقائق من انتهاء المدرسة - فقد عرفت ذلك من ساعة الحائط الكبيرة. تسير نازلةً الطريق إلى المرفأ، وترى جدّها واقفاً هناك يتحدّث ويضحك مع رجلين من عمره. إنها المرة الأولى التي لا تشتاق فيها إلى البيت. وهي المرة الأولى التي لا تشعر فيها بالخوف. عمرها تسع سنوات الآن. وتلاحظ أن جدّها يصبح في رفقة الغرباء شخصاً آخر غير الذي تعرفه في البيت. وتفكّر أنها هي مثله أيضاً.

تقف أمام جدّها وتبتسم له. يردّ لها بابتسامة. يداعب خدّها بيده الكبيرة. ثم يتركها تسقط إلى جنبه ويتابع حديثه مع الرجلين وكأن لا شيء قد تغيّر. تنزل إنغريد إلى القارب، وتجلس في انتظاره على المقعد الأوسط. لكن مارتن لا يأتي. إنه يتحدّث مع الرجلين.

تنهض إنغريد وتمشي إلى الأمام، تفكّ حبل ربط القارب، تجلس بين المجدافين وتبدأ التجديف. تقطع مسافة طويلة قبل أن ينتبه جدّها إليها، ويبدأ الركض على الرصيف جيئة وذهاباً وهو يصرخ. يلوّح بيديه ويصرخ عليها كي تعود لاصطحابه. لكنّها تستمرّ في التجديف ولا تردّ. لا وجود

للرياح، والبحر هادئ تماماً، الجزر بيضاء بحواف سوداء، والبحر أخضر. تجدّف إنغريد بضربات طويلة، وقوية، مثل أمها، وتقطع نصف المسافة إلى البيت قبل أن يدركها قاربٌ غريب فيه مجدّفان، وينطّ جدّها منه إلى القارب ويحتار في أمره: هل يوبّخها أم يضحك؟ وترى إنغريد حيرته تلك، هذا الرجل العجوز، الذي تعرفه جيّداً أكثر من أي شخص آخر. يقول لها إنها ستجدّف الآن وحدها كلّ المسافة اللعينة إلى البيت، وإنه شخصياً سيجلس في مؤخرة القارب ويدخّن.

- 29 -

في الوقت الذي ترعرعت فيه باربرو في بارأوي لم يكن للبنات كراسيّ يجلسن عليها. كنّ يقفن إلى الطاولة ويأكلن. المرأة الوحيدة في البيت التي كانت تجلس على كرسي هي الأمّ، كايا، ولم تحصل على كرسيّها الخاص إلا بعد أن ولدت طفلها الأول. وعندما توفّيت كايا، أرادت باربرو أن تأخذ كرسيّها. لكن هانس أعطاه لماريا عروسه الحديثة. وبعد فترة قصيرة جداً تزوّج الأخ الأكبر إرلينغ وانتقل للعيش في جزيرة أخرى أغنى من بارأوي. عندئذٍ حصلت باربرو وماريا على كرسيّيهما في الوقت نفسه تقريباً. وعندما بلغت إنغريد عامها الثالث، صنع لها أبوها كرسيّاً أيضاً، بذراعين، يمكن أن يوضع عليهما لوح، وتستطيع أن تجلس وتضع قدميها على الكرسيّ أيضاً، لكنها مُنعت من ذلك عندما كبرت.

انتهت حقبة زمنية.

لم تُناقَش هذه الأمور. وليس معروفاً أبداً ما إذا كان ذلك مطلب باربرو أو فكرة هانس التي جلبها معه من لوفوتن، والتي أدّت إلى أن تحصل النساء على كراسيّ أيضاً. هو شيء أُنجزَ فحسب، كما يجد الناس فجأة طريقاً جديداً في البريّة ويحبّونه، ثم يسلكونه باستمرار حتى يكرّسونه بعد فترة طريقاً رئيساً، مثل مرادفة أخرى لكلمة عادة.

لكن باربرو تذكّرت ماذا كان يعني ألّا يكون للمرء كرسيّ، ولهذا، عندما حصلت على كرسيّها، كانت تحمله معها أينما ذهبت في الجزيرة، في سقيفة القارب وعلى الرصيف، وفي المروج أيضاً، حيث كانت تجلس عليه وتراقب الحيوانات، والسماء، وطيور صائد المحار على الشاطئ. قطعة أثاث في الهواء الطلق. تجعل السماء سقفاً والأفق جدراناً في بيتٍ اسمه العالم. وهذا ما لم يفعله أحدٌ من قبل. ولم ينجح الآخرون في اعتياده أيضاً.

وهكذا كان لا بدّ من صنع كرسيٍّ آخر للارس. وقد صنعها له هانس على طاولة عمله الجديدة في سقيفة القارب. وقامت باربرو على خدمته أثناء ذلك. كانت تجلب له القهوة والطعام. لكنّه لم يسمح لها بالبقاء بجانبه.

قرّرت أن تقف أمام الباب وتنتظر، ولأنه من غير الممكن أن تبقى واقفة تحت المطر، طلب منها الدخول والقيام بكنس النشارة وترتيب العدّة التي يفرغ من استعمالها.

كانت تلك أجمل كرسيّ في بارأوي. ومثل كرسيّ إنغريد، بذراعين يمكن أن يوضع عليهما لوح، لكن مع بعض النقوش أعلى الظهر، نقوش تشبه بتلات زهور لم يرَها أيٌّ منهم من قبل. كما صنع هانس في قاعدة الكرسي فتحة، ليتمكّن لارس أن يتغوّط عبرها، في قصرية، كانت كرسياً ومرحاضاً في آنٍ معاً، حتى كبر وأصبح قادراً على الذهاب إلى المرحاض، القريب من الحظيرة، الذي يستخدمه الآخرون.

- 30 -

من وقتٍ إلى آخر، يأتيهم ضيوف من الجزر الأخرى. يقدّمون الطعام والقهوة لضيوفهم الذين يتكلّمون، جميعهم في الوقت نفسه، دون توقّف، لأن الكلام يتراكم لدى سكّان الجزر وينبغي تفريغه في لحظة ما. وعندما تفرغ جعبتهم من الكلام، يعودون إلى بيوتهم ثانية ويبدؤون بتجميع القصص. لكن سكّان بارأوي لم يَضِفهم أيّ غريب على الإطلاق.

فما هذا إذاً؟

يبدأ مثل ظلٍّ رمادي بالانفصال عن الأمواج المتلألئة في الشرق ثم يتخذ شكل القارب تدريجياً. هانس هو أول من يراه، قارب دون شراع، وعلى متنه رجل واحد، وما زال بعيداً جداً، فكان لديهم الوقت الكافي ليعرفوا كلّ شيء عنه قبل أن يصل. أولاً، هو في مياه مجهولة، لا نقاش في ذلك، وهو ليس بارعاً في التجديف، ألا يعني هذا أنه من سكّان البرّ؟

لكن من الواضح أنه يتحرّك باتجاه هدف محدّد، كأنه قادم إلى هنا، إلى بارأوي، ولا بدّ أن يسألوا أنفسهم ما إن كان قد سمع عنهم شيئاً جعله يأتي إليهم، أو ما إن كان يعرفهم أو أنه أحد أقربائهم البعيدين.

لكن ليس لديهم معارف أو أقرباء على اليابسة.

وربما جاء ليبيعهم شيئاً ما، رغم أن هذا لم يحصل من قبل، لكن لا يمكن استبعاده. أو هل جاء ليسلّمهم رسالة؟

هذا ما يفعله عادةً توماس الذي يعيش في ستانغهولمن، أو ربما هو مجدّف من المركز التجاري. وإن كان الأمر كذلك، فما عسى هذه الرسالة تكون؟ خبر وفاة؟

استعرض هانس أسماء المقرّبين إليه، وخلص إلى أنهم لا يمكن أن يرسلوا غريباً لنقل رسالة كهذه، لكن، هناك أنواع أخرى من الرسائل...

مثل؟

ثم يتعرّفون على القارب، إنه أحد قوارب أدولف في جزيرة مالفيكا عند سفح الجبل، وأدولف لا يعير قواربه، خصوصاً لأشخاص لا يجيدون التجديف ولا يعرفون أين هم. بعبارة أخرى، تسبق هذا القادم الجديد موجةٌ من اللايقين، وعلاوةً على ذلك، يلاحظون أنه خائف وهو يقف هناك في القارب المتأرجح بشعره الأسود الطويل ولحيته وعينيه اللتين تنظران في كل الاتجاهات.

كان هاجسهم الأول أن يطردوه بعيداً. لكنّهم لطيفون وفضوليون، فيقفون بحيادية ويراقبونه وهو يقترب من الشاطئ ويخاطبهم بصوتٍ عالٍ ولكنةٍ غريبة عليهم. يفهمون أنه هاربٌ من مكانٍ ما، من سجن، ويطلب منهم أن يشفقوا عليه.

أرى أنكم أناس بسطاء، لستم معتادين على أشخاصٍ مثلي، يمكنني أن أفعل ما أشاء هنا، لكن ليس لديّ رغبةٌ في ذلك، بل أفضّل أن أنعم بكرم ضيافتكم!

يطمئنّ هانس لكون الضيف يبدو مثقفاً. وصوته يبعث على الثقة، ربما هذا أفضل من الصمت إذا ما أضيف إلى هيئته المخيفة.

يومئ هانس لبقية أفراد العائلة مطمئناً إياهم، لكنّه يقول للضيف: «لا يمكنك الإقامة هنا!».

عندئذٍ يتغيّر كلّ شيء.

«أنا لم أقل إنني سأقيم هنا!»، يقول الرجل وهو يقلّد لهجتهم ساخراً، ثم يلقي بحقيبة صغيرة فوق كتفه، ويغادر القارب دون أن يربطه ويمشي صاعداً نحو البيوت، ويتركهم مشدوهين وهم يراقبون هذا الغزو لمملكتهم.

يخوض مارتن في الماء ويمسك بحبل القارب. يسحبونه إلى اليابسة وهم يتبادلون النظرات، يفتلون القارب قليلاً بحيث يصبح الجانب الملوّن منه مرئياً من جهة البحر، قارب أدولف على جزيرة غير جزيرته، وهذا بحدّ ذاته سيكون إشارة، صرخة استنجاد، هم أنفسهم لم يصدّقوها.

يسيرون على خطا الهارب، وعيونهم معلّقة على هانس، يشعر هانس بنظراتهم، بينما يرون هذا الغريب يدخل إلى المبنى الرئيسي وكأنه بيته، إنه يعرف ما عليه فعله، ينبغي أن يقتل هذا الرجل.

يقفون أمام الباب كأنهم في اجتماع، لكنهم في الواقع في حالة تردّد جماعي. أخيراً، يدخل هانس أولاً، تلحق به ماريا وإنغريد، ثم باربرو وعلى حضنها لارس، رغم أنه في الرابعة الآن وهو يرفس ويريد النزول.

يبقى مارتن في الخارج ويقف بجوار النافذة ويرى العائلة تصطفّ على طول الحائط، في الداخل، مثل شحّاذين في مطبخهم الخاص، بينما جلس هذا الدخيل على كرسي هانس وهو يتفحّصهم واحداً واحداً، وهو يفكّر في الأوامر التي سيصدرها لهؤلاء الخدم.

« ما اسمكِ؟» يسأل إنغريد، دون أن يعرفوا ما إنْ كان يسخر منهم أم لا. تترك إنغريد يد أمها وتتقدّم منه ثم تقول اسمها. يومئ الغريب برأسه، لكن

يبدو أنه لم يجد شيئاً مهماً يطلب منها القيام به، فيحوّل نظره إلى باربرو ويكرّر سؤاله. لكن باربرو لا تجيبه.

أليس لديكم طعام؟!

يفهمون السؤال، لكنهم يبقون مُسمَّرين في أماكنهم كما لو أنهم لا يعرفون أين توجد الأشياء، باب غرفة المؤونة، المدفأة، أنبوب المدخنة، طاحونة القهوة ومرطبانات الملح والسكر... والدِّلاء على المقعد بجوار حوض المجلى، التي جلبها هانس من لوفوتن في الربيع، كأنهم لم يروها من قبل، وأن الدّخيل لا يبدو فقط كما لو أنه يعيش هنا، بل كأنه يستمتع بملكيته الخاصة أيضاً. يكرّر طلب الطعام، فينكمشون على أنفسهم أكثر، وحدها إنغريد تجرؤ على سؤاله أيّ طعام يريد؟

يجيب بصوت عالٍ، كما لو أنهم صُمٌّ، أنه لا بدّ أنّ لديهم خبزاً، بعض الزبد، اللحم... «فقد رأيت أبقاراً في الخارج، عجولاً...».

تفتح ماريا باب غرفة المؤن. يصرخ عليها الغريب ببعض الكلمات. تتوقّف وتنظر إليه من فوق كتفها. وعندئذٍ يفقد هانس قدرته على احتمال البقاء هناك. يترك إناثه الثلاث وابن أخته ويخرج دون أن يهتمّ للكلمات التي يصرخ بها هذا المالك الجديد، لكنّها ترنّ في أذنيه: «أين، بحقّ الجحيم، تعتقد أنك ذاهب؟!».

ينزل هانس إلى حقل البطاطس، حيث توقّفوا عن العمل عندما شاهدوا القارب، يجلس ويسند ظهره إلى جدار البيت.

تستطيع إنغريد أن تراه من النافذة. يتبعه جدّها ويجلس بقربه. يتحدّثان. وقد بدأ المطر يهطل. تجلس باربرو في الكرسيّ الهزاز وعلى حضنها الطفل الكبير، وتحدّق في هذا الغريب، الذي يحدّق فيها بالمقابل، يقلّدها، تهزّ باربرو الكرسي إلى الأمام وإلى الوراء، وتقرص لارس كي

يهدأ في حضنها، ويبدو الغريب كما لو أنه سينفجر عندما تضع ماريا الطعام على الطاولة. وعندئذٍ لم تعد إنغريد قادرة على البقاء هناك.

تنظر إلى يديها، اللتين سخّمهما التراب، لكنها لا تخرج قبل أن تطلب الإذن. ولا تطلب الإذن من أمها، بل من الغريب، الذي قدّمت له ماريا الخبز والسمك البارد والزبد، تسأله ما إن كان يسمح لها بالخروج.

يقول لها إن بوسعها أن تفعل ما تشاء.

تنحني انحناءة احترام، وتخرج ثم تتجه مباشرة إلى حقل البطاطس وتقف أمام والدها، الذي كان جاثياً على ركبتيه بين الأخاديد، ويلتقط البطاطس بغضب ويرميها في صندوق، وهذا ما لم يفعله من قبلُ قطّ. هانس بارأوي ليس الرجل الذي يجثو على ركبتيه، فالنساء هنّ من يجمعن البطاطس وهو ينقل الصناديق إلى المخزن. والآن يبدو كأنه يصلّي. تبقى إنغريد واقفة أمامه حتى يسألها فيمَ تحدّق.

يكرّر السؤال.

وراءه، ترى جدّها جالساً ويداه على ركبتيه. يهزّ مارتن رأسه. ينهض هانس ويرفع يده ويبدو أنه قد فكّر في أن يصفعها. لا تشعر بالخوف. ينزل يده وينظر من طرف عينيه إلى والده، الذي يأتي ويقف بجانبه.

يتبادلان بعض الكلمات. ترمش إنغريد بعينيها.

يخرجان من حديقة عدن كتفاً إلى كتف، ويتجهان إلى الرصيف قبل أن يختفيا في سقيفة لوفوتن، ثم يخرجان، هانس يحمل بندقية الحربة التي يصيدون بها خنازير البحر، ومارتن يحمل رمح مطرقة، ثم يعودان ويدخلان البيت. تريد إنغريد أن توقفهما، لكنها لا تستطيع أن تصدر أيّ صوت، فتركض وراءهما وتقف خارجاً بجوار نافذة المطبخ وتنظر عبر زجاجها الذي تغطّيه غلالة بخار بسبب المطر، فلا تستطيع أن ترى شيئاً.

فتسير نحو الشرفة في اللحظة التي ينفتح بها الباب ويخرج منه هذا الغريب وهو يمشي إلى الوراء، ويبدو صغيراً فجأة.

يخرج بعده أبوها، البندقية إلى كتفه والحقيبة في اليد الأخرى. وبعده باربرو ولارس بين ذراعيها، ثم الجدّ، الذي يتجاوز عتبة الباب بخطا غير ثابتة، فيهوي إلى الأمام ويرتطم رمح المطرقة بوجه الغريب فيسقط هو أيضاً، ويصرخ متألماً.

ترى إنغريد والدها يثبّت البندقية إلى كتفه، ويغمض عيناً. تضع ماريا يدها على ذراعه. ينهض الجد ثانية. يتضرّج وجه الغريب بالدم، وهو يشتم، وعندئذٍ ينتبهون إلى ثيابه، كأنهم يرونها للمرة الأولى، إنها ثياب جميلة، يلبس بدلة باهظة الثمن، صدرية بأزرار لامعة، بنطالاً ذا ثنيةٍ حادّة، ومن إحدى جيبيه تتدلّى سلسلة ذهبية، رجل غني يتراجع باتجاه الجنوب عبر المروج وكلّهم يطاردونه.

يتوقّفون بجوار القارب وينظرون أحدهم إلى الآخر.

يمسح وجهه بيده ويهزّ كتفيه. يراقبونه وهو يسحب القارب إلى البحر، وهانس يقف بثبات موجّهاً البندقية نحوه. يراقبونه وهو يصعد القارب، يجلس ويمسك بالمجدافين، ثم يبدأ التجديف بالطريقة الخرقاء ذاتها التي وصل بها إلى هنا، ويتجه في البداية نحو مالفيكا والجبال، من حيث جاء، ثم يتجه شمالاً - وشرقاً باتجاه المركز التجاري. يختفي وراء وابل من المطر الرمادي، يظهر لهم ثانية ثم يختفي في مطر أكثر غزارة.

انتقعت ثيابهم بالماء. إنهم لا يعرفون شيئاً عنه، لا يعرفون اسمه، ولا من أين جاء أو إلى أين يمضي. يعرفون أنه قد كان هناك فحسب. تنظر إنغريد إلى أبيها الذي لا يبادلها النظر، بل يعود مع ماريا نحو البيت، متشابكي الذراعين، والبندقية تحت إبطه، ويلوّح مارتن برمح المطرقة، وتُنزل باربرو لارس من حضنها أخيراً فيستطيع أن يركض كعادته.

في الليلة التالية تستيقظ إنغريد على قوارب قادمة من كل الاتجاهات، ولا فائدة من أن تدير لها ظهرها، ولا أن تنظر في اتجاهٍ آخر، أو تغمض عينيها، أو تتناساها، أو تركض، لأن خطواتها ليست أوسع من حركة جفونها.

تذهب إلى غرفة والديها وتوقظ ماريا، يبدو من وجه أمها أنها كانت على وشك أن تطلب منها العودة إلى سريرها. لكنها سرعان ما تغيّر رأيها وتنهض، تذهب معها إلى غرفتها وتستلقي بقربها؛ إنغريد وماريا، تسألها ما إن كان الرجل سيعود.

«كلّا، لن يعود!»، تقول ماريا.

هذا ما قالته أيضاً، عندما اختفت باربرو.

في اليوم التالي، عندما ترى إنغريد أباها يقف في حقل البطاطس، ويتلفّت حوله، مثل كشّافٍ يترقّب قارباً، أو حصاناً، ويقول إنه نادم لأنه لم يقتل ذلك الخنزير، وكان غباءً منه أنه تركه ينجو بقارب ليس له، قارب أدولف، لا تستطيع أن تفهم لماذا لم يفعلوا ذلك. لم يختفِ شيء من الجزيرة، ولم يُسرق شيء ولم يتأذّ شيء. وعلى الرغم من ذلك فقد سلبهم هذا الغريب أثمن ما كان لديهم، شيئاً لن يستطيعوا استعادته أبداً. تعتقد إنغريد أنه يتعلّق بردود فعلهم المختلفة، من غادر المطبخ لأنه لم يحتمل البقاء هناك، ومن بقي في المطبخ. إنغريد بنت عاطفية.

- 31 -

يدوس هانس بارأوي على مسمار ويؤذي أحد أصابع قدميه، تتجرثم الإصبع. وكلّ يوم يعرج في مشيته أكثر من اليوم السابق. حتى يضطرّ أخيراً للذهاب إلى المستشفى، في المدينة، حيث يُجرون له عملية بترٍ. وعندما يعود إلى الجزيرة، يمشي مستنداً إلى عكاز. لقد بتروا له إصبعين بدلاً من واحد، لأنه تأخّر كثيراً وانتقل التجرثم إلى الإصبع الآخر؛ فتقرّر ماريا أنه لا يستطيع الآن أن يذهب إلى لوفوتن.

«كيف سنعيش، إن لم أذهب إلى الصيد؟!».

«لا يمكنك أن تذهب للصيد في البحر على عكّاز!»، تقول ماريا.

يوافقها العم إرلينغ الرأي عندما يأتي لاصطحاب هانس في بداية العام الجديد. ويقول إنه يمكن لأحد العمّال أن يستخدم عدّة هانس، هذا الشتاء، مقابل تقاسم غلّة الصيد مناصفة، وتبقى أنت في البيت وتصطاد بجوار الجزيرة بالعصا، هاه هاه!

يوافق هانس على الاقتراح، ويرسل نصف عدّة صيده مع إرلينغ، ويقف هو والعائلة على الرصيف يراقبون قارب بارأوي يختفي عن البصر دون أن يكون هانس فيه لأول مرة منذ خمسة عشر عاماً.

يحصل هذا في صباح الثالث من كانون الثاني.

من ينبغي أن يذهبوا إلى الحظيرة يذهبون إلى هناك. بينما يبقى هانس واقفاً يتلفّت حوله. إنها حالة غريبة وليس هناك ما ينظر إليه. الأفق هناك في البعيد، وهنا اليابسة. وهو يسمع البحر. وهذا كل شيء. ينطلق الآن ويبدأ في جمع كل ما يمكنه من المواد، ثم يبدأ بصناعة مقعدين في سقيفة القارب الجديدة. ولا يتوقّف عن العمل حتى ينجزهما في اليوم التالي. مقعدان. عندئذٍ، يقول لباربرو إنه سيعلّمها كيف تضع الطعم في خيوط السمك.

«لكنّني أعرف هذا سلفاً!»، تقول باربرو.

«أجل، أعلم ذلك. لكنك ستتعلّمين كيف تصلحينها، وتطوينها من جديد»، يقول هانس.

لا تستطيع باربرو فعل بذلك. هي تحب أن تضع الطعم في الشصّ، لكن عندما تحاول أن تضعه في الصندوق وتلفّه بعناية في حلقات، تتشابك الخيوط. لكن إنغريد تستطيع ذلك، عندما لا تكون في المدرسة. وماريا أيضاً، عندما لا تكون في الحظيرة أو تطبخ الطعام.

لقد أصبح شتاءً خاصاً، شتاء دون غرف فارغة، دون وحدة ووجوم. أجمل شتاء في حياة إنغريد، الصيف الجميل؛ رغم أن الطقس لم يغيّر من طباعه شيئاً. كان هانس ومارتن يستيقظان مع بزوغ الفجر كلّ يوم، كأنهما في ذروة العمل السنوي، يبحران بأربعة صناديق أشراك في البحر الفاصل بين بارأوي وهافستاين، ويصيدان بالقرب من الشاطئ كلّما سمح الطقس بذلك. واصطادا بالشباك أيضاً.

مزيداً من الشباك في كلّ مرّة.

منتصف شهر كانون الثاني أبصرت سقالة تجفيف السمك ضوء

النهار. لم يكن لديهم في بارأوي سقالة أخرى غير تلك التي يجفّفون عليها شباك الصيد. الآن نصبوا سقالةً جديدة، ثم واحدة ثانية. وفي نهاية شهر آذار أصبح لديهم ثلاث سقالات، وكلّها على التلال في الغرب. هناك جفّفوا اثنَيْ عشر طنّاً خلال هذه الشهور الأربعة، وهذه كمية ليست سيّئة بالنسبة لصيادَيْنِ وامرأتين ونصف في غرفة تحضير الطعوم، وهذه تبلغ نحو ثلاثة أطنان من سمك القدّ المجفّف. في الطقس السيّئ، كانوا يبقون على اليابسة، وكانت ماريا صاحبة الرأي النهائي في تحديد ما هو الطقس السيّئ. وسارت الأمور على ما يرام، إذ كان بوسعهم الدخول إلى البيت مع أولى أمارات العاصفة.

من جديد شعر هانس بالندم لأنه تخلّص من الحصان، لأنهم اضطرّوا إلى حمل الأسماك المربوطة من أذيالها إلى سقالات التجفيف فوق التلال الغربية.

لقد فكّر في الأمر مليّاً، وفي كلّ مرّة كانت كفّة الميزان لا ترجح لصالح الحصان، بالنظر إلى كمية العلف التي اعتاد أن يستهلكها. كانت العائلة تحمل السمك في الصناديق التي يربطها إلى ظهورهم، ويجرّ لارس السمك وراءه على الثلج، زوج من الأسماك في كل يد. كان عملاً هائلاً. لكن، كرمى لله، ألا يمكن وضع السقالة وراء السقيفة مباشرة حيث ينظّفون السمك ويربطونه؟ كلا، هذا غير ممكن، يجب أن توضع سقالة التجفيف فوق تلة صخرية وليس فوق العشب أو المستنقع اللذين يطلقان غازاتٍ وذباباً وديداناً على الأسماك.

وكان هانس يدخل إلى الحظيرة أيضاً. رجل في الحظيرة!

لم يسمع مارتن قطّ بمثل هذه الحماقة.

ذلك كلّه جعل إنغريد تشتاق للبيت عندما تكون على مقعد الدراسة في

هافستاين تتعلّم الحساب وتقرأ قصص التوراة وتغني، رغم كل الأصدقاء الذين كسبتهم هناك، وتشتاق إليهم عندما تكون في البيت. خلال فصل الشتاء هذا، اتضح لها جلياً أنها تنتمي إلى بارأوي، الجزيرة التي لم يعد فيها فصول، ولا تحتاج إلى أن تبقى هناك طيلة الوقت لأن الجزيرة لا تفارقها أبداً.

كان هذا الشتاء مختلفاً، وكذلك الصيف التالي أيضاً. ففي مطلع شهر حزيران جاء العمّ إرلينغ مع عدّة الصيد، وغلّة قليلة، لقد كان الموسم شحيحاً هناك في الشمال. بالمثل، فإن الأسعار التي حصلوا عليها في المركز التجاري مقابل أسماكهم المجفّفة كانت بائسة، لأن موسم الصيد في الجزر هنا كان جيّداً، كما قال لهم توميسين، مالك المركز التجاري.

بوسعك أن تبحر إلى أوسفاريت وترى كم سيدفعون لك بأسماكك الصغيرة هذه!

علاوة على أنها ليست من النخب الأول. لقد قصد توميسين أن فيها نسبةً عالية من الأسماك الصغيرة.

وهكذا لا بناء جديداً في بارأوي هذا الصيف. وفي منتصف حزيران كشط هانس ومارتن التورف عن الصخر جنوب هاميرين، ونقلا سقالة تجفيف إلى هناك، وهكذا قصرت عليهم مسافة نقله، وبدأ الآخرون يتساءلون ما المغزى مما يفعله هانس؟ وهل يخطّط للبقاء في البيت شتاءً آخر، ويستقرّ هنا مثلهم؟

وهل هذا ممكن حقاً؟

يقرّر هانس وماريا أن هذا ممكن، فهم أحرار، وأقوياء، ومعاً.

لكن الآن ليس لدى هانس عدّة صيد يرسلها مع أخيه إلى الشمال، فهو بحاجة إلى تلك العدّة هنا. إضافة إلى أنهم يجدون صعوبة في الحصول

على طعوم الصيد: الرنجة، والبولاك الصغير، ولهذا يستعملون طيلة شهر كانون الثاني شباك الصيد أكثر من الأشراك، حتى على شاطئ البحر. غير أن الطقس يتحوّل فجأة ويجعل الصيد مستحيلاً. يفقدون المزيد من شباك الصيد التي حاكتها باربرو. تتيبّس أصابعها وهي تحيك شباكاً جديدة؛ وهذه تضيع أيضاً. وفي شباط تقلب عاصفةٌ سقالةَ تجفيف مليئة بالسمك. يضطرّون إلى غسل الأسماك وتعليقها من جديد. ويزداد استيقاظ هانس في الليالي، ويضطرّ أن ينزل إلى المطبخ، يتفقّد الطقس، ويشعل المدفأة ويدور حولها وهو يتذكّر أنه يفتقد القهوة، ثم يتفقّد القوارب وسقالات التجفيف، مدفوعاً بذلك القلق الذي تركه ذلك الغريب وراءه، ذلك الندم غير المألوف. لو أنه قتله، فلن يتمكّن من العودة أبداً. ولن يرى أثره الآن أيضاً، لكنه ما كان ليغيب على أي حال، ويتساءل هانس ما إن كان سيرى شبحاً آخر في خياله لو أنه قد فعل ما كان ينبغي فعله، لو قتل الرجل.

العمل الشاقّ يمكن أن يبدّد القلق. الآن لدى هانس الاثنان معاً.

حلّ الصقيع وهدأت الرياح، وأثمرت جهودهم جيداً، في البحر، في الأسابيع التي سبقت عيد الفصح. وتبيّن أن هذه السنة بلا ربيع، واحدة من السنين التي يأتي فيها الربيع ذات ظهيرة في مطلع حزيران؛ قبل ذلك الوقت لا يوجد سوى الجليد والثلج، ثم المطر المائل البارد الذي يدمّر أكثر مما يحيي المحاصيل والحيوانات والبشر.

وساءت الظروف إلى حدّ أن هانس بارأوي بدأ يتساءل ما إذا كانت جزيرته قد صَغُرت كثيراً، إذا ما كان قد أنجز ما يستحقّ الذكر في هذين الشتاءين، أم أنه قد واجه مصيره، لأنه إن واجهنا الحقائق، كما لخّص الأمر لنفسه، كان الشتاء الأول جيّداً وكان لديه سببٌ وجيه للبقاء في البيت، وتلاه شتاءٌ رديءٌ، من البطالة المطلقة. وفوق ذلك كلّه، يحتاج إلى عام

كامل على الأقل لإصلاح هذا الوضع البائس، إذ لم يعد لديه شباكٌ أو أشراك صيد. وهذا كلّه بسبب إصبع قدم، إصبعين. على أي حال ما عاد هانس محبّاً للمنزل.

لقد بدأ مشروع بناء سكّة حديد على البرّ الرئيسي، سكة حديد نورلاند. وكانت منقذة للعديد من الفقراء تعيسي الحظ. والآن، أصبحت منقذة هانس بارأوي. هانس مفجّر صخور ممتاز وصاحب نظرة ثاقبة لأسرار الجبال. غادر الجزيرة فور انتهائه من وضع التبن على السقالات لتجفيفه، ولن يعود قبل منتصف كانون الأول، غائر الخدين، مستقيم الظهر وأرِقاً مثل ليلة صيف، لكن مع عدّة جديدة، خيوط صيد، خطاطيف وحبال ومرساة، وهو يغلي بحمّى لوفوتن أكثر من أيّ وقت مضى.

أمضى أيام عيد الميلاد في السقيفة الجديدة في تحضير العدّة، وثماني ققف أشراك. وبما أن مارتن قد هرم كثيراً، ولارس ما يزال صغيراً، فقد جلب معه ابتكاراً جديداً أيضاً، رافعة، ثبّتها في مؤخرة السقيفة، وهكذا أصبح لديهم ما يساعدهم عند الضرورة في سحب القوارب من السقيفة وإليها، وكل ما عليهم فعله هو أن يديروا مقبض الرافعة، مثلما يديرون حجر الشحذ.

طبخت ماريا وباربرو وملأتا صندوقاً من المؤن الأساسية تكفي لأربعة أشهر، كما أعدّتا له ملاءات سريره، وثيابه... وفي جيب الصندوق الداخلية: نظّارته، موسى حلاقة، قطرات الكافور، قلم رصاص، وقطعاً من السكر... وفي الثاني من شهر كانون الثاني وقفوا جميعاً على الرصيف وودّعوا أباً وأخاً وزوجاً وخالاً، لوّحوا وصرخوا على آذان صمّاء، بينما المصباح الخلفي في قارب العمّ إرلينغ يتأرجح في ظلمة الشتاء مثل مصباح جنازة. بعدئذٍ عادوا إلى المنزل، باربرو وماريا وإنغريد ولارس،

واستأنفوا أربعتهم الوحدة والوجوم. أما مارتن، فقد كان مستلقياً في غرفته في يوم الذكرى هذا، كان نصف رجلٍ الآن، عجوزاً متهالكاً بعد أصعب شتاءين في ذاكرته. وفي الأشهر القادمة سينام، وهو يهجس بأن تطول إقامة ابنه في لوفوتن، وأن يحالفه الحظ في الصيد.

- 32 -

لقد توقّف مارتن عن العمل تقريباً. في فصول الشتاء السابقة كان يجدّف حول شواطئ الجزيرة ساحباً وراءه جرجارة(*) بطعم زائف وبعض الشباك، أما الآن فهو يكتفي برحلة واحدة في الأسبوع مع الجرجارة فقط. وعندئذٍ يأخذ معه لارس. كان لارس جامحاً ومتلهّفاً. كما كان مارتن يحمل التورف إلى المنزل عندما تتوفّر لديه القدرة على ذلك، يضيء مصباح زيت سمك القدّ، الذي لا يسمح للآخرين بلمسه، ويقطع السمك وهو يعلّم باربرو كيف تفعل هذا وذاك، رغم أن إرشاداته لا ضرورة لها ولا هي مفيدة. أو يلعب مع لارس الصغير، السويدي، الذي خصّ نفسه به.

كانا يَدُبّان على الأرض ويتشاجران. أمسك لارس بقوة بشعر جدّه، ثم وقف، وجرّه من شعره. شعر مارتن أن لارس عامله بقسوة وردّ عليه بقسوة مماثلة. تظاهر بأنه قد تأذّى ويريد أن ينتقم لنفسه، ركض الصغير هارباً وهو يقهقه. لحقه الجد وركض وراءه في أنحاء الجزيرة؛ حتى تعب من الركض. ولم يكن مارتن يرغب في أن يلعب لارس معه عندما يكون نائماً. وكانت القطة كانورت ما تزال موجودة، وقد هرمت مثل مارتن، وبدأت

(*) خيط صيد طويل ينتهي بشصّ يوضع فيه طعم زائف على شكل سمكة، يسحبه القارب وراءه. (م).

تنام على بطنه عندما ينام. وبينما يقضي قيلولته بعد الغداء، يدخل لارس الغرفة ومعه عصا، ينخس بها القطة أولاً، ثم جدّه.

يقول مارتن: «اللعنة، لقد كبرت جداً على هذا اللعب!»، ثم ينهض ويخرج بحثاً عن شيء ما يستطيع فعله. وطبعاً ليس هناك ما يفعله. فيقوم بتقطيع بعض الحطب الصغير، ويعلّم لارس كيف يفعل ذلك.

ما عادت إنغريد ترغب في تقطيع الحطب، فهي تخبز الخبز المرقود، والخبز المقرمش، تستطيع أن تحلب الأبقار، تفصل القشدة، تمخض الحليب، تصنع الزبد، وتغلي العِلكة، وتصنع الجبن الحلو والمخلّل، وتستطيع أن تحيك، وتسبح. تجيد إنغريد كل شيء تقريباً. فهي تستطيع أن تغسل ريش العيدر، وتجيد ترتيب الشباك، ووضع الطعوم في أشراك الصيد، وتَشفِيَةِ السمك -وهذا عمل الرجال-، ربط الأسماك أزواجاً من أجل التجفيف -وهذا عمل تقوم به النساء عند الضرورة-، وتجمع بيوض طيور النورس، تقطف التوت وتقتلع البطاطس، والغريب في الأمر أن الرجال والنساء يقومون بهذين العملين. لكن الحال في حقل البطاطس كما هي أثناء تقطيع التورف، يعمل هانس واقفاً بينما تعمل النساء جاثيات. ومارتن أيضاً يجثو على ركبتيه عندما لا يكون نائماً على ظهره.

لا يوجد في هذا العالم أحدٌ في الثانية عشرة من عمره ويستطيع أن يفعل أكثر مما تفعله إنغريد. فهي ابنة البحر، التي لا تنظر إلى الأمواج المتكسرة كتهديدٍ أو خطر، بل كطريق وحَلٍّ لمعظم الأشياء. فبعد يومٍ من مغادرة والدها ثانيةً إلى عمله المضني، تقول للارس إنهما ينبغي أن يجدّفا شمالاً إلى ستانغهولمن، إلى توماس وإنغا، ويسألا ما إن كان بالإمكان الحصول على بعض التبغ لجدّهما، الذي كان يتذمّر كثيراً مؤخراً بسبب افتقاده للتبغ والقهوة.

«الذيّ نقودا!»، تقول إنغريد.

لقد حصلتْ على النقود من أمها مقابل وضع الطعوم في خيوط الأشراك، ومقابل تمليح سمك الرنجة الذي باعوه في المركز التجاري، وهي تحتفظ بالنقود منذ ذلك الوقت في صندوقها. يدفعان القارب إلى البحر، الأمر سهلٌ جداً مع وجود الرافعة الجديدة، يرفعان الشراع ويصبحان في منتصف الطريق تقريباً قبل أن تنتبه أمها إليهما وتركض إلى الرصيف. يتظاهران أنهما لا يسمعانها، تبدّد الريح اللطيفة صراخها، وقد اقتربا من ستانغهولمن وصار بوسعهما رؤية المنازل والصخور.

لكن لا يوجد في ستانغهولمن مرفأ طبيعي، فقط شاطئ طويل ضحل، لذلك سيضطرّان إلى الإبحار بين بعض الصخور، وعندما يدوران حول آخر صخرة وينزلان الشراع، يشاهدان توماس واقفاً هناك يصرخ غاضباً، تماماً مثلما صرخت ماريا وراءهما.

«عودا إلى البيت، ألا تريان كم هو الطقس سيّئ!».

يقول توماس وهو يشير إلى السماء، ويهزّ رأسه مغتاظاً.

لن يحصلا على تبغ ولا قهوة، لأنهما لا يصلان إلى الشاطئ أصلاً. لكن إنغريد لا تريد أن تعود خالية الوفاض، علاوة على أنها لا تعتقد أن الطقس سيّئ، ويشاركها لارس الرأي أيضاً.

يرفعان الشراع ثانية ويبحران بين الجزر الصغيرة باتجاه المركز التجاري، وعندما يوشكان على دخول المرفأ تهبّ أول عصفة ريح وتُطيّر الشراع من بين يدي إنغريد وتكاد تقلب القارب بهما. يصرخ لارس وبأعجوبة يتجنّب السقوط من المركب. تدير إنغريد مؤخرة القارب باتجاه الريح، وتُنزل الشراع كلّه تقريباً، ثم توجّه القارب باتجاه بقعة خضراء على الصخور بين المركز التجاري والكنيسة، ولم يكن ذلك المسار خيارها بقدر

ما كان خيار العاصفة الهوجاء والبحر، الذي يزداد اضطراباً، ويسوطهما بمائه كلّما ارتفع المدّ، فتصرخ إنغريد على لارس أن يصعد فوراً إلى مقدمة القارب ويقفز إلى اليابسة ومعه حبل الربط، قبل أن تطيّره الريح.

لا يصطدمان بالصخر، بل بتلك البقعة الخضراء، وينغرز القارب، بتنهيدةٍ رطبة، في تلك الوسادة الطرية من الحشائش والأعشاب البحرية، ويعلق هناك بينما الدفة تتأرجح مثل باب في مهبّ الريح.

يصعدان إلى اليابسة ويحاولان أن يسحبا القارب نحو الشاطئ أكثر. لكن القارب لا يتزحزح من مكانه، وتدرك إنغريد ما الذي سيحدث: سيزداد البحر اضطراباً والمدّ ارتفاعاً، عندئذٍ بالتأكيد وببطء، سيصبح القارب حطاماً، القارب الأعزّ لديهم.

وهي لا تقوى على مشاهدة ذلك.

تصعد الصخرة ساحبةً لارس وراءها باتجاه المركز التجاري. إنهما مبلّلان تماماً، من المطر والبحر، ولا أحد يلاحظ أنهما يبكيان، ولا حتى عندما يدخلان المتجر ويقفان أمام مارغوت التي تقف وراء منضدة المتجر، مارغوت القوية، التي تعرفهما فوراً وتتساءل أيّ جنونٍ جاء بهما إلى هنا في هذا الطقس. وتنذهل عندما تعرف أنهما جاءا بمفردهما.

ويُعوِلُ لارس: «نريد شراء تبغٍ لجدّي مارتن!».

«أيّ نوع من التبغ تريدان؟».

«تبغ لجدّي، تبغ لجدّي...».

يرتبك، ويسيل المخاط من أنفه. تضطرّ إنغريد للتوقّف عن البكاء وتمسح له أنفه. يخلّص نفسه من بين يديها، ويندفع راكضاً إلى خارج المتجر. تركض وراءه وتمسك به حيث يقف فجأة، كما لو أن جسده قد تيبّس، ويبدأ بالارتجاف وأسنانه تصطكّ.

تعيده معها إلى المتجر، حيث يجلسان على صندوق فحم الكوك، ليس لديهما ما يقولان. ولا ما يفعلان. وإنغريد على حافة البكاء ثانية. إنهما على اليابسة، بينما يرغبان أن يكونا في البحر. وتلاحظ أن الريح قد بدأت تخمد فجأة، تخرج من تحت طنف المتجر وتلاحظ أن المطر قد توقّف أيضاً، الجوّ ينجلي في الجنوب، والسماء صافية.

يدخلان المتجر ثانية ويشتريان السكاكر وعلبة عصير، يدفعان ثمنها ويخرجان دون أن يسمعا مارغوت وهي تصيح عليهما. يركضان إلى القارب، فيجدانه طافياً يتمايل في المكان نفسه، ولم يُصِبه أذى. ينزحان الماء منه ثم يبدأان بالتجديف.

وإنغريد لا تستطيع أن تصدّق ما جرى.

يجدّفان في مواجهة أمواج البحر المرتفعة: كلٌّ منهما بمجدافيه. في البدء، يجدّف لارس في تناغم معها، ثم شيئاً فشيئاً بقوة أكبر، لكنه يصرخ بشيء ما، فتعتقد إنغريد أنه يَعدّ، ثم يسرع في التجديف لدرجة أنها لا تستطيع مواكبته. يتجاوزان آخر جزيرة صغيرة. يُصاب لارس بدوار البحر، ويضطرّ أن يتقيّأ ويفقد مجدافاً، ويراقبان المجداف وهو يختفي ويلوّح لهما. تستمر إنغريد في التجديف. يخرّ لارس على ركبتيه، وينطوي على نفسه مثل جنين، ثم يستلقي في الماء وسط القارب ويداه على أذنيه. تجدّف إنغريد وجسدها يغلي والغلالة الحمراء أمام عينيها، يداها ترتجفان وظهرها يحرقها، لكنّها تستمرّ في التجديف ومع كلّ آخر نبضة قوة في جسدها تنتظر آخر عصفة ريح، إشارة إلى أن هذا لن ينجح، لأنه لا يمكن أن ينجح، فالمسافة طويلة، والبحر يمور، والرياح تعصف، والماء من حولهما زبدٌ أبيض، وتعرف أنهما هالكان حتماً عندما يصدم القارب صخرةً بقوّةٍ.

لكنْ لا وجود للصخور هنا.

لقد اصطدما بقارب آخر.

تلتفت وترى القارب الكبير. ماريا وباربرو تجدّفان، والجدّ يقف منتصباً فوق قوس القارب وسط هذا الهيجان الشديد، ووجهه الشاحب يصرخ بصمتٍ، يضع قدماً على حافة القارب، وينتظر، والقارب يهبط، ويعلو، فينتظر قليلاً ثم يقفز مثل شاب إلى منتصف القارب وينتزع المجدافين من بين يديها، ويدفعها إلى أرضية القارب في الفراغ بين مقعدي المجدّفين بالقرب من لارس، فترفع بصرها وتحدّق فيه وهو يدير مجدافاً واحداً مثل رافعة في وجه الموجة التالية ويفتل القارب في مكانه كي يتلقى دفعة قوية من البحر، ثم يجلس على المقعد وينحني على نفسه والمجدافان يتحرّكان عن جانبيه مثل جناحين أسودين في الريح.

- 33 -

عندما استيقظت إنغريد كانت ميّتة؛ ممدّدة على ظهرها في سرير صغير في غرفة فارغة، وشاهدت نوراً في النافذة، إنها الشمس. أجل، إنها الشمس. لكن اللحاف لم يكن من ريش العيدر، بل ثقيلاً كالرصاص، وكان ظهرها يؤلمها، ذراعاها ترتعشان، وعقلها نائمٌ.

نجحت في أن تنقلب على جنبها الأيمن وترى باباً أبيض. غرفة بأرضية وجدران وسقف، كلّها مطليّة باللون الأبيض، وسرير، تستلقي فيه، ونافذة، تحدّق إليها الآن، وباب، تتفحّصه الآن. وتساءلت ما إن كان بالإمكان فتحه، وأين يفضي، وهل بوسعها أن تفتحه، في تلك اللحظة دخل الغرفة البيضاء صوتٌ بعيد، قد يكون صوت ضحكات.

اسمها إنغريد. عمرها اثنا عشر عاماً، شعرها جاف ومُسرّح، لكن غير مضفور، ويحيط برأسها مثل إكليل من الزهور. حبست أنفاسها، ثم زفرت وأغمضت عينيها. ثم فتحتهما ثانية. نور الشمس في النافذة. لا رياح هناك، ولا أصوات، فقط تلك الأصوات البعيدة، أصوات الضحك.

أزاحت اللحاف الثقيل جانباً وجلست. لقد استطاعت أن تحرّك أطرافها، ونجحت في الوقوف على ساقيها غير الراسختين، ثم وقفت أمام النافذة ونظرت إلى الأسفل، إلى ذلك المرج مربع الشكل الذي رعته

الماشية كلّه، ويبدو الآن مثل ورقة خضراء على مفرش طاولة بنّيٍّ. وكان هناك بعض الناس. شخصان مستلقيان متكئان على مرفقيهما. كانا رجلين، إنهما أحياء ويتبادلان أطراف الحديث بهدوءٍ. وهناك شخصان آخران يقفان على مقربة منهما، امرأتان. وكانتا تتحدّثان أيضاً، لكن دون صوت، وصبيّ صغير يركض من بينهما وفي يده عصا طويلة يرسم بها الرقم ثمانية على تلك الصفحة الخضراء. تلتفت الامرأتان وتلاحقانه بنظراتهما، ثم تضحكان منه وتصيحان ببعض الكلمات وراءه.

كانت أصابع إنغريد مثل المخالب.

حاولت أن تبسطها. لقد عرفت هؤلاء الناس، أمها وياربرو، والصبي الصغير لارس. ورجلٌ غريب. ودخلت، الآن أيضاً، امرأة غريبة ساحة الرؤيا. استدارت الامرأتان الأخريان نحوها وابتسمتا لها. ناولتهما فنجانين أبيضين صغيرين، ثم ملأتهما من إبريق في يدها الأخرى، ثم رحن يشربن ويتحدّثن معاً؛ تذكّرت إنغريد ستانغهولمن، وهذا الرجل الغريب هو توماس، المرأة هي زوجته إنغا. لقد كانت إنغريد هنا من قبل، مرّاتٍ قليلة، لكنّهم غالباً ما لوّحوا لبعضهم بعضاً أثناء عبور البحر. وعندما رفعت بصرها قليلاً استطاعت أن ترى بارأوي في مرمى النظر.

كانت إنغريد على الجانب الخطأ من البحر.

السيّئ: هو أنها استطاعت أن تبسط مخالبها وترى أن براجمها كانت حمراء ومسحوجة قليلاً. نظرت إلى الأسفل، إلى ركبتيها البارزتين من تحت حرف تنورتها وإلى الدم الذي يسيل في خيط رفيع من فوق ركبتها وأسفل ساقها، والخيط الآخر أيضاً على الجانب الداخلي من ركبتها الأخرى. فتحت فمها لتصرخ لكنها لم تسمع صوتاً. وهناك في الأسفل فوق تلك الورقة الخضراء تجمّد الجميع في أماكنهم ورفعوا بصرهم إليها، ورأت أمها تفتح فمها، وتغلقه ثانية ثم تبدأ بالركض نحوها.

الجيّد: عادوا جميعاً إلى البيت، ماريا وإنغريد في القارب الرباعي، باربرو ولارس في قارب التجديف، كلٌّ مع مجدافيه. وجلس مارتن على مؤخرة القارب يضحك منهما، ويشير إلى كلّ ما لا يستطيعان فعله بدقّة، وعلى الأخص التجديف. كان البحر هادئاً وحركته كسولة وبطيئة. إنه شهر تشرين الأول. تسابقوا فيمن يصل إلى البيت أولاً. شرحت ماريا لإنغريد مسألة الدم. فهمت إنغريد أنها ينبغي ألّا تجدّف أسرع منها. كسب لارس وباربرو السباق. هلّل لارس للانتصار. كانت الأبقار تخور في الحظيرة، والأغنام مستلقية في حديقة عدن تأكل أوراق البطاطس. من على سقالة التجفيف الأولى نزل نسر، وعن الثانية نسر آخر. لكن الدم ما زال يتدفّق. وعندما التفتت إنغريد، استطاعت أن ترى توماس وإنغا مثل قطعتي شطرنج صغيرتين على الرأس الجنوبي في ستانغهولمن.

«الآن يمكنكِ أن تلوّحي لهما، فيعرفان أننا قد وصلنا إلى البيت»، قالت أم إنغريد وهي تبحر بالقارب إلى داخل السقيفة.

صعدت إنغريد إلى الرصيف ولوّحت لهما، وفكّرت في كلّ ما ينبغي أن تنساه، الرجل الذي جاء وسرق منهم شيئاً لم يفكّروا قطّ في أنهم يمتلكونه. ومن البعيد لوّحا لها بوشاحٍ أخضر. لديهما وشاح أحمر أيضاً، يستخدمانه عندما يحتاجان إلى نجدة. ومن ورائها قالت ماريا إنها يجب أن ترافقها إلى الحظيرة بينما تطهو باربرو طعام الغداء.

وسألتها أيضاً: «ما هذا الذي في القارب؟».

كتلة رمادية في الوشاح على أرضية القارب. تلك كانت قطع السكاكر. لكن علبة العصير بقيت سليمة. رفعتها إنغريد، ووزنتها بين يديها، وعرفت كم كان مهمّاً، وزن العلبة، أنها لم تتأذَّ، حملتها وصعدت بها إلى البيت.

- 34 -

نيللي تزور بارأوي. إنه عيد الفصح، يوم الجمعة الحزينة البطيء، والبحر في حالة جَزرٍ، الوقت القصير من السنة الذي تظهر فيه الجزيرة في أكبر حجم لها، عندئذٍ بوسعهم أن يمشوا على الرمال البيضاء كالثلج حول كلّ المملكة، ما عدا المنطقة تحت هامر والرصيف الجديد، فالماء هناك عميق دوماً، وهناك يغطس لارس دوماً، بينما لا يفعل الآخرون ذلك. لكن ذات يوم سبحت إنغريد حول الجزيرة كلّها، عندما كان المدّ عالياً والجزيرة في أصغر حجم لها، في منتصف صيف فاق كلّ فصول الصيف الأخرى حرّاً.

اليوم تمشي حول الجزيرة هي ونيللي، التي جاءت إلى بارأوي لأن أمها تزور أقاربها. لكنها لا تقول أي شيء عن أبيها، ولا عن أشقائها.

تسأل نيللي أسئلة لم تُطرح من قبل في بارأوي: لماذا لا يوجد أقفال في أبوابكم؟ من هو والد لارس؟ لماذا ليس لديك أشقاء؟ ماذا يقول جدّك عن ذلك؟

تعرف إنغريد الأسئلة التي ينبغي ألّا تطرحها على أمها. لكن السؤال الأهم الذي تفكّر به ملياً، ولا يفارقها أبداً، هو لماذا هي وحيدة دون

أشقاء، بينما الأطفال على الجزر الأخرى لديهم تسعة أو حتى ثلاثة عشر شقيقاً وشقيقة؟ ونيللي لديها ستة إخوة، وفي ستانغهولمن ربّى توماس وإنغا خمسة صبيان وثلاث بنات، غادروا الواحد بعد الآخر بعد أن أنهوا دراستهم ولا يأتون إلى الجزيرة إلا للمساعدة في ذروة المواسم الصيفية، ما عدا ذلك فإن توماس وإنغا وحيدان في الجزيرة، ولم تعهدهما إنغريد إلا وحيدين.

لكن لديهما وشاحان أيضاً للتلويح بهما، وشاح أخضر، ووشاح أحمر.

لدى نيللي العديد من الانتقادات لبارأوي: أولها أنهم العائلة الوحيدة على الجزيرة، بينما توجد أربع عائلات في جزيرتها لاوأوي. ثم لا توجد كلاب هنا؟ والبيوت غير مطلية. وبيت نيللي غير مطلي أيضاً، غير أن هناك بناء مطلياً باللون الأحمر، ليس ملكهم، حظيرة جيرانهم، وهو البناء الوحيد الذي يمكنهم رؤيته من المدرسة في هافستاين، والذي يمكن أن تشير إليه نيللي.

نيللي لا تحب سمك البولاك المسلوق، ولا كبد السمك أيضاً. لكن من الواضح أنها تبالغ، لأنها تأكل بنهمٍ مثل لارس. وهي تحب الكثير من طعامهم، سواء اعترفت بذلك أم لا: كعك القرفة مع الزبد، مربّى الراواند من العام الماضي، الحليب الطازج، والخبز المقرمش، كما تحب لحاف العيدر الذي تلتحفه عندما تنام بجوار إنغريد في الصالة الشمالية، فهم لا يملكون لحف العيدر في لاوأوي. وهي سعيدة جداً بكرسيّها، الذي تجلس عليه لتناول الطعام، وهو كرسي هانس الموجود طبعاً في لوفوتن، فتجلس إلى رأس طاولة الطعام مثل ملكة، ومن الواضح أنها لم تجلس غالباً إلى الطاولة في لاوأوي، وتنظر إلى مارتن على الطرف الآخر من الطاولة. وهي سعيدة أيضاً بالتنزّه حول الجزيرة أثناء الجزر، وكأنها تسير

على حواف قبعة، وتجمع بيوض النورس في سلّة شبك صغيرة، وهذا عمل لا يمكن أن تقوم به في كلّ الجزر.

رغم أن نيللي بارعة في العمل، تقول ماريا إنّه ينبغي أن تستمتعا بوقتهما وتفعلا ما يحلو لهما، وهذا أمرٌ مفاجئ بالنسبة لإنغريد أيضاً.

لقد ضفرت شعرها الذي يتأرجح بين كتفيها مثل حبلٍ، عندما تركضان فوق الكثبان الرملية هاربتين من لارس الذي يطاردهما بعد أن أغاظتاه. ولارس صبي قوي، قصير القامة، ممتلئ الجسم وحامي الطبع. تقذفانه بالبيض، فيسيل صفاره، المتوهّج مثل العسل، فوق وجهه الغاضب. تحب إنغريد أن تكون شريرة. ولارس أحمق بما يكفي كي يمسح وجهه بأوراق الخلنج اليابس، فيبدو مثل يحمور(*) عندما يعود إلى البيت. تُوَبَّخ إنغريد كما لم تُوَبّخ من قبل، على هدرها البيض الثمين. وتنال نيللي توبيخاً مماثلاً. غير أن لارس ينتقم لنفسه ويلكم إنغريد بقوة على وجهها، وتضطر ماريا إلى وضع قطعتين من القماش في منخريها لوقف نزيف الدم.

ويواجه مارتن بعض المتاعب أيضاً، مثلما يحدث عندما لا يستطيع أن ينام، ويبدأ في الدوران وهو يشعر أنه غريب في عالمه، عندما يبدأ لارس بالركض وراء البنتين.

علاوةً على ذلك، يغضب ويغمغم، وهذا ما يجعل نيللي تسأل عما يقوله، وهذا أيضاً سؤال لا جواب له، حتى عندما تفهم إنغريد كلّ ما يقوله، وكلّ ما لا يقوله أيضاً.

وماذا عن حقيقة أن ليس لديها أشقاء؟

في البداية تقول نيللي إنها تشتاق لبيتها. لكن مع اقتراب يوم عودتها، تبدأ بالنحيب، وتشهق وتزفر الهواء من أنفها بسرعة وقوة. تأخذ ماريا

(*) حيوان صغير الحجم من فصيلة الأيائل. (م).

نيللي إلى الحظيرة لتحدّثها على انفراد، وتطلب من باربرو وإنغريد ألا تلحقا بهما. وعندما تخرجان تكون نيللي مثلما جاءت أول يوم، رغم أنها غير راغبة في العودة إلى بيتها، لأنها ترغب في أن تعيش بقية حياتها في بارأوي، وأن بارأوي هي أجمل مكان عرفته.

يسألها مارتن، على طاولة الطعام، ما إن كانت قد زارت أماكن عديدة.

تقول نيللي إنها تعرف مكانين: هافستاين ولاوأوي، وقد ذهبت مرّة واحدة مع أبيها إلى المركز التجاري، غير أنهم يبيعون مواسمهم في مركز آخر، في أوسفاريت، لكنها لم تذهب إلى هناك قط.

يضحك مارتن. وتضحك نيللي أيضاً. يسألها عن اسم جدّها، ويتبيّن أنهما قد خرجا معاً في فريق صيدٍ مرّاتٍ عديدةً، في ترانا. وبناءً عليه، يسألها أسئلة أخرى، تفهمها نيللي وتجيب عنها.

ثم يسألها لارس كم شقيقاً لديها؟

تعدّد له كلّ أسماء المجموعة المثيرة للإعجاب، فيطرح لارس سؤالاً آخر، على باربرو: «لماذا ليس لديه أشقاء؟».

يخيّم الصمت.

ينظر لارس إلى إنغريد، ثم إلى ماريا، وتتوقّف عيناه هناك، بينما هو غارق في التفكير بقوة لدرجة أنهم يسمعون صرير أسنانه، قبل أن يفتح فمه في اللحظة التي ينهض فيها مارتن ويقول إنه ينبغي أن يخرج ويلقي نظرة على العجل الذي مرض في الأمس، ويعاني من ألم في معدته، وتسأل إنغريد لارس ما إن كان يريد بيضةً أخرى على وجهه.

يضحك الجميع من السؤال، باستثناء لارس.

ينهض ويلحق بجدّه.

بعد أن تستلقيا في السرير، تسمع إنغريد نيللي وهي تنتحب في نومها

وتغمغم بكلمات لم تستطع أن تفهمها. لكنها تشعر في أعماقها بالامتنان لأنها استطاعت أن تسمع النحيب اللاواعي لشخص لا يريد أن يغادر بارأوي أبداً، الشخص الذي اعتاد أن يضفر لها شعرها عندما يتدلّى حتى خصرها.

تجذّف بهما ماريا وباربرو ثانيةً.

تجلس إنغريد بثيابها الجميلة، وأنفها يؤلمها، بجانب نيللي وتنظر إلى جدها ولارس واقفَين هناك على هامر، رجل عجوز وصبي صغير في جزيرتها، التي تصغر كلّما أوغل القارب في البحر، بينما نيللي تنشج وتشهق دون أن تحاول إخفاء دموعها، كما لو أنها تستطيع أخيراً أن تبكي من أعماق قلبها دون أن تفوّت على نفسها فرصة تعويض ما فاتها من بكاء. عندما يصلن إلى هافستاين، تكون نيللي هادئة وشاحبة اللون. تصعد إنغريد ونيللي باتجاه المزرعة، ثم تستديران لتلوّحا لماريا وباربرو اللتان قد أصبحتا الآن خارج الميناء. ترفع باربرو المجداف عالياً وتلوّح لهما به. تنتمي إنغريد إلى كلا المكانين هنا وهناك. إنها طفلة عاطفية. وسعيدة جداً.

- 35 -

سينقضي أكثر من عام قبل أن تسنح الفرصة لإنغريد في الحصول على جواب لسؤالها عن الأشقاء، فهذا النوع من الأسئلة لا يموت أبداً.

إنه الصيف الأكثر قيظاً في ذاكرة المعمّرين، قيظٌ قاتل. عصيدة من الضباب تشوي السماء والبحر، وتُخَيّم فوق رؤوس أهل الجزيرة على مدار اليوم، وتجعل العشب قصيراً وبنّي اللون. تُذبِلُ أوراق البطاطس، والحيوانات والبشر يتعرّقون ويلهثون. يمشي أهل الجزيرة نصف عراة وسط أسراب الذباب في جزيرة استوائية في الدائرة القطبية الشمالية.

ينقل هانس الفرن إلى السقيفة السويدية على الرصيف، لأنه ما عاد بوسعهم أن يطبخوا داخل البيت. ينامون والنوافذ والأبواب مفتوحة، ويستحمّون كلّ يوم في البحر. ومارتن العجوز يستحمّ أيضاً، ويخوض في البحر مع هانس وباربرو، بينما لارس يغطس من الرصيف، وتسبح ماريا وإنغريد إلى مولتهولمن وتستلقيان على الصخرة في الشمس، وتغمضان عيونهما ولا تفكّران في شيء قبل أن تسبحا عائدتين.

بارأوي جَنّة.

لكن، مع بداية شهر تموز يفرغ الخزّان الجديد من الماء. كما تجفّ

البُركُ في مستنقع التورف أيضاً، الواحدة بعد الأخرى، وبعدئذٍ تجفّ البرك الصخرية الكبيرة في سكوغهولمن ويصبح الوضع سخيفاً. وبما أنه لا توجد رياح، يضطرّ هانس ومارتن إلى التجديف إلى المركز التجاري بالدلاء وممخضات اللبن. غير أن الماء قد نفد هناك أيضاً. يضطرّان للذهاب إلى الجداول التي تملؤها مياه الجبال في مالفيكا، وكم كان رائعاً لو أنهما فازا ببعض الرياح في الأشرعة، هنا حيث لم يكن يوجد سوى الرياح دوماً.

يقومان برحلتين في اليوم، بعدئذٍ تعلن آلام الظهر أن نهارهما قد انتهى ولم يعد بوسعهما المزيد. لا يشرب الناس كفايتهم من الماء، لكنهم يشربون أكثر من المعتاد، ولا تحصل الحيوانات أيضاً على حاجتها من الماء.

وتختفي آخر بقع الثلج على الجبال، وتجفّ جداول مالفيكا، وتكفّ النوارس عن الطيران، إلا عندما يطاردها لارس، فتطير متكاسلة وتغطّ ثانيةً في البحر الراكد الذي أصبح صحراء.

يناقش هانس ماريا، بصوتٍ خفيض، فيما إذا كان ينبغي أن يذبحوا بعض الحيوانات؟

فتقول ماريا مراوغةً إنّ هذا أمر يُسأَل فيه الرجال، وإن هذه مسؤوليته أيضاً. وبدافعٍ يائس، يزوّدهم بفؤوس ومجارف، إذ ينبغي أن يبدؤوا الحفر في قعر البئر القديم في المستنقع، وهذا أيضاً قد جفّ.

هانس ومارتن في أسفل حفرة سوداء يشتمان ويقاتلان الذباب وذباب الماشية، بينما يرفع الآخرون دلاءً، الواحد بعد الآخر، مليئةً بتربة حمراء صدئة ويوزّعونها على الحفر في المروج والحقول. يُخلقون من التراب، ويوثَقون إليه برابطة لا تنفصم عراها أبداً، وهذا التراب لا يوجد الآن تحت

أظافر أيديهم وأقدامهم فقط، بل أيضاً في مسامات أجسامهم، وأفكارهم، في آذانهم، في شعرهم وعيونهم، حتى إنه قد غزا تلك المنطقة وسط الظهر بين لوحي الكتفين حيث لا تستطيع أيديهم الغاضبة أن تصلها في معركتها الهيستيرية مع الذباب وذباب الخيل.

لكن بوسعهم أن يستحمّوا في البحر الدافئ لأول مرّة، وتطلق أجسامهم غيوماً بنية، يسبحون خارجين منها بيضاً وقد وُلدوا من جديد، ويلحسون الملح عن شفاههم قبل أن يعودوا لمتابعة الحفر في البئر. حتى الجُزُر ينبغي أن يكون فيها مياه جوفية، طبعاً لا تطفو مثل سفينة، بل ترسو عميقاً في باطن الأرض، لقد قال هانس هذا من قبل، ولا بدّ من وجود الماء، هناك، في الأسفل.

لقد دخل حياته نوعٌ من اليأس، والقلق مكتوبٌ على بياض عينيه، هذا خطير، خطرٌ غريب جداً ومن غير الممكن التنبّؤ به. متى كان هناك مثل هذا الصيف؟

هل هذا ما قضى على الحضارة في كارفيكا؟

الجفاف؟

هناك؟

عصر أحد الأيام يسمعون صرخة لارس العميقة من أسفل البئر، وعندما يسحبون الدلو التالي يجدونه مليئاً بالطين، الحمأة الرطبة.

إن كان التراب يغطّي جسديهما من قبل، فقد اختلف الوضع تماماً الآن. يخلع هانس ولارس ثيابهما ويعملان عاريين، في أسفل البئر، مثل وَقّادين في مشهد من الكتاب المقدّس، ويتردّد صدى لعناتهما الرطبة، وعندما يصعدون السُلّم من أجل قسط من الراحة، لا يستطيع الآخرون التمييز بينهما إلا من فارق الطول.

«كيف تسير الأمور في الأسفل؟!».

«جيّدة!».

بعد أن يستحمّا ويعودا نظيفين، يتوقّف هانس وسط المرج ويقول: «هُسْ!»، ثم يضع يداً خلف أذنه، لقد سمع شيئاً، صوت ماءٍ. ويجري ماء عينيه أيضاً، فيشيح الآخرون وجوههم. يبدأ بالركض، فيركضون خلفه، وينبطحون جميعاً على الأرض متحلّقين حول فوهة البئر في الجزيرة ويحدّقون إلى الأسفل إلى عينٍ جهنّمية تحدّق إليهم من الأسفل، لا أحد منهم ينبس بحرفٍ.

تنبعث من الماء رائحة الضراط والوحل والنفط، لكن ليس فيها انعكاس قوس قزح. يأمر هانس بإحضار قطعة من ملاءة سرير قديمة لاستخدامها كمصفاة على فوهة البراميل والدلاء. يستطيعون رؤية قعر الدلو الأول. فيعطون ماءه للأبقار التي تجمّعت حولهم لاهثة. الماء أكثر صفاءً في الدلو الثاني، حتى صوت تنقيط الماء عبر الملاءة أصبح أقوى، وأوضح، مثل تدفّق جدول. في الصباح التالي ينشغلون في إعداد وسيلة رفع فوق فوهة البئر، خيمة بخمسة أعمدة من الخشب مع عتلة وحبال تُربَط في نهايتها قطعةٌ من الخشب يستطيع أن يجلس عليها لارس. يُنزلونه إلى قعر البئر بمنتهى الحذر، يغرف من البئر دلواً إثر الآخر، وهم يرفعونه إلى الأعلى ويعطون الماء للحيوانات التي تجمّعت حولهم تئنّ وتخور، والخراف أيضاً تجمّعت حولهم، هلعةً ومرتاحة في الوقت نفسه. بوسعهم استخدام هذا الماء لصنع القهوة. وبحلول المساء، بوسعهم أن يشربوه أيضاً دون تصفية، فهو بارد جداً وعديم الطعم.

في الليلة ذاتها سَقوا حقل البطاطس. في الصباح التالي كانت التربة جافة كما لو أنها لم تُسقَ، لكن الأعشاب كانت الآن منتصبة. يُنزلون لارس

ويرفعونه، وهو يغرف الماء دلواً بعد الآخر، وقاموا بريّ حقل البطاطس طيلة النهار، وفي الليلة التالية أيضاً، تلألأ الماء في الأخاديد المغبرّة ثم تبخّر، لكن العشب نما وأصبح أقوى عوداً. ومضى أسبوع على هذا المنوال.

ثم جاء المطر.

وانتابهم شعورٌ بأنهم عاشوا أسبوعاً لا مثيل له، سبعة أيام مقدّسة منذ أن وجدوا الماء تحت أقدامهم إلى أن انفتحت السماء عليهم من الأعلى. أيام رغيدة ويائسة، كانت الدليل الحاسم على أنهم هم أنفسهم يتحكّمون بمصائرهم. فمنذ بداية حزيران حتى نهاية تموز، كانت الجزيرة بنّية كما لو أنها في تشرين الأول. والآن هي خضراء أكثر من أي وقت مضى، حتى الحديقة الوردية ما عادت وردية. ثم جاء المطر والشمس على التناوب، ورغم ذلك فقد كان حصاد التبن ضئيلاً. كما كان الحصاد في الجزر ضئيلاً أيضاً، غير أن ذبح الحيوانات قبل عيد الميلاد أفضل بكثير من ذبحها في منتصف الصيف. وعصر أحد الأيام بينما كانت إنغريد مستلقية على ظهرها بالقرب من أمها على مرجٍ جديد في حديقة الجرب، أدركت أنهم قد نجوا من الجفاف، وأنه بالإمكان طرح ذلك السؤال الحاسم، بمنتهى الحرية، وهو لماذا ليس لديها أشقاء؟

رفعت ماريا جذعها واستندت على مرفقيها، وقالت إن الأطفال ليسوا أشياء يملكها الإنسان، إنما هي هبةٌ تُعطى له. فسألتها إنغريد لماذا يُمنح البعض فقط، على الرغم من أن شيئاً غامضاً قال لها إن عليها أن تصمت.

تسألها أمها بنبرة حادّة: «هل هناك ما تفتقدينه؟!». تتدارك الأمر فوراً وتسألها بهدوء ما إن كانت تذكر كيف بكت نيللي، في العام الماضي، يوم عودتها إلى بيتها، وأنها لم تبكِ لأن أحداً في بارأوي قد أغاظها بتهكّمه من

تأتأتها، ولا حتى لارس، وكان على نيللي أن تشكر ماريا على ذلك، ولم تفهم إنغريد شيئاً.

نظرت إنغريد إلى ماريا بحيرة.

«هي لديها إخوة وأخوات»، قالت ماريا مشدّدة على كلّ كلمة. وأرادت إنغريد أن تسألها ماذا قصدت، وكأنها أرادت سماع ذلك ثانية، أن الوحدة تنطوي على نعمة، غير أن ظلّاً عبَرَ وجهها، إنه ظلّ لارس، الذي كان يقترب منهما بهدوء وقد حجب الشمس عنهما. تستوي ماريا في جلستها وتسأله أين جدّه.

«إنه في قيلولة»، قال لارس.

كان يلبس سروالاً كبيراً، قصّت له باربرو ساقيه، ورفعته له بحمّالتين صنعتهما من حبال الشباك، هكذا كان يمضي نهاره، حافي القدمين، نصف عارٍ ومتوحّش، له جسد بالغ رغم أنه في السابعة من العمر وسيبدأ المدرسة قريباً.

«أين هو؟».

«هناك»، قال لارس وأشار إلى جهة جعلتها تستطلع جزءاً من الجزيرة لم يرتده مارتن من قبل أبداً، لا أحد يذهب إلى هناك، كارفيكا والأطلال. لكنها لم ترَ ما كانت تبحث عنه، فنهضت، نفضت العشب عن تنورتها، وانطلقت تبحث، حتى أفلتت من فمها صرخة صغيرة، ثم بدأت تركض، وإنغريد ولارس يحدّقان إليها مرتبكين.

- 36 -

أراد مارتن، الرجل الذي لم يحظَ أبداً بما يكفيه من أشعة الشمس، أن يُقيّل في الظلّ، وبدا أنه قد نام كعادته، مع فارق وحيد وهو أن القطة كارنوت لم تكن نائمة على بطنه.

استدارت ماريا ومنعت الصغيرين من الاقتراب، ونظرت إلى زوجها الذي كان قد ترك منجله وجاء يمشي بهدوء، ومن البيت أيضاً نزلت باربرو، غير عارفة بما ينتظرها، لقد جاءا كما لو أنهما تلقّيا إشارة.

جلس هانس القرفصاء بجانب والده، ثم وضع يده على خدّه. لاذ الجميع بالصمت. نهض هانس، شدّ قامته، ثم نظر إلى لارس وطلب منه أن يرافقه إلى الرصيف الجديد ليحضرا شيئاً. سمعتهما إنغريد يتحدّثان، وكان لارس متحمّساً، ووالدها يشرح له شيئاً، لكنها لم تستطع أن تعرف ما هو.

عادا ومعهما السُلّم الذي استخدموه عندما كانوا يبنون خزّان الماء، واثنين من الفرش التي كان ينام عليه العمّال السويديون. وضع هانس الفراش الأول على السلّم. ثم رفع هو وباربرو مارتن وسجّياه عليه، ووضع الفراش الثاني فوقه، ثم حملا السلّم وسارا به إلى سقيفة القارب

الجديدة، ووضعاه على البكرات التي يستقر فوقها القارب الرباعي عادة. بعدئذٍ أغلقا بابَي السقيفة وسدّا الفتحة في الجهة المقابلة كي لا تستطيع الطيور الوصول إليه.

في الصباح التالي غادروا إلى البرّ الرئيسي بقاربين. باربرو وهانس جدّفا بالقارب الكبير. ماريا وإنغريد جلستا على مؤخرة القارب، وجلس لارس في المقدّمة، وهو يبكي. في القارب الثاني، الذي سحبوه وراءهم، وضعوا السُلّم المُسجّى عليه جثمان مارتن، وكان الجوّ ساكناً تماماً.

توقّفوا بجانب الرصيف الصغير تحت المركز التجاري. صعد هانس ثم عاد برفقة القسّ يوهانس ماليبرغيت، الذي احتاج إلى مساعدة كي ينزل السلّم شديد الانحدار. صافحهم جميعاً وقال لهم عبارات المواساة التي طالما كرّرها دون أن تفقد صدقها ومفعولها. وكانت باخرة الجليد قد أفرغت شحنتها للتوّ، وهكذا يستطيعون حفظ الجثمان في مخزن التبريد.

«هل أحضرتم له ثياباً؟».

بالطبع، فقد جلبوا معهم أفضل ثياب مارتن، ثياب يوم الأحد.

«وماذا عن النعش؟».

بالطبع، لديهم النقود المطلوبة.

حمل هانس وباربرو السلّم المسجّى عليه والدهما من القارب وصعدا الدرج، ومن ثم إلى مخزن التبريد حيث وضعاه فوق دكّتين بين أكوام من قطع الجليد الكبيرة، التي تغطيها نشارة الخشب، والتي اقتُطعت من بحيرة جليدية في الشتاء الماضي، ونجت من هذا الصيف الأكثر قيظاً في ذاكرة الناس جميعاً. كانت الغرفة باردة جداً وهادئة لدرجة أنه كان بوسعهم سماع صوت نقط الماء التي تنفصل عن كتل الجليد وتطرق أرضية الغرفة.

خرجوا ثانيةً إلى الرصيف، حيث تجمهرت حفنةٌ من الناس تحت أشعة

الشمس. تقدّم أحد عمّال المركز التجاري وصافح هانس مواسياً، وقال له بضع كلمات ما كان ينبغي أن يقولها. وصافح باربرو أيضاً. بعد أن ناقشوا أمور الجنازة، طلب القس ماليبرغيت إعفاءَه من نزول الدرج لوداعهم. قبل هانس اعتذاره وهوّن عليه الأمر. صافحوه مودّعين ونزلوا الدرج، ثم ركبوا القارب وجذّفوا عائدين إلى البيت، ساحبين وراءهم القارب الثاني.

القطة كارنوت ولارس بكيا أكثر الجميع. كان لارس يعول ويحطّم كلّ ما تطوله يداه. سكن الوجوم وجه هانس. وكانت باربرو تبكي عندما تعتقد أن لا أحد يراها. وأصبح وجه ماريا جامداً ورمادياً مثلما كان عندما اعتقدت أن حيواناتهم ستنفق من العطش. واكتشفت إنغريد أن بعض الحزن أصدق من بعض، وحزنها هي فوق حزن الجميع. كانت تخرج إلى هامر بالقرب من الرصيف الجديد على أمل أن يداً كبيرة ستسحبها إلى البحر، وتبقيها تحت الماء حتى تموت، لأنها لا تملك القوة على رمي نفسها في الماء، كما أنها لا تستطيع أن تتناثر على اليابسة رغم أنها تبكي من أعماقها، إلى أن جاءت ماريا وسحبتها عن حافة الرصيف وطلبت منها أن تستجمع قواها، ربما الآن فقط فهمت ما الذي فعلته عندما جذّفت هي ولارس في القارب، لقد كان مارتن عجوزاً، الصغار يبقون صغاراً، وهناك بونٌ شاسع.

انطوت إنغريد على نفسها، صارت أفعى التفّت على بعضها، وأصبحت عقدة صلبة لا صوت لها. سمحت لها أمها أن تشاركها السرير في الصالة الشمالية، بينما كان أبوها وحده في الصالة الجنوبية، وقبل أن تغفو عاودها ذلك الإحساس القديم الحارق في معدتها، الإحساس الذي بدأ عندما تساءلت أول مرة ما إذا كانت تستطيع أن تثق في أمها أم في أبيها، أم في أي شخص على الإطلاق.

في يوم الجنازة، رسا قارب العم إرلينغ بجانب الرصيف الجديد. كان القارب مليئاً بأفراد العائلة التي سمعت إنغريد كثيراً عنهم، وعرفت القليل منهم، عمّاتها الأربع، وأزواجهن، خالاتها الثلاث الصغيرات، مع زوجين، العم إرلينغ وزوجته هيلغا ووالدها العجوز، وباقي الإخوة والأخوات الخمسة عشر من مختلف الأعمار، الذين جُمعوا من جزر كبيرة وصغيرة خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، وقد جاؤوا إلى بارأوي ليأخذوا بقية العائلة.

صعدوا إلى القارب وصافحوا المصطفّين عن اليسار واليمين دون أن ينبسوا بكلمة واحدة، ثم خيّم صمتٌ مطبق على ذلك القارب المتجه إلى المركز التجاري في هذا النهار المشمس.

حصلوا على المعبر الذي طلبوه للنزول، لكنهم انتظروا قليلاً، وشاهدوا سفينة وهي ترسو بشكل آمن، قبل أن يتحرّكوا جميعاً فوق المعبر وكأنهم يؤدّون رقصة غير مستقرة، ثم ساروا باتجاه المركز التجاري والقرية، ومن ثم إلى الأبرشية، الأكثر عرضةً للرياح في كلّ مملكة الرعب الربانية، بثيابهم السوداء البرّاقة، ساروا في موكب بطيء إلى الأبرشية، حيث جرى إعداد كل ما يلزم، على أكمل وجه، تحت إشراف القس يوهانس الذي كان بانتظارهم هناك هو وزوجته الجميلة وولداهما الصغيران، إضافةً إلى توماس وإنغا، اللذين جاءا من ستانغهولمن، بقاربهما كالمعتاد، والعديد من سكّان الجزر الأخرى، لم تجد إنغريد نفسها وسط هذا العدد الكبير من الناس من قبل، وجميعهم يحنون رؤوسهم احتراماً لكلمات مالبيرغيت المختارة بعناية حول الثلاثة وأربعين شتاءً التي قضاها مارتن في قارب مفتوح وسط البحر في ترانا، وهذا ما جعل يديه خشنتين دوماً. في مثل حياته من نعمة الله عليه أن يُدفن جثمانه في الأرض، رغم أن البحر جنّة

أيضاً، ينبغي ألّا تعمى بصيرتنا عن هذه الحقيقة أبداً، لا سيّما هنا في هذا المكان، ولنتذكّرْ أن هذا العجوز قد مات بسلام هنا حيث أحبّ أن يموت، مارتن كونراد هانسن بارأوي، مات في جزيرته، أخيراً استراح هنا بجوار رصيفه العزيز على قلبه، وأخيراً أثمر شوقه الشديد إلى زوجته التي رحلت قبل أوانها، وهكذا ينبغي أن ننظر إلى الأمر ونحن واقفون هنا بشفاهٍ ترتجف وعيون طافحة بالدموع! تنهّد يوهانس مالبيرغيت، وجفّف العرق عن جبينه بمنديلٍ أحمر قبل أن يرفع بصره إلى الجبال الصخرية، ثم يعطي القندلفت الإشارة لإنزال النعش في ما بدا لعيني إنغريد مخيفاً مثل فوهة البئر الذي حفروه قبل قرابة شهر في بارأوي، آمين، ولا يُطاق.

في طريق العودة إلى البيت تذكّر هانس أمراً، فأخذ دفة القيادة من أخيه، وعاد بالقارب لجلب السُلّم والفراشين من على الرصيف أمام مخزن التبريد، لقد كان السُلّم جيداً كما لو أنه جديد.

كانت إنغريد عاجزة عن الكلام.

ليس لأنها تكلّمت كثيراً في ذلك النهار. بل لأنه جرى تقويض كلمات القسّ بسبب التغيّر الملحوظ في مزاج الناس على السفينة، بينما كان يُفترض أن يسود هدوء المقبرة الأبدي، ورغم أن الرياح الصاخبة قد كتمت أنفاسها، كانت الضحكات المجلجلة تخترق الأبواب المغلقة، وبجوار درابزين نافذة السفينة كانت إحدى خالات إنغريد تحتضن ماريا، التي تضع يدها على فمها كي توقف ضحكتها أيضاً. ومعظم الأطفال يتراكضون على سطح السفينة، دون أن يمنعهم أحد. وعبر زجاج نافذة قمرة القيادة شاهدت إنغريد زجاجة كحول تقف متوازنة على البوصلة، الشيء الوحيد العمودي في هذا الموج الثقيل، وخمس كؤوس خضراء تُمرّر من يدٍ إلى أخرى بين أبيها وأصحابه.

رسا القارب في بارأوي. فُتح باب المخزن ونُقلت صناديقُ من الطعام والمشروب إلى الجزيرة، وكذلك البسط والملابس. واندفع حشدٌ من الناس الغرباء في أرجاء الجزيرة يعيدون اكتشاف كلّ ركنٍ وزاوية منسيّين.

«هل تذكر مصدّات الرياح الشمالية؟!».

«تلك الرمال البيضاء!».

الصخور، المروج، الكهوف... لم يكن في هذه الأرض الصغيرة شبرٌ لا يعرفه هؤلاء الغرباء مثل ظاهر كفّهم، وكانوا سعداء برؤيته من جديد. لم تعد إنغريد ابنة هذه الأرض، رغم كلّ معرفتها بكنوزها وأسرارها، بل زائرة مذهولة بحياة الآخرين فيها، كما كانوا في السابق وكما سيظلّون دوماً، لأنه لا يمكن محو الطفولة.

جلست إحدى عمّات إنغريد على ركبتها وراحت تزيل الأعشاب التي نمت فوق عشٍّ من أعشاش طيور العيدر الذي لم تره إنغريد من قبل، ثم وجدت عشّاً آخر، لم تعلم إنغريد بوجوده أيضاً، فنظّفته وكانت بحاجة إلى بعض الأحجار الإردوازية لترميمه، فدلّت إنغريد من أين يمكن أن تأتي بها. لم يحتج الضيوف إلى من يدلّهم على أماكن الأشياء في الجزيرة، فقد كانوا يعرفون أين توجد طيور العيدر، وأين هي مناطق الصيد، وأين تعشّش النسور، ويعرفون رفوف مخزن الطعام وأدراجه. حتى الأولاد، الذين لم يكونوا هنا من قبل، كان لديهم نزعة حثيثة للتصرّف كأنهم أبناء هذا المكان، فدخلوا سقيفة القارب، وسقيفة الرصيف وعاثوا فيها فوضى، حتى إن اثنين منهم أنزلا قارباً إلى البحر، دون استئذان، وانضمّ إليهما لارس الذي بدأ يصرخ ويشير في هذا الاتجاه وذاك، ونسيَ أيّ يومٍ كان ذلك اليوم، أفضل أيام حياته، بينما وقفت الفتيات على اليابسة مثل خيامٍ سود صغيرة ولم يرغبن في الانضمام إليهم، بقين هناك وكنّ يتصرفن كأنهن شقيقات، ربما

لأنهن يعشن في جزر أقرب إلى بعضها من جزيرة إنغريد، ذلك أن بارأوي هي الأبعد عن جزرهن جميعاً.

وقفت أمامها فتاةٌ من عمرها، ونظرت إليها بعينين حزينتين من تحت حاجبين كثيفين وداكنين، وقالت شيئاً، ضاع في رنين ضحك ماريا وابنة حماها اللتين كانتا تفرغان غرفة الجدّ، لتنظيفها والتخلّص من كلّ أثرٍ له فيها.

«أنت إنغريد إذاً؟!».

أومأت إنغريد برأسها، فقد كان من السابق لأوانه قول أيّ شيء.

«أنا جوزفين، من جوسفاريت».

أومأت إنغريد برأسها ثانيةً، وشاهدت القطة كارنوت تمشي بين أرجل الغريبات بعد أن طُردت من مكانها، الذي رفضت أن تغادره منذ وفاة مارتن، والآن تتجه نحو سقيفة القارب، ويبدو أنها تخطّط للقفز في الماء.

على الشاطئ، أشعل أبوها وعمّها إرلينغ ناراً كبيرة. وأُلقِيَت البسط القديمة فيها. وجاءت إحدى عمّاتها بكومةٍ من ثياب مارتن القديمة، ومن بعدها جاءت أمها بملاءات سرير الجدّ، وتطاير الشرر إلى السماء في هذا اليوم التمّوزي الأصفر، ثم جاءت باربرو بفراش مارتن المحشو بالتبن، لقد أصبحت الآن الأخت الصغيرة القوية بين سبعة أشقاء، تُعانق، وتُدلّل، وتُستفزّ، كانت مشرقة مثل الشمس، وجرى تمشيط شعرها بأساليب مختلفة وهي جالسة في كرسيّها في الهواء الطلق مثل ملكة. والآن لم تعد تجلس وحدها أيضاً، فكلّ الكراسي كانت في الخارج، وطاولتا المطبخ وغرفة الجلوس، وكان عليهما القهوة والطعام والكعك والمشروبات الروحية، ومن لم يجدوا كراسيّ جلسوا على بسطٍ فوق الأرض أو على العشب، وأكلوا وشربوا يلفّهم ضجيج الأصوات والضحك وكلّ ما يرتبط بالحياة لا بالموت.

كانت إنغريد ترغب في الذهاب إلى هامر علَّ البحر يكنسها. لكنها لم تستطع أن تهرب من نظرات ابنة عمّها جوزفين. وقد شعرت الآن بعضلات وجهها تتقلّص على شكل ابتسامة لا إرادية عندما سقط أحد أعمامها على وجهه وسط تصفيق الجميع وضحكهم. وطفرت بعض الدموع من عينيها، لكن ابتسامتها بقيت، وأجابت عن كلّ الأسئلة حتى هبط الليل مثل مطرٍ لطيف على هذا الحشد اللانهائي من البشر الذين حوّلوا باراُوي إلى مدينة، مدينة غريبة، يمكن أن تصيبك بالجنون، وخلف ذلك كلّه كانت ترى والدتها طيلة الوقت كما لم ترَها من قبل قطّ. لم تفهمها. كان ذلك مثل شعورٍ غريب يشبه الشعور بالأسف على الجدّ.

- 37 -

مرّت سنة ويوم على امتلاكهم الرصيف الجديد. لم يعتبره هانس مجرّد انتصار وتحفة معمارية، بل بداية ملزمة لمشاريع واعدة. وقد كتب العديد من الرسائل المهمة، واجتمع مع ممثّلي شركات نقل وصناعة ألبان ومع مسؤولي الشؤون البلدية المحليّة.

لكن دون فائدة تُرجى.

بعد وفاة والده يشعر هانس بضرورة القيام بمحاولة أخرى، وهذه المرّة يأخذ ماريا معه إلى البر الرئيسي. ويتركان وراءهما باربرو وإنغريد ولارس واقفين على الرصيف يراقبونهما يختفيان وراء رذاذ المطر الخفيف، وهم يفكّرون أنهما يخطّطان لأمرٍ بالغ الأهمية.

يأمل هانس وماريا في ربط بارأوي بشركات نقل الألبان التي تقوم بثلاث رحلات في الأسبوع بين المركز التجاري وهافستاين وجزر أخرى، وتجمع ممخضات اللبن، وعند الضرورة تعمل كعبّارات نقل لساكني الجزر الأصليين، وإن يكن فقط مقابل كمية قليلة من السمك، هذا إضافةً إلى مساهمتها في تخفيف عبء نقل ثيران الاستيلاد إلى الأبقار أو بالعكس. ويحمل هانس معه مخططاً يفرده على طاولة المسؤول الإداري، ليوضح له أن التوقّف في بارأوي قصير ولن يغيّر في خطّ سير الرحلة.

لكنهما لا يحصلان إلا على بعض النيّات الطيّبة غير الملزمة، وبضع كلمات عن ميزانية البلدية، التي هي في أسوأ حالاتها، كما يزعم المسؤول الإداري أن هذه الأمور ليست من اختصاصه.

تلاحَظ ماريا أيضاً أنهم لم يقدّموا لهما حتى فنجان قهوة، وهذا أمر لا علاقة له بالميزانية الشحيحة، ثم يتوقّف النقاش لبعض الوقت قبل أن يأخذ بعداً فلسفياً، عندما يتذكّر المسؤول أن هانس باراوي قد عطّل خلال السنوات الماضية حاجة الحضارة إلى منارة، أو فانوس، أو رصيف يمكن أن تلجأ إليه السفن، في باراوي أو أيّ من الجزر أو الشعب المرجانية التابعة لها، وآخر القول أنّ العقار يقع في منتصف طريق الشحن البحري، أي خارج باراوي.

يتساءل هانس ما علاقة ذلك بالمشروع الذي جاء من أجله، فيقول له المسؤول الاداري إن لديه فكرة، وربما يستطيعان أن يبرما اتفاقاً غير رسمي، ذلك أن ابنه يعمل في إدارة المنارات، ويمكن أن يؤمّن له ثلاث نقلات من الألبان أسبوعياً مقابل السماح لهم بإقامة منارة على سكرافهولمن، على سبيل المثال، وماذا يقول هانس باراوي في ذلك، أي أن تصبح سكرافهولمن منطقة مفيدة وليست مجرد شعاب مرجانية في البحر؟

لا يعرف ماذا يجيبه.

تقضّ الفكرة مضجعه.

يفضّل هانس برجاً حجرياً على منارة. لكنّه يفضّل أكثر ألّا يكون لديه أيّ منهما، وألّا يجلس في نافذة المطبخ ويراقب مدخنة سوداء تعلو في أفقه وفي وسطها خطٌّ أبيض وفي رأسها راية من الحديد. علاوةً على العمل الذي سيستغرق شهوراً لا تخلو خلالها الجزيرة من العمّال وحركة نقل لا

تهدأ. وكم من الأبقار يستطيع أن يرعى هناك، فيما لو استصلح المستنقع في جيس أوي، القريبة من بارأوي، وهذا ما كان ينبغي القيام به منذ عقود، وثالثاً: في نهاية المطاف، هل يريد حقاً لهذا القارب أن يأتي ثلاث مرات في الأسبوع؟

بعبارة أخرى، لم يتوقّف عن تدوير هذا السؤال في ذهنه كلّما اقترب موعد المخاطرة في تنفيذ ما ينوي فعله.

بدأ هذا كلّه بعد وفاة والده.

مع استمرار الجزيرة في البقاء.

الآن، لقد مضى على وفاته سنة، وبعض السنين أطول من بعض، يتكوّر على نفسه ثم يُلقي برأسه إلى الوراء، ويحسم أمره ويطلب من ماريا أن تكتب الرسالة التالية، فخطّها أجمل من خطّه وأسلوبها اللغوي أيضاً. يبحران معاً إلى البر الرئيسي ويسلّمان الرسالة إلى كبير المسؤولين الإداريين، كما يسلّمان نسخة إلى شركة الألبان، ويحصلان على قبول شفهي فوري، ويعودان إلى بارأوي.

يا يسوع! لقد كانت الاستجابة سريعة، في الوقت الذي كانا فيه يتضاحكان في الطريق إلى البيت، مراهقان ما إن ينفتحا على العالم، حتى يصبحا اسماً على الخارطة، إنهما مرئيان.

لكن عندما تأتي سفينة شركة الألبان، لأول مرّة، بعد أسبوعين، ويقفون خمستهم في انتظارها على الرصيف ويتلقّفون حبل الربط -في حين لا داعي لوجود أكثر من شخص ما دامت السفينة لن تستلم منهم سوى ممخضة واحدة، الأمر الذي يجعل ربّان السفينة، الذي كان زميلاً لهانس في المدرسة، يبتسم ساخراً من الرقم المكتوب جديداً على الممخضة، ومن حقيقة أن كلّ هذا اللغط من أجل ممخضة واحدة، بينما تُسلّم الجزر

الأخرى عشراً وعشرين ممخضة- عندئذٍ يدرك هانس باراُوي أنه قد أبرم مع الشيطان عقداً لا فكاك منه، وعليه أن يستصلح جيس أوي فوراً.

يتخلّى هانس عن العمل في سكة الحديد هذا الخريف، ويجدّف مع لارس، الذي كان ينبغي أن يبدأ المدرسة، إلى جيس أوي ويبدأان بحفر قنوات تصريف، بالفأس والمجرفة.

يتأكّدان من انحدارها ثم يضعان فيها صخوراً وأشجاراً؛ يمكن أن تتحوّل التربة إلى مرعى كبير هنا بين الصخور.

لكنّها مهمّة جبارة، تستنزف الروح والجسد، وبعد أسبوعين فقط يبدأ هانس بالشكّ فيما إذا كان هذا المشروع قابلاً للتنفيذ. هذا لا يعني أنه يفكّر في الاستسلام. تساعدهما باربرو لبضعة أسابيع، وباربرو بارعة في استخدام المجرفة. وبعد شهر آخر، يستأجرون عاطلين عن العمل من البرّ الرئيسي. لكن العاملين يريدان أجرهما نقداً، وهذا ما لا يملكه سكّان الجزيرة.

عندما تصقع الأرض أخيراً، يرفع هانس ظهره، ويجري مع نفسه حواراً حاسماً: هذه الأرض الجديدة التي تمتدّ أمام ناظريه، والتي يمكن أن يتأملها برضاً مُرهَقٍ، جمالها يفوق الوصف، لا شك في ذلك، لكن هل هي حقيقةً ملكه، مثلها مثل المروج الأخرى؟

هذه على الأغلب فكرة مخيفة تدلّ على أنه لا يحب العمل في الأرض، وأنه رجل بحرٍ، وهو صيّادٌ أكثر منه فلّاحٌ، وهو صيّادٌ أكثر من كونه عبداً للأرض. وما كان مجرّد فكرة عن امتلاك قطعة أرض إضافية فخمة، على وشك أن تصبح دُمّلاً وجودياً مؤلماً.

لم يفارقه أبداً الصراع بين البحر والأرض، كان يتجلّى على شكل قلق وانجذاب: فعندما يكون في البحر، يشتاق للبيت، وعندما يعمل في

الأرض، يضبط نفسه متلبّساً يحدّق إلى البحر ويفكّر في الصيد. غير أن الصراع بقي متوازناً، كان هناك تبادل أدوار مقبول، لكنه الآن يصبح مُهَدّداً.

يعجز عن السيطرة على هذا الصراع، فيهرب منه ويقول للارس أن يترك حزمة الأعشاب التي في يده، لأنهما سيتوقّفان عن العمل، لهذه السنة.

يجمعان العدّة ويجدّفان عائدين إلى البيت في صمت يخيّم عليهما دوماً عندما يعجز لارس عن السؤال عما يجري، ويتظاهر هانس أنه لا يعرف ماذا يقلق الصبي، أما الآن فحتى هانس نفسه لا يعرف أيضاً، فالصمت عادي الآن. يدفع هانس للعاملين أجرهما ويغادران في اليوم ذاته مع سفينة نقل الألبان، إلى جانب ممخضة الحليب.

المنوال ذاته ثانية:

تحصل بارأوي على جبنٍ مقابل الحليب. وزبدٍ أيضاً، وقشدة، ولبن رائب، وكلّ ما كانوا ينتجونه بأنفسهم من قبل. وما زالوا ينتجونه مما يحتفظون به من حليب، لكن هذا هو التقدّم، بينما هم في حاجة إلى نقود، من أجل شراء العدّة وكلّ ما يحتاجه القارب وعمل الصيد، لا هذا الجبن ذاته الذي يصنعه الجميع في كلّ مكان.

لم يشعر بهذه الشفقة على نفسه من قبل.

إنه شهر كانون الأول الآن، وفي هذا الوقت من السنة يمكن تأجيل كلّ القرارات الحاسمة. يستمر في الصيد حول الجزيرة مع لارس حتى عيد الميلاد، ويصل تدريجياً إلى تصوّر واضح للحلّ. وبعد شتاء آخر في لوفوتن يعود إلى البيت ويتجه مباشرة إلى متجر الخشب، يشتري أربعة براميل زيت ومئات من ألواح الخشب الصلبة التي يمكن جمعها معاً لصنع طوفٍ جنوب بارأوي، ينقل عليه الحيوانات عبر المضيق إلى جيس أوي، كما يفعلون في العديد من الجزر الأخرى.

وهكذا لن تصبح جيس أوي حقلاً لزراعة التبن، بل مرعى للعجول الصغيرة. بينما تبقى الأبقار في الجزيرة. وهكذا يستطيعون الحصول على مزيد من الحليب، والمزيد من العجول الجديدة.

وعندما يبدأ لارس المدرسة، تنقله ماريا وباربرو في اليوم الأول إلى هافستاين بالقارب، لا يشارك في التجديف، بل يبقى جالساً على واحدة من ممخضات الحليب في بارأوي. ولأن لارس لا يزال قصير القامة، لن ينتبه أحد إلى أنه قد تأخر عن المدرسة سنة كاملة. كما أنه سريع الاستيعاب، ويعرف القراءة. وفي بارأوي، في البيت، يجلس ويفكّر في أنه قد أضاع سنة دراسية.

على الرغم من ذلك فقد كانت سنة مهمة جداً، أهم بكثير من السنتين السابقتين اللتين أضاعهما. رغم أنه لم يدرك أهميتها بعد. إنه يفتقد والده.

- 38 -

في ذلك الخريف سيُبنى البرج الحجري. لكن ذلك سيحدث في غياب هانس بارأوي، لأنه سيبدأ العمل في السكة الحديد ثانيةً من أجل النقود. ويحدث ذلك أيضاً في غياب إنغريد، التي سيجري تثبيت معموديّتها(*)، وتبدأ مدرستها الإعدادية مع خمسة عشر تلميذاً آخر من الجزر، وستقيم خلال هذا الوقت عند كارين لويزا ماليبرغيت، وتعتني بولديها بعد أن تنجز دروسها، ستتعلّم الخدمة في المنزل، علاوة على وجودها مع نيللي وجوزفين وفتاة أخرى، هل يمكن أن يكون الوضع أفضل من ذلك؟ إضافة إلى أن كارين لويس حامل، وسيصبح وليدها الطفل الثامن للقسّ، وكلّهم أحياء.

هذا يعني أن ماريا وباربرو ستكونان وحدهما في بارأوي عندما تصل مصلحة المنارات البحرية. ورشة عمل من أحد عشر رجلاً، ومعهم قوارب وأطواف، وملابسهم مزيجٌ من ملابس العمّال ومراقبي العمل، إنهم طبقة عليا من العمّال، بقبّعات من القماش، وصدّارات، وجزمات لامعة وسترات صوفية تجعلهم يبدون مثل مهندسين. يتصرّفون باحترام وتهذيب

(*) طقس كنسي احتفالي يجري فيه تثبيت معمودية الطفل، بعد أن يبلغ الخامسة عشرة، يؤكّد فيه الشاب/ الفتاة رغبته في الالتزام بعضوية الكنيسة. (م).

عندما يريدون شراء اللحم أو السمك أو الخبز المقرمش، ويتركون لهما بعض النقود أيضاً. ينامون على متن قارب مدعّم بالحديد اسمه جلونتين الثاني، وهو يرسو عند الرصيف الجديد لأنه لا يمكن أن يرسو بالقرب من موقع العمل إن لم يكن الطقس جيداً.

لكن، منذ اليوم الأول يحدث سوء فهم، وهذا أمرٌ لا توضحه ماريا، أو إنها لا تهتمّ له. إذ إنهم يبدؤون العمل ليس في سكرافهولمن، كما ينصّ الاتفاق، بل على الجهة الجنوبية من بارأوي ذاتها. حتى إنهم لا يبنون برجاً حجرياً أيضاً، بل هيكلاً معدنياً، يحفرون في الصخر، ويزرعون أربع عوارض حديدية على شكل حرف T، يثبّتونها جيداً، ثم يضعون فوقها فانوساً بارتفاع قامة رجل، منارة بيضاء بقبّعة حمراء تبدو من البعيد مثل حشرة أو مثل مهرّج سيرك يحوّم في الهواء. وسوف يضاء هذا الفانوس بواسطة البارافين، الذي يُضخّ إلى الأعلى عبر أنبوب يصعد من خزّان بارافين جرى تثبيته في الصخر أسفل المنارة. وسيجري تشغيل الفانوس من بداية تشرين الأول حتى الأول من آذار، ثم يُطفأ -لأن اللون الأبيض والأحمر يجعلانه مرئياً بوضوح أيضاً- بقية أيام السنة.

شهر تشرين الثاني على الأبواب.

وهكذا لديهم ضوء ينبض في الزاوية الجنوبية من بارأوي منذ أكثر من شهر، وعندما يعود البحّار إلى بيته يجد ذلك الضوء الطائر فوق رأسه، شجرة عيد ميلاد دائمة التوهّج في جزيرته!

لكن هانس لا يجد أيّ تعاطف، لا من قبل ماريا ولا باربرو أيضاً. تُريانه المبلغ الذي حصلتا عليه أجرةً للأرض، مئتين واثنين وعشرين كروناً، وتخبرانه أنهم سيحصلون على دخل، ضئيل، ثابت أجرةً للأرض، ودخل ثابت أيضاً مقابل اهتمامهم وصيانتهم للمنارة. لم يصبحا مُنتجي حليب،

واسماً على الخارطة فحسب، بل أيضاً قائمين على خدمة المنارة وعاملين بأجر ثابت لدى دوائر الدولة.

هذا يفوق احتمال هانس بارأوي.

لا يستطيع هانس أن يكون موظّفاً لدى أحد.

في اليوم التالي، يذهب مع سفينة نقل الألبان إلى البرّ الرئيسي، دون أن يأخذ ماريا معه. وحالما تختفي بارأوي وراءه في البحر، يبدأ في التفكير في حقيقة دافعه للسفر لا مجدّفاً ولا مبحراً بشراعه، بل مسافراً بطريقة جديدة مَهيبة، مرتدياً أفضل ثيابه، كما لو أنه يعوّض الضعف الكامن في شكايته التي خطّط لتقديمها، وأن هذه «الصفقة» غير التقليدية التي دخلوا فيها، ربما ليس من السهل الاعتراض عليها بأي حال، ولدى من سيعترض؟

يقف في قمرة القيادة إلى جانب القبطان بولص، زميله من أيام الدراسة، الذي حصل على هذه الوظيفة الآمنة منذ عقود، وبأجر ثابت فقط مقابل أن يبحر في مياه آمنة بين المركز التجاري والجزر المحيطة، وبوسعه أن يأخذ إجازة متى يريد.

في هافستاين، يساعد هانس في تحميل ممخضات الحليب على متن السفينة، إحدى وعشرين ممخضة من خمس مَزارع، يضعونها في غرفة أسفل السفينة ويثقّلونها كي تبقى ثابتة في مكانها، قبل أن يتابعوا سيرهم إلى سكرافين، ويحمّلون خمس عشرة ممخضة أخرى، وإحدى عشرة أخرى من لوتفار، ويصلون إلى المركز التجاري مع حلول المساء. وبذلك يتأخر الوقت للبحث عن المسؤول الإداري، فيذهب إلى مقصورة الصيّادين حيث يتصرّف الجميع هناك كأنهم في بيتهم، فيشعل الموقد ويصنع القهوة، ثم ينام على القضية.

وفي الصباح التالي أيضاً لا يذهب إلى القرية. فعلى رصيف المركز

التجاري تقف سفينة، صلة الوصل بين الجزر والمدينة. توسوس له نفسه. فيركب السفينة إلى المدينة، ويتجه مباشرة إلى متجر أدوات للصيادين، ويشتري أربع قفف أشراك، ثماني حزم حبال، عوّامات خيطية، شصوصاً، قنّباً للشباك وسكاكين. ثم يشتري قهوة، كيساً من السكر، كيساً من البازلّاء، وسطلاً من السجق المُدخّن، مفرش طاولة لعيد الميلاد، ثلاثاً من مجلّات عيد الميلاد للأطفال، زجاجتي أكويفتا(*)، ثمانية أمتار من قماش فساتين أزرق مُزَهّر، وخزانة بستة أدراج، إضافةً إلى صورة مؤطّرة لسفينة شراعية.

يركب السفينة عائداً عصر اليوم ذاته، يقضي الليل في مقصورة الصيّادين، ثم يركب سفينة نقل الألبان في الصباح، ويصل إلى بارأوي بعد انقضاء يومين كاملين.

هناك تستقبله العائلة كلّها، التي كانت تقف على الرصيف بانتظار السفينة مع ممخضة الحليب.

لم تفرحهم خزانة الأدراج بقدر ما أفرحتهم مجلّات عيد الميلاد ومفرش الطاولة. لكن هذا كان قبل أن يلقوا نظرة متفحّصة على الخزانة ليعرفوا ما إذا كانت ملائمة لوضعها في الصالون. تلاحظ ماريا أنها غير متقنة الصنع. تفتح الأدراج فتنزلق مثل دواليب مزيّتة على سكة مُشحّمة، ولها قوائم مقوّسة إلى الأمام على شكل مخالب قطّة، ونقوش على كلّ الأدراج، وعلى زواياها الأربع المدوّرة، وتقرأ ماريا على لوحة نحاسية مثبتة على ظهر الخزانة: «كوفود وابنه نيداروس لصناعة الأثاث المنزلي».

تسأله ماريا ما الذي أعجبه في هذه الخزانة. فيسألها ما إن كانت لا تراها رائعة. تسأله كم دفع ثمنها. فيقول إنه لا يتذكّر. ثم تسأله عن الفاتورة. فيقول إنه لم يحصل على فاتورة الشراء. تفتح الأدراج ثانية فتشم رائحة

(*) مشروب كحولي محلّيّ. (م).

الكافور والكركديه والكرز، لا تعرف ما هي هذه الروائح، لكنها تعرف أنها روائح غريبة، فتنظر إلى زوجها الواقف وظهره لها وهو يدقّ مسماراً في الجدار ويعلّق إطار صورة السفينة الشراعية بجانب النافذة الشرقية. وعندما يتأكّد أنها معلّقة بالشكل الصحيح، يذهب إلى المطبخ ويجلس على كرسي أبيه الهزّاز، يصبّ لنفسه كأساً، ثم يشعل غليونه ويقول: غداً صباحاً سنذبح. لا يوجد لديهم، عادة، خنازير في بارأوي، لكنْ، هذه السنة لديهم خنزير. وسوف يُذبح في الصباح.

على الجانب الآخر من الطاولة، تجلس إنغريد ولارس وهما يقرأان في مجلّات عيد الميلاد. وباربرو تقرأ أيضاً مجلّة عيد الميلاد، فهي مليئة بالصور. تعدّ ماريا وجبة الغداء. يأكلون ويشربون القهوة، ثم تطلب باربرو من لارس أن يكتب بطاقات عيد الميلاد للعائلة في بوأوي وفي يسفاريت، كي يرسلوها مع سفينة الألبان. وتجلس وتراقبه بصمت وإعجاب بخطّه الجميل.

عندما يذهب الأطفال للنوم، يصبّ هانس ثلاث كؤوس أخرى، واحداً له واثنتين لماريا وباربرو، ثم يدفع بيده المئتين واثنين وعشرين كروناً عبر الطاولة كي لا تضطرّا هذا الشتاء أن تشتريا بالدَّيْنِ أثناء وجوده في لوفوتن. تقول ماريا أن لا ضرورة لذلك. فيقول هانس بل هناك ضرورة. فتقول ماريا إنه في الواقع لا يملك هذه النقود كي يعطيها. يغضب هانس، ثم ينهض ويذهب إلى الفراش. تبقى النقود على الطاولة. بعدئذٍ تنهض ماريا وتذهب إلى الفراش. تسمع باربرو أصواتاً في الصالة الجنوبية. ثم يسود الصمت. تشرب كأسها، وكأس ماريا، ثم تُلقِمُ المدفأة وتأخذ النقود عن الطاولة وتصعد إلى غرفتها. باربرو لديها أيضاً صندوقها الخاص.

- 39 -

بعد التحضيرات لاحتفالية تثبيت المعمودية، في بيت القسّ، تشعر إنغريد أن بارأوي مملّة. حتى وجود المنارة التي تضيء في العتمة لهداية السفن الغريبة لا يغيّر في الأمر شيئاً. هذا لا يعني أنها تحنّ إلى مكانٍ آخر، بل إنها تحنّ إلى بارأوي مختلفة، أو أنها تريد أن تأخذ الجزيرة معها إلى العالم الفسيح وتملأها بكلّ ما تفتقر إليه، وبارأوي تفتقر للكثير، وهذا التوق الذي يملأ إنغريد يجعلها غير قادرة على نقل التورف والذهاب إلى حظيرة الأبقار وحقل البطاطس أو سحب الشباك مع باربرو أو تنظيف السمك، هذا ليس عمل النساء، فالنساء يقفن أمام المرآة ويغنّين في الكورال وينتظرن وصول رسالة، يضحكن مع صديقاتهن ويخرجن معاً للتنزّه في ثياب متشابهة تحت سماء لازوردية اللون حيث لا يُسمع صوت البحر، ولا حتى من بعيد.

الغريب في الأمر، رغم قلة الأحداث في بارأوي في الشتاء التالي، هو أن النوم يجافيها لدرجة أنها تتساءل ما إن كانت مريضة، وتبقى في فراشها حتى تنهرها أمها للنهوض، ليس هناك ما تحبه في الخارج، وما عادت بارأوي جديرة بالاستكشاف بأصوات رياحها ومياهها الرتيبة، الأصوات التي لم تنتبه إليها إنغريد من قبل، وهذا يقودها إلى الجنون، مثل زعيق

النوارس وطيور صائد المحار وطيور العيدر وطيور الغاق الغبية التي تقف على الجرف مثل رهبان متفخّمين يديرون عباءاتهم مع الريح، ينبغي أن تخرج وتعمل في الخدمة، إنها ترغب في ذلك.

لكن العالم لا يريدها.

فجأة يمتلئ العالم بفتيات مثل إنغريد. تبحث ماريا وتستقصي، بعلم ابنتها أو من دون علمها، لكن النتيجة لا تتغيّر، ويقول والدها إن بإمكانها أن ترافقه إلى لوفوتن وتعمل طاهية هناك. تعارض ماريا الفكرة بالمطلق، فقد عملت هي هناك طاهية، وهناك قابلت هانس، وذلك يكفي. ويزداد الأمر سوءاً عندما يكون لارس في البيت ويريد أن تخرج معه إنغريد للصيد في البحر، وإنغريد قد اكتملت أنوثتها تقريباً. تخرج معه على أي حال، وتمسك بالمجدافين في وضعية تثبّت القارب في مكانه، بينما يقف لارس مفرشخ الساقين في القارب ويسحب الشباك، ويدمي الأسماك بين يديه بسبب غضبه الجنوني، في الجحيم الذي ينتمي إليه.

ذات يوم تريها ماريا آخر رسالة وصلتها، تقول الرسالة إنها قد حصلت على عمل، لدى ابن مالك المركز التجاري توميسين، أوسكار وزوجته الشابة زيزينيا، وهي من مكان ما في الجنوب، لديهما طفلان صغيران ستقوم إنغريد على رعايتهما في بيت حديث مقابل المركز التجاري.

«كان ينبغي أن تحصلي على هذا العمل قبل سنوات».

تهزّ إنغريد برأسها.

«وقد أصبح الأمر أسهل الآن»، تقول ماريا كما لو أنها تعرف سلفاً أن كل الدروب تعود إلى البيت. أو ربما كان ذلك بدافع الحسد، أو بداية الشعور بالفقد. لكن سفينة الألبان قد أصبحت مثل ساعة دقيقة، ربطتهم بمنظومة توقيت البر الرئيسي.

السيدة توميسين وطفلاها ينتظرون إنغريد على درجات المركز التجاري، يتصافحون، وزيزينيا امرأة لطيفة ومتحفّظة وتتحدّث اللغة العامية. تحمل إنغريد حقيبتها الصغيرة وتصعد التلّة، بعيداً عن البحر وأصواته المرعبة إلى السكون. البيت حديث ويعلو كلّ زاوية من سطحه رأس تنين، وفي أعلى السطح ووسطه طائر الرياح، وتحيط بالبيت أشجار عالية متمايلة ويُسمع حفيف أوراقها في نسيم الليل، لكن هذا أيضاً نوع من أنواع السكون.

حالما يدخلون الباب، تشعر إنغريد أنها غريبة، كما شعرت في يومها الأول في المدرسة، لكن زيزينيا، بلباقة، لا تولي انتباهاً لذلك، وتريها الغرفة التي ستقيم فيها، والتي تبدو لها كما لو أنها رتّبتها بيديها. تُعجب إنغريد كثيراً بالأدراج والخزانة ولا تولي انتباهاً للسيدة التي مشت بجانبها والتصقت بها تقريباً، وهي تشمّها، لتتأكّد ما إن كانت رائحتها نظيفة، كما تفهمها أيضاً عندما تصافحها، لترحّب بها ثانية، وتتفحّص نظافة أظفارها. غير أن إنغريد كانت قد قلّمت أظفارها بإشراف ماريا، وهكذا تقف مسترخية بينما تقوم السيدة بتفتيشها، وعندما تنزلان إلى الطابق السفلي من أجل مزيدٍ من التعليمات في المطبخ، تفكّر إنغريد في أنها قد اجتازت الاختبار، وأنها ستتغلّب على التحديات القادمة: فالموقد مصنوع من الخزف الأزرق المصقول من مدينة ديلفت في هولندا، ويُشعَل، على أي حال، بالطريقة نفسها التي يُشعَل بها الموقد في بارأوي، الموقد المصنوع من الحديد الزهر، لكن حرارة هذا الموقد أفضل، وتدوم أطول، واستعماله أسهل، ذلك أن إشعال فحم الكوك أسهل من إشعال التورف.

وهنا توجد غرف الجلوس، تقول زيزينيا، ثلاث غرف جلوس تشكّل مع بعضها بعضاً نوعاً من الغرف المتداخلة صعوداً إلى الأكثر خصوصية،

وهناك يوجد أيضاً موقد من الخزف الأزرق، لكن إنغريد ستشعل هذا الموقد مرة واحدة في اليوم، في الساعة الخامسة عصراً، كي يكون دافئاً عندما يعود ربّ البيت من عمله في الساعة السابعة، وتلك هي الساعة التي ينبغي أن تضبط إيقاعها عليها، إنها قطعة أثرية موروثة، ولها بندول وأرقام رومانية ومفتاح نحاسي لملء الساعة، ينبغي أن تضبطها بواسطته مرّةً كلّ أربعة أيام. باستثناء ذلك لا عمل لها في هذا الجزء من المنزل، ومن غير المسموح للطفلين أن يلعبا هنا. تتساءل إنغريد لماذا كانت خائفة دوماً، وتفكّر أنها ربما هي نفسها قد تباطأت كثيراً في بارأوي وليس العالم من لم يكن يريدها، ربما هي من أخطأ التقدير، وتقرّر أنها لن تكرّر ذلك الخطأ ثانية، لاشتباهها في أن والدتها ربما أعاقت خروجها؛ إن وحدة ماريا لا تمسّها أبداً.

- 40 -

بعد انتهاء احتفالية تثبيت المعمودية السعيدة في بيت القسّ، لم تعد العودة إلى العيش في بيت ابن مالك المركز التجاري وزوجته أمراً مذهلاً، بل معقّداً جداً. في المقام الأول، لم يكن الطفلان مثل أطفال القسّ. كان أكبرهما، واسمه فيليكس، في السابعة من عمره، ولسبب ما لم يذهب إلى المدرسة. ويصرخ مثل حيوانٍ مذعور إذا لم يحصل على ما أراده، وعندئذٍ كانت أمه تغادر الغرفة وتتركه لإنغريد لتهدّئه.

الطفل الثاني، سوزانا، في الثالثة من عمرها. كانت تستلقي معظم الوقت في عربة كبيرة كفاية لشخص راشد، أو تجلس في حضن أمها أو في حضن إنغريد ولا تبدي اهتماماً بأي شيء، أو تدفعها إنغريد في عربة أطفال خشبية صغيرة مزيّنة بالزهور في البيت، أو عندما تُرسلها زيزينيا لشراء بعض الحاجيات أو السمك من المركز التجاري.

أحبّت إنغريد مشوار التسوّق اليومي ذاك، وكانت تشعر أنها أكبر خمس سنوات، شخص مسؤول عن كائن صغير، وهي تدفع أمامها تلك الطفلة في العربة الخشبية الصغيرة. وكانت تهتمّ بمظهرها وانتقاء ثيابها، كما كانت تستجيب بسرعة لمن يتحدّث معها، وتبتسم، مشجّعة على

الاستمرار في الحديث، فقد كانت إنغريد شابّة ودودة ودمثة، وهذا غير مألوفٍ من سكّان الجزر.

لكن الطفلة الصغيرة الضعيفة، التي ما زالت في الحفاضات، لا تستطيع الجلوس على الأرض منتصبة الظهر، ولا تستطيع المشي أيضاً. فكّرت إنغريد أن الطفلة مريضة. وهذا ما لم ترغب زيزينيا في الحديث عنه، وتكتفي بالقول إن سوزانا طفلة حسّاسة. وكان لكلمة «حسّاسة» رنّة رقيقة مثل رنين البورسلين.

وكانت سيدة المنزل تعاني من مشكلة أيضاً، ما لم يكن ذلك سلوكاً طبيعياً في بيئتها. فقد تكون جالسة تخيط، وفجأةً تقف وتصرخ، ثم تركض خارجة من البيت وتنزل إلى المركز التجاري، حيث تولّى زوجها أوسكار إدارة المركز بعد أن تدهورت صحة والده، ثم تعود إما مبتسمة أو باكية، وقد شعث شعرها، وأحياناً مبتسمة وباكية وشعثاء الشعر معاً. وعندئذٍ تسأل إنغريد معترضةً على إطعامها فيليكس، وغالباً ما تكون إنغريد قد أطعمته كي توقف صراخه، أو لأن موعد إطعامه قد حان.

تُمسّد الأم شعر ابنها بحذرٍ، كما لو أنها تخاف أن تحرق راحتها، ثم تصعد إلى الطابق الأول وتستلقي في سريرها بعد أن تفتح النافذة وتهوّي الغرفة، وهذه سابقة لا عهد لإنغريد بها، أن يقوم المرء بتهوية غرفة لم يكن فيها أحد، ولا رائحة فيها. ولا تنزل من الغرفة إلا بعد حلول المساء، بعد أن تكون إنغريد قد أطعمت الطفلين، وعاد سيّد المنزل من عمله ودخل إلى غرفة الجلوس الثالثة ليدخّن غليونه.

ومن المطبخ كانت إنغريد تسمع الزوجين يضحكان ويتجادلان ويصرخان أحدهما على الآخر، ثم يعاودان الضحك، يتنقّلان بسرعة بين تلك الحالات، لدرجة أنها بعد أسبوع تقريباً بدأت تخلد إلى سريرها باكراً، لأن نمط تعايشهما الخاص ذاك كان يتكرّر على طاولة الطعام أيضاً، وقد

شعرت إنغريد أنها ما عادت قادرة على تقديم إجابات مقنعة لتساؤلاتهما، ولا معنيّة بما يضحكهما.

كان ابن صاحب المركز التجاري مهذّباً وبارداً، غامضاً ومرحاً. كان يجمع في دفتر كبير وطبق نحاسي طوابع نابليون وملوك الدانمارك والسويد الذين حكموا النرويج، يفرشها على طاولة الطعام الكبيرة في غرفة الجلوس، وكان على إنغريد أن تعيد ترتيبها في أماكنها الصحيحة. وكان ينظر إلى إنغريد بطريقة خاصة، ويغمزها بعينيه عندما لا تراه زيزينيا. كما لم يكن قادراً على فصل لحم السمك عن العظم، يضع قطعة سمك قدٌ كبيرة في صحنه، ثم يحملها كاملة بالشوكة إلى فمه، وبعدئذٍ يبدأ باستعمال أصابعه ليخرج من فمه الحسك والأشياء التي لا يستطيع أن يبتلعها، ويزداد الأمر صعوبة عندما يتكلّم وهو يفعل ذلك.

إضافة إلى أن نظّارته كانت متغبّشة دائماً. سألته إنغريد ما إن كان يريد أن تنظّفها له. عندئذٍ نظر إليها نظرة غامضة جعلتها غير قادرة على فهم ما قاله لها. فكّرت أنه قد يكون متضايقاً من شيء ما. إنه شخص هشٌّ، مثل ابنه الذي لم يتحدّث إليه البتّة. كانت في بيت يعيش فيه الأبناء والآباء في عالمين منفصلين.

كان ذلك كلّه مجرّد خيبات صغيرة تراكمية في بيت ثريّ، حيث لن يكون بالضرورة أيّ شيء على مستوى توقّعات إنغريد.

ولم يكن بوسعها فعل الكثير، فلم يكن لديهم أي حيوانات، وكل أسبوع تأتي امرأة عجوز من مزرعة صغيرة في الوادي الذي يقع وراء الكنيسة، وتنظّف الغرف التسع في البيت بصابون أخضر، باستثناء المطبخ وغرفة إنغريد، إذ كان عليها أن تنظّفهما بنفسها. كانت العجوز تأتي وتغادر تحت جنح الظلام، وقد لاحظت إنغريد أنها قلّما تحصل على نقود مقابل

عملها. كانت زيزينيا تقول لها دون أيّ حرجٍ أن ليس لديها نقود اليوم. لكن إلى متى تستطيع إنغيبورغ أن تشتري احتياجاتها بالدَّيْن؟

لم تقل العجوز أيّ شيء، فقد كانت صموتة ومحنيّة الظهر، وتفوح منها رائحة غريبة، شيء مثل شحم الخنزير؟ وكانت تهشّ الطفلين كما لو أنهما يقفان في طريقها، وهذا غير صحيح أبداً، فقد كانت إنغريد تعتني بهما، كما تعتني بكلّ شيء، حتى إنها اعتبرت البيت بيتها هي، حتى بعاداته السيّئة، وبدأت تدافع عنه، حتى ضدّ نفسها، وسرعان ما قد ترى طريقة صاحب البيت في أكل السمك عادة طبيعية.

لم يمضِ على وجودها هناك أكثر من ثلاثة أشهر، عندما وصلت من المركز التجاري رسالة تقول إن أوسكار قد استقلّ السفينة إلى المدينة، كما كان مخطّطاً، لكنّه لم يعد.

قد تكون هناك أسباب عديدة بالتأكيد، لكنها ليست واضحة بالنسبة للخادمة، وأمضت زيزينيا الليل تدور في البيت وهي تفرك يديها واحدةً بالأخرى، غير قادرة على الإجابة عن الأسئلة التي اقترحت إنغريد أنه من المفيد أن تسألها زيزينيا من وقتٍ إلى آخر.

عندما لم يعد زوجها في اليوم الثاني، ولا في اليوم الثالث، تخلّت الأم ببساطة عن اهتمامها بالطفلين، وراحت تدور في البيت مثل شبح أشعثٍ وهي تعدّ الأثاث والموجودات الثمينة وتسجّل كل شيء في دفتر كبير بغلافٍ سميك، قبل أن تبدأ في فرز الأشياء وتوضيبها في حقائب كبيرة. أحاطت نفسها بالضوء والصخب ثلاثة أيام وليلتين. ثم اختفت هي أيضاً، دون أي كلمة. استيقظت إنغريد ذات صباح ونزلت إلى الطابق الأرضي لتشعل المدفأة وتصنع القهوة، فألفت نفسها في ظلمة، وسكون، مثل سكون القبر، لم يعهده البيت من قبل.

انتظرت حتى دقّت الساعة، فأيقظت الطفلين وأطعمتهما ثم انتظرت ثانية. لم يحدث أي شيء. فصعدت إلى غرفة نوم الزوجين وخبّطت على الباب، لا جواب، دخلت إلى الغرفة، فوجدت السرير مرتّباً ولا أحد في الداخل. وجاءت إنغيبورغ لتنظّف البيت، وفهمت فوراً ما الذي جرى وغمغمت، حسنٌ، هذه هي طريق الحياة، هذا هو الإفلاس الذي كان الجميع يتوقّعونه، ربما لا يُرى بين النجوم، لكن على الأقل بين أسطر الجريدة.

لم يكن لدى إنغريد أيّ فكرة ماذا يعني الإفلاس. فهي لم تقرأ الجريدة من قبل، وكانت الجريدة تصل ثلاثة أيام في الأسبوع، ثم غمغمت تلك العجوز شيئاً مثل أن لا بدّ أن يكون توميسين الشاب قد سافر إلى أميركا، فبدأت الدنيا تدور بإنغريد.

دون أن تخلع معطفها، جلست إنغيبورغ في المطبخ الكبير الفارغ وبدأت تشرب القهوة لأول مرة، بفنجان مذهّب الحواف، وقالت لإنغريد إن الأمور كانت تسير من سيّئ إلى أسوأ منذ أن مرض توميسين العجوز.

شعرت إنغريد بارتياح مشوّش لأن لا علاقة لهذا الأمر بها. لكنه يمسّها بالتأكيد، فهي من تُرِكَتْ هنا وحيدة مع طفلين ليسا طفليها. ولم تُنظّف إنغيبورغ أرضية البيت اليوم، فقط شربت قهوتها وقالت إنها لن تعود إلى هذا البيت.

«وماذا سأفعل أنا؟!»، صاحت إنغريد.

«بل ماذا سنفعل كلانا؟»، قالت العجوز ثم مضت.

ندمت إنغريد لأنها لم تبدأ في البكاء منذ زمن طويل، لأنه لا فائدة من البكاء الآن، فلا أحد يرى دموعها.

- 41 -

من نافذة غرفتها كانت إنغريد ترى البحر والجُزر. وكانت بارأوي معتمة أكثر من بقية الجُزر، ربما بسبب العشب أكثر مما هو بسبب الصخور والجروف. كانت تراها كل مساء، وتقول لها تصبحين على خير، ثم تراها في الصباحات، أحياناً تراها بوضوح، وأحياناً مثل ظلٍّ عائمٍ، لكن الآن في هذه العتمة الخريفية لا ترى شيئاً.

نهضت وأعدّت الطعام، أطفأت المصابيح ولعبت مع الطفلين، أضاءت المصابيح، ولعبت مع الطفلين، حان دور فيليكس في الاستحمام، طعام العشاء، وضع سوزانا في السرير، ثم فيليكس، الذي لم يسأل عن أمه أبداً، لكنه كان يدور في البيت وفي يده عصا يضرب بها كلّ الأثاث، وعندما انتزعتها إنغريد منه، بدأ جولة صراخ جديدة.

في الليلة التالية لم تستطع أن تنام. نهضت في السادسة صباحاً، أعدّت فطوراً لثلاثة وأكلت وحدها، وانتظرت الساعة كي تدقّ، ثم صعدت وأيقظت الطفلين، أطعمتهما، وألبستهما ثيابهما وخرجت بهما في مشوار في القرية، وكان المطر ينهمر، وكان عليها أن تدخل مكاناً ما وتسأل ماذا ينبغي أن تفعل.

لكن أين تذهب؟

كانت بالقرب من بيت القسّ، لكن لا ضوء هناك. فعادت إلى البيت ولعبت مع الطفلين، وأكلت، وغسلت، وأشعلت المصابيح، وعبّأت الساعة، والشكر للربّ لا أحد سيستحمّ اليوم.

الآن نامت إنغريد مثل صخرة.

لكن السكون أيقظها. وبكاؤها أيضاً. فتحت النافذة، فسمعت البحر ونامت من جديد، ثم استيقظت ونزلت وأعدّت الطاولة لثلاثة بالغين وطفلين، كانت هي من بين البالغين، وانتظرت الضوء حتى دخل نوافذ البيت، فأيقظت الطفلين وأجبرت فيليكس على ارتداء ملابسه بنفسه، وصفعته عندما بدأ بالصراخ. حملت سوزانا ونزلت، فلحق بهما فيليكس وقد لبس نصف ثيابه وكان يعنّ. ساعدته على ارتداء بقية ملابسه وقالت له إنه من المخجل أن طفلاً في السابعة من عمره لا يستطيع أن يرتدي ملابسه بنفسه. ركض إلى الخارج منتعلاً جوربيه فقط، ركضت إنغريد وراءه، جرّته إلى الداخل وأجبرته على الجلوس إلى الطاولة. بعد الطعام، ساعدته في ارتداء معطفه، ألبست سوزانا وخرجت بهما إلى رصيف الميناء وانتظرت السفينة.

جاءت السفينة تحت ثلج خفيف، أفرغت البضائع، وحمّلت الحليب والسمك وغادرت ثانية.

ما الذي كان يفترض أن تعنيه كل تلك النظرات الساخطة؟

لقد تجوّلت بهما كثيراً في القرية، على أمل أن يلفتوا انتباه أحدٍ. لا أحد توقّف ليسأل أو ينظر إليهم، وشعرت بالسعادة وهي تجرّ وراءها طفلَيْ رجلٍ ثريّ. عادت إلى البيت ثانية وأشعلت المصابيح وأعدّت الطعام، وحمّمت سوزانا وجلست تتحدّث إلى آذانٍ صمّاء حتى غلبها النوم، حتى سوزانا لم تسأل عن أمها.

وفي اليوم التالي جاءت السفينة أيضاً. وغادرت ثانية.

تجوّلت إنغريد بالطفلين في القرية كلّها. لم تلفت انتباه أحد. قالت لها مارغوت، في المركز التجاري، إن والديهما سيعودان بالتأكيد، وقالت أيضاً إنها ربما ينبغي ألّا تأخذ كل هذه المواد التي وضعتها على طاولة الحساب، لأنه من سيدفع ثمنها في نهاية المطاف؟

نظرت إليها إنغريد نظرة فارغة.

وسرت شائعات عن مالك جديد للمركز التجاري، لكن...

ليلة أخرى دون نوم. وفي الصباح لم يأتِ لا المالك الجديد ولا القديم. وضّبت إنغريد الحقيبة الصغيرة، ووقفت من جديد على الرصيف والطفلان معها، وشاهدت السفينة ترسو وتغادر.

ثم رست سفينة الألبان، وحمّلت ممخضات الحليب الفارغة، سفينة صيد السمك المحوّلة هذه يملكها بولص صديق طفولة والدها.

مشت إنغريد على معبر السفينة، تحمل سوزانا بيد وتمسك بالأخرى بيد فيليكس، وقالت لبولص إنها تريد أن تغادر معه. فقال لها بولص من نافذة قمرة القيادة إن هذا غير ممكن أبداً. عادت إنغريد إلى الرصيف ثانية، وحملت الحقيبة والعربة الخشبية الصغيرة، وضعت سوزانا في العربة وغطّتها ببطانية، ثم جلست على الأرض وثبّتت العربة بين ركبتيها. وجلس فيليكس بجانبها. نزل بولص إلى سطح المركب وأعاد كلامه مؤكّداً لها أنه لا يستطيع أن يأخذ الطفلين في سفينته دون إذنٍ خطّي من والديهما، علاوة على أن الطقس كان سيّئاً، وهو ليس متأكّداً أنه يستطيع أن يوصلهم إلى بارأوي. لزمت إنغريد الصمت. بكت وهي جالسة بلا حراك. وكان فيليكس صامتاً.

- 42 -

استقبلتهم ماريا وباربرو اللتان كانتا واقفتين على رصيف بارأوي الجديد في العاصفة مع ممخضتي حليب، وحدّقتا مذهولتين، إلى الأسفل، إلى سطح السفينة حيث كانت تنام إنغريد وقد استيقظت الآن، متيبّسة ومتألّمة، وأصيب الطفلان بدوار البحر وتقيّأا. نقلوهما إلى الرصيف، رفعهما بولص الواحد تلو الآخر وهو يلعن، وكذلك العربة الخشبية، رغم أنها غير صالحة للاستخدام في الجزيرة. لكن بوسعهم على الأقل تناولها في ما بينهم كنقّالة، وسوزانا فيها.

انتعش فيليكس ومشى دون مساعدة.

وهو الآن من يمسك بيد إنغريد.

اضطرّت إنغريد إلى إعادة القصة أربع أو خمس مرّات عندما دخلوا إلى الدفء، قبل أن تنام على كرسيّها في المطبخ وهي تتمتم، وكانت طافحة بمشاعر يعجز المرء عن التعبير عنها، الراحة لعودتها ثانيةً إلى البيت المعزول وسط البحر مع طفلين غريبين لا تستطيع وحدها تحمّل مسؤوليّتهما.

بعد يومين أبحرت ماريا إلى اليابسة للبحث عن تفسير لهذا اللغز،

لكنها عادت خالية الوفاض، فقد كان جدّ الطفلين غائباً عن الوعي، وزوجة القسّ لم تعد بعد، ومارغوت، العاملة في المركز التجاري...؟

ومضى أسبوعٌ آخر.

الطقس سيّئٌ ولم تمرّ بهم سفينة الألبان ليومين متتاليين. تجدّف ماريا بالقارب ذهاباً وإياباً إلى القرية، وتعود خالية الوفاض.

في غضون ذلك، نامت سوزانا مع إنغريد، بينما نام فيليكس وحده في السرير المزدوج في الصالة الشمالية. وقد توقّف عن الصراخ بعد أن حاول مرّةً وأسكتته باربرو، التي أجبرته على مرافقتها إلى الحظيرة، وأرادت أن تعلّمه كيف يحلب الأبقار، لأن ابنها كان قادراً على القيام بذلك، رغم أنه رجل. بكى فيليكس وحلب الأبقار، لكنّه لم يقل أبداً إنه يفتقد أمّه. كان يريد ألعاباً، فأعطوه أدوات يلعب بها. وهكذا توقّف عن البكاء. وألبسوه الثياب التي كبر عليها لارس. وبعد ثلاثة أيام كان في القارب مع إنغريد يمسك بخيط الصيد مع أنه لم يكن يعرف أن يجدّف ولا أن ينظّف السمك. رغم أنه وُلِدَ وترعرع في عائلة تتاجر بالأسماك.

لكن إنغريد صبورة وكانت تصيد في مياه الجزيرة. وقد اتبع فيليكس تعليماتها وتعثّر، وخرج معها في اليوم التالي. وكان يجلب الحطب والتورف عندما يطلبون منه ذلك، ويدير ذراع ممخضة اللبن مع باربرو، وفي البيت كانت سوزانا تزحف على أرضية المطبخ، وتثرثر، وبدا أنها على وشك أن تمشي في أي لحظة.

درّبوها على استخدام النونيّة، على كرسي لارس. أجلستها ماريا على الكرسي وثبّتتها بين ركبتيها، لكنّها وقعت. وحاولت باربرو معها وكانت النتيجة ذاتها. وقعت سوزانا وزحفت ووقعت، ولاحقاً في المساء ذاته جلس فيليكس في حضن باربرو ولم يرضَ أن ينزل. بقي جالساً في حضنها

حتى غلبه النوم. عندئذٍ حملوه إلى غرفته، ووضعوه في السرير. وشعرت إنغريد بهذه القوة التي لا يفهمها سوى طائر يجثم على حافة جرف، فارداً جناحيه وتاركاً للريح أن تفعل الباقي.

بعد عشرة أيام على وجود الطفلين في بارأوي، عاد لارس من المدرسة في هافستاين. عاد مجدّفاً. وقد صاد في طريق عودته. أرسى القارب على السلّم تحت الرافعة على الرصيف، وعندما نظر إلى الأعلى شاهد وجهاً غريباً.

«من أنت؟».

«أنا فيليكس»، قال الوجه.

صعد لارس إلى الرصيف، ثم رفع السمك إلى الرصيف ونظّفه على طاولة التنظيف، بينما فيليكس واقف يحملق فيه. شقَّ الأسماك وملّح بعضها، ثم قطّع البقية كي يأكلوها طازجة، وضعها في سطل ثم حمله بيد وحقيبة المدرسة بيد وصعد إلى البيت. لحق به فيليكس. وحالما دخلا البيت، سأل لارس من يكون ذلك الصبي. فسمع من أمه الجواب ذاته. فيليكس. وكذلك كان جواب إنغريد التي كانت جالسة بالقرب من النافذة وهي تحيك الصوف. وعلى الأرض كانت تجلس طفلة صغيرة تقضم مقبضاً خشبياً لرمح.

«ومن أنت؟»، سألها لارس.

«هذه سوزانا»، قالت إنغريد.

وضع لارس سطل السمك على المقعد بجوار دلاء الماء، حيث يعرف أن أمه لا تريده أن يضعه هناك. بدأت أمه توبّخه. ابتسم ساخراً. فسألته أمه ما إن كان تجديفه يسيراً. فقال نعم.

«لا بدّ أن يكون يسيراً، فالطقس جيّد اليوم»، قالت باربرو، ونهضت

تنظّف السمك، ولم تكن بحاجة إلى ذلك لأن لارس كان قد نظّفه جيّداً. فوقف هناك ينظر إليها بالابتسامة ذاتها.

«ممَّ تسخر؟!»، سألته باربرو.

«ممّا تفعلين»، قال لارس وخرج إلى الصالة حيث خلع معطفه وحذاءه. وعندما عاد ثانية، كان فيليكس واقفاً في منتصف المطبخ وهو يحملق فيه. جلس لارس إلى الطاولة. فجلس فيليكس قبالته.

«اذهب واجلب بعض البطاطس»، قالت باربرو.

نهض فيليكس وخرج، ثم عاد ومعه سطلٌ أعطاه لباربرو. دقّقت باربرو النظر في السطل وبدا أنها على وشك أن تقول شيئاً ما.

«ما الأمر، يا أمي؟» -قال لارس- «ألا توجد بطاطس كافية؟».

«أوه، بلى!».

«بلى، ما المشكلة إذاً؟».

«لا مشكلة، لماذا تغمغم أنت؟».

«لأني أرى ما أرى».

«وما الذي تراه الآن؟».

لم يجبها لارس. وحوّل نظره إلى إنغريد وانتظر حتى سألته ما إن كان قد رأى نيللي في هافستاين. فكّر لارس قليلاً، ثم قال نعم. سألته إنغريد وهي مستمرّة في حياكتها، «كيف هي حالها؟». رفع لارس كتفيه ونظر إلى ما تحيكه إنغريد، وسألها ما الذي تحيكه. رفعت إنغريد يديها وأرته كُمَّي السترة التي تحيكها. فمدَّ يده عبر الطاولة وتحسّس الصوف بأصابعه.

«لمن هذه السترة؟».

«لي».

أدخلت إنغريد ذراعها في كمّ السترة، ثم ضمّت قبضتها وفردت أصابعها ثانية مثل بتلات، كما كانت تفعل زيزينيا عندما تقيس فستاناً، وقد صنعت تضليعات على معصم الكمّ وزهوراً أعلى الزند، وكان الصوف أزرق والنجوم بيضاء، لقد صبغت هي الصوف. هزّ لارس رأسه. وتابعت إنغريد حياكتها. دخلت ماريا، عائدةً من الحظيرة، وشاهدت لارس، وضعت من يدها سطل القشدة، ودخلت إلى غرفة المؤونة لتحضر مصفاةً، ثم نظرت إلى لارس ثانية وقالت: «يجب أن تُدخل القارب إلى السقيفة، ستهبّ عاصفة».

«بعد الغداء»، قال لارس.

«بل الآن!»، قالت ماريا وخرجت ثانية.

نظر لارس إلى فيليكس، الذي كان ما زال واقفاً يحملق فيه.

«هل ستأتي معي؟».

«أجل»، قال فيليكس.

- 43 -

في اليوم السابق على عودة لارس إلى المدرسة، لم تستطع سفينة اللبن أن تقوم برحلتها إلى بارأوي، لكنها نجحت في ذلك بعد يومين.

وكان لارس ما زال في الجزيرة بسبب سوء الطقس.

وعاد هانس بارأوي إلى جزيرته، قبل شهر من ميعاده. نزل الشاطئ وحول جذعه العلوي خرطومٌ أسود طويل، مثل حزام كتف لخراطيش بندقية، إضافةً إلى ثلاثة صناديق خشبية أنزلها إلى الشاطئ، وحقيبته أيضاً. لم يعرف أحدٌ سبب عودته الآن.

لكنهم كانوا جميعاً سعداء.

سعادة العائلة بعودة رجلها إلى البيت حيّاً، خصوصاً عندما لا يتوقّعون عودته. أزمة تعصف بالبلد والعالم أجمع، إفلاس وميزانيات شحيحة، ناس يُطردون من مزارعهم، وآخرون يفقدون عملهم، وكذلك فريق التفجير، الذي كان هانس يشرف على عمّاله، جرى تسريحهم جميعاً ولم يدفعوا لهم أجورهم كاملة، وما كان بحوزة هانس أنفقه على شراء هذه الأدوات: الخرطوم ورغم كونه خرطوم وقود، فهو جديد ونظيف ويمكن استخدامه من أجل الماء أو الوقود، والمضخة والمصفاة والوصلات. وقد

وضعها جميعاً في صندوق، إضافةً إلى أداة لتسنين الأنابيب النحاسية، وهكذا سيقوم بتوصيل الماء إلى المطبخ، وهذا ما كان ينبغي أن يفعلوه منذ زمن طويل، ولهذا ينبغي أن ينجزوا العمل قبل أن تصقع التربة.

«من أنت؟» قال هانس لفيليكس الذي تقدّم وأمسك بيد باربرو، وبدا له أنه يشبه لارس أكثر مما لاحظ الآخرون، إنه نسخة أخرى من لارس، خصوصاً وهو يرتدي ثيابه.

وبجانبه يقف لارس، رجل في الثانية عشرة، نظر إلى أمه وسألها ما إن كان بوسعه أن يبقى، فهو لم يكن راغباً في العودة إلى هافستاين. نظرت باربرو إلى بولص، الواقف على متن سفينته متخصّراً، منتظراً ما سيحدث؟ فهو، على الأقل، يريد حبلَيْ الربط ليُبحر.

قبل أن تجيبه باربرو، ترك لارس حقيبته على الرصيف وراح يركض باتجاه الجنوب. بينما بقي الآخرون واقفين مكانهم يراقبونه. فضحك هانس وقال لبولص: «من الأفضل أن تغادر وحدك!».

حلَّ لارس حبلي الربط. فسحبهما بولص، وهزّ برأسه ثم دخل إلى قمرة القيادة. وهكذا عادوا إلى البيت مع الصناديق والحقيبة وخرطوم الوقود وممخضتي حليب فارغتين، إن سفينة الحليب ساعة عملية ربطتهم مع العالم الخارجي، وإن لم تكن دقيقة جداً.

صباح اليوم التالي أرسل هانس الصغار ليجمعوا الطحالب في قفف التورف. حفر هانس حفرة في أساس الحائط تحت غرفة المؤونة، وأمضى هانس الأيام العشرة التالية هو ولارس مستلقيين على ظهريهما تحت أرضية الغرفة وهما يصنعان ويسمّران صندوقاً خشبياً بطول عشرة أمتار تحت الدعامات، وكان فيليكس وإنغريد واقفين بجانب الحائط يناولانهما المواد عند الطلب، لأن خزّان الماء الجديد يقع في الجهة الجنوبية

والمطبخ في الجهة الشمالية. ثقبا جدار الخزّان وركّبا المصفاة على عمق متر تحت سطح الماء، ثم أدخلا الخرطوم عبر الصندوق الخشبي، وثقبا أرضية المطبخ وأدخلا الخرطوم إلى المطبخ، بطول نصف متر فقط. ثم ركّبا المضخة فوق حوض المجلى ووصلا الأنابيب وشدّاها معاً.

لكن الطحالب لم تكن جافة كفاية بعد. فنشروها فوق أرضية الدور العُلوي من الحظيرة، وسوف يستعملونها كمادة عازلة حول الخرطوم في الصندوق الخشبي. ولم يكن هناك صقيع بعد.

وكان السؤال: هل هذا العمل ضروري لا يؤجّل؟

أجل، لقد كان ضرورياً. وعمل هانس على تجفيف الطحالب في المطبخ، وضعها في ثمانية من صناديق السمك وعلّقها في السقف فوق المدفأة. فملأت البيت رائحة الصيف، رائحة التبن، خصوصاً في الأعلى، حيث ينام لارس وفيليكس في الصالة الشمالية التي توجد فتحة في أرضيّتها.

جدّف هانس إلى المركز التجاري وحاول أن يتحدّث إلى مالكه العجوز. وجده راقداً في رعاية زوجين عجوزين مقابل نقود ما عادا يتلقيانها، وأخبراه أن كارثة قد حلّت بابنه. سمع العجوز عن الطفلين، فبكى وقال: «يجب أن يبقيا حيث هما الآن».

«حيث هما؟» -قال هانس- «في بارأوي؟!».

حدّق العجوز في الجدار وصمت.

لقد عرف هانس هذا الرجل طيلة حياته، كان أميراً وقبطاناً على الساحل، وقد لعنه لعناتٍ لا تحصى، لأنه كان يعيش على جهد الآخرين وعملهم، غير أن منظره راقداً هنا في هذه النهاية البائسة لحياته الماضية، لم يمنحه الشعور بالرضا.

تركه وخرج يبحث عن القسّ الذي كان قد عاد بعد جولة خريفية في الأبرشية المجاورة.

لقد سمع القسّ يوهانس ماليبرغيت بقصة الطفلين، ومحنة إنغريد معهما، لكنه عذر سكّان القرية لأنهم كانوا متأثرين برؤية الناس الأغنياء ينتهون مثل الآخرين، لأن الحياة جحيم. وأن هناك دلائل كثيرة على أن الشاب توميسين قد انتحر، وقال القس العبارة الأخيرة بصوت خفيض، وأن زوجته الشابة في مصحٍّ في بودو، ولا بدّ من وجود حدود لشماتة الناس بآلام الآخرين، وهذا ما سيذكره في عظة يوم الأحد، التي يعمل على كتابتها الآن. وسأله ما إن كان يريد كأس مشروب صغيراً؟

قبِل هانس العرضَ ممتناً.

تناول هانس ثلاث كؤوس، وجلسا صامتين بعد أن اتفقا أن ليس أمامهما سوى الانتظار، ربما كان لزيزينيا عائلة قد تأخذ الطفلين، لكن القسّ شكّك في ذلك لسببٍ لم يفهمه هانس. ثم قال هانس فجأة: «ربما بوسعك رعايتهما!».

«ماذا تقصد؟».

«الطفلين».

«أنا؟».

«أجل، أنت!».

أطرق يوهانس ماليبرغيت وحدّق في حضنه، ثم نظر إلى الحائط مطوّلاً قبل أن ينظر ثانية إلى هانس بارأوي، ثم خفض نظره في نوعٍ من الاعتذار، وغمغم بأن صندوق المساعدة الاجتماعية ضعيف مثل العادة، وما يقدّمه يكاد لا يسدّ جوع المحتاجين، والطفلان غنيّان، أو كانا غنيّين، هذه هي الحقيقة، لقد كانت نظراتهما تتصارع بصمت حول ماذا نفعل

بالأغنياء عندما يصبحون فقراء، المنطق معكوساً، التاريخ معكوساً، وهذا لغوٌ مثل الزعم بأن الماء يجري صعوداً.

جاءت كارين لويس ووقفت بالباب، وبدا أنها تفكّر في أن تقدّم لهما ضيافة خفيفة، لكنها غيّرت رأيها وغادرت، وبقيا جالسين صامتين لبعض الوقت، ثم نهض هانس، صافح القسّ وشكره على المشروب.

شكره القسّ أيضاً.

خرج هانس، وتوجّه إلى المركز التجاري وتبضّع بأكثر ممّا يملك من نقود، كما هي عادته، لكنه يعتمد على رصيد سمعته الجيّدة في سداد الدين، ثم أبحر عائداً عبر الفيورد في مساء وردي اللون ينذر بتغيّرٍ في الطقس، بالصقيع وهبوب رياح شرقية. فكّر هانس بالطحالب في الصناديق المعلّقة في المطبخ، وغمغم: «ماتوتينوم، ماتوتينوم...».

وهذه كلمة لاتينية تعني: «غداً»، قرأها في كتاب مواعظ وجده في موقع عمل السكة الحديد، وسكنته منذ ذلك الوقت، وبقي يردّدها مثل نغمة بديعة، أو مثل سُكّرة في فمه. ونادراً ما عاش هذا الشعور بالجدّية لدى عودته إلى البيت، إلى جزيرته، وهو الرجل الذي خبر كل فنون التحايل على الشوق للبيت دون أن يهلك، والآن حُسِم الأمر أخيراً، حتى هناك في بيت القس، فعندما ينهار كل شيء، تبقى الجزيرة صامدة، لقد عرف ذلك بالتأكيد، لكنه لم يدركه بالطريقة الدينية كما هي الحال الآن والعالم منحرف وهو ينوء تحت عبء إضافي أكثر من أي وقت مضى، فكّر في ذلك كله وأنزل الشراع قبل أن يصل إلى الرصيف كي ينزلق القارب بسلاسة في ما بقي من مسافة إلى الشاطئ، فإلى سقيفته، ويصطدم حديد المقدمة بالمزلاج الخشبي.

لكنّه لم يدخل البيت.

حمل المشتريات إلى السقيفة، رفع القارب بالرافعة، وجلس على عتبة باب السقيفة وأخرج غليونه ليدخّن، عندئذٍ لاحظ أنه لا يستطيع أن يفرد أصابع يده اليمنى، وكأنه لا يزال يقبض على ذراع الدفّة. بقي هناك جالساً يدخّن غليونه شاخصاً بنظره إلى الشمال، إلى لون المساء الوردي الذي يتحوّل ببطء إلى اللون الأزرق. وهناك وجدوه ميتاً.

كان متيبّساً في وضعيّته، حتى عندما مدّدوه على الأرض، بدا أنه في وضعية الجلوس. لم يستطيعوا أن يغيّروا تلك الوضعية، ولم يكونوا قادرين على النظر إليه، فوضعوا فوقه بطانية، وكان لارس الشخص الوحيد بينهم القادر في تلك اللحظة على إخراج القارب والتجديف إلى المركز التجاري ليذيع الخبر.

- 44 -

كانت تلك أكثر حالات الوفاة عبثية على الساحل الطويل. لم يكن هانس مارتينوس بارأوي قد تجاوز الخمسين عاماً عندما مات، وكان قوياً مثل دبٍّ. ووصل القسّ ماليبرغيت إلى الجزيرة وفمه مليء بكلمات الصدمة والمعاناة وبعض المصطلحات البحرية أيضاً، ولم ينسَ أين يعمل وأن فرائصه ترتعد خوفاً من ركوب البحر دوماً. هل يوجد ما هو أخطر من الموج، فكّر القسّ، عندما وصل إلى الجزيرة منهكاً بعينين تسبحان في وابل المطر المتواصل بحثاً عن ماريا التي كانت جالسة، يداها في حضنها، وقد أخرستها الصدمة. ولم يكن حال إنغريد أفضل.

لكن ما هذا الذي في نظرة لارس؟

كانت باربرو قد أدارت ظهرها وهي تصرخ على الطفلة الصغيرة، وتتجنّب النظر إلى القسّ، لقد انهارت الحياة من حولهم، ويوهانس مالبرغيت عليه أن يقرّر كلّ ما يلزم الآن، نقل الجثمان وترتيب أمور الجنازة.

عندما حان يوم الجنازة، جاء أدولف من مالفيكا، وتوماس من ستانغهولمن ليأخذا العائلة بقاربيهما وسط طقس سيّئ جداً أيضاً، لحضور

أبسط مراسيم جنازة أقامها القس ماليرغيت، قبل أن يضمّ يديه في نهاية الجنازة ويتمتم ببعض الشعائر. وقال إنه سوف يزورهم في الجزيرة في أوقات منتظمة ليتفقّدهم، ويبحث أمر الطفلين أيضاً. عندئذٍ فقط سمع الكلمات الوحيدة التي نطقتها ماريا منذ وفاة زوجها: «هل يفكّر في أن ينتزع الطفلين مني أيضاً؟!».

في اليوم التالي بعد الجنازة، نهض لارس وأشعل المدفأة، وأنزل صناديق السمك المعلّقة بالسقف فوق المدفأة، ثم أيقظ إنغريد لتصنع القهوة لماريا وباربرو. لم تكن إنغريد راغبة في مغادرة السرير.

قال لها لارس أن لا خيار آخر أمامها.

لكن ما هذا الذي في نظرة لارس؟

وأمضى بقية اليوم هو وفيليكس على ظهريهما تحت أرضية الغرفة، وملأا الصندوق الخشبي بالطحالب لعزل الخرطوم ثم سمّراه ثانيةً. بعدئذٍ طيّنا الفتحة في أساس الجدار. قرّر لارس إنهاء المدرسة، لقد أصبح الأمر واضحاً لكلّ ذي عقل في الجزيرة. جدّف بالقارب مع بعض العدّة إلى مولتهولمن، ودقّ مربطاً حديدياً في الصخر. وكان فيليكس يساعده بتثبيت قطعة قماش حول الإزميل لمنع تطاير نثرات الصخر عندما يطرق لارس بالمطرقة. وعندما سأله فيليكس ما الذي يفعله، قال لارس إنّ عليه أن ينتظر ليعرف.

جدّفا عائدين إلى بارأوي، دخلا إلى السقيفة الجديدة وحملا خمس شباك، ثم جدّفا ثانية إلى مولتهمولمن ومعهما رافعة حبلية وحبل مرساة، ثبّتا الرافعة، لفّا الحبل حولها، ثم جدّفا عائدين إلى بارأوي، حيث دقّا هناك مربطاً آخر أيضاً. وهكذا مدّا في البحر حبلاً بخمس شباك وأغلقا نصف المضيق، ثم سحباه إلى الأمام قليلاً فأصبح معلّقاً في الوسط.

رأتهما باربرو من البيت، فجاءت وسألتهما ما الذي كانا يفعلانه. قال لارس إنه صار بوسعهم الآن أن يصطادوا من الشاطئ، حتى في الطقس السيّئ، ففي المضيق يوجد سمك القد والبولاك، والفلاوندرز(*)، وفي الصيف يمكن أن يصيدوا سمك السلمون. وهو يفكّر في إغلاق المضيق بين باراوي وجيس أوي، وبين باراوي وسكرافهولمن الأقرب، وهكذا يصبح عدد الشباك خمس عشرة شبكة.

هزّت باربرو رأسها.

قال لارس إن هذا ما كان ينوي هانس القيام به عندما يصبح عجوزاً وغير قادر على ركوب القارب. عادت باربرو وأخبرت ماريا بما يفعلانه. لم تُبدِ ماريا أيّ ردّ فعل، كانت هي وإنغريد جالستين وكلٌّ منهما في حضنها عدّة حياكة الصوف، كما لو كانتا تقلّد إحداهما الأخرى. بدأت باربرو بإعداد الطعام. في هذا الوقت كانت سوزانا قادرة على الوقوف بجانب الطاولة وأن تعضّ حافتها. لم يضحك أحدٌ منها. كانت تقع وتنهض ثانية وتعضّ حافة الطاولة وتقف هناك. وإنغريد تحيك الصوف وهي تبكي، حتى جاء لارس وقال لها إنها ينبغي أن تذهب معه إلى جيس أوي، فالمضيق هناك عريض، والطقس سيّئ، وفيليكس صغير على هذه المهمة.

دخل وراءه فيليكس وهو يصرخ إنه ليس صغيراً.

ذهبوا ثلاثتهم، دقّوا مربطاً حديدياً في صخور الزاوية الشمالية من جيس أوي، ومربطَين في كلٍّ من جزيرتي سكارفهولمن الصغيرتين، ثم وضعوا ثلاث شباك في المضيق الأخير. وكان قد أدركهم المساء. فعادوا

(*) وهو معروف أيضا باسم «السمك المفلطح»، ويوجد عادة في قاع البحر. تستقر هذه الأسماك على جانبها الأيسر وكلا العينين على الجانب الأيمن، ويطلق عليها الفلاوندرز أيمن العينين، ونقيضه هو الفلاوندرز أيسر العينين. (م).

إلى سقيفة القارب وقطعوا بعض السمك المملّح، وجلبوا بعض البطاطس من القبو وعادوا إلى البيت. قالت باربرو إنهم عادوا في الوقت المناسب.

أخبرتهم باربرو: «سوزانا الصغيرة تستطيع أن تقف الآن!»، وبدأت تغسل البطاطس بينما جلسوا ثلاثتهم يتفرّجون على سوزانا. نظر لارس إلى ماريا، التي بدا أنها تنام بعينين مفتوحتين. قال إنها المرة الأولى التي يكون لديهم كراسيّ كافية في باراْوي.

«كلا، ليست المرة الأولى!»، قالت ماريا.

وكانت تلك العبارة الوحيدة التي قالتها في ذلك اليوم.

لكنّها لم تنبس بكلمة واحدة في اليوم التالي.

سحب لارس وإنغريد وفيليكس الشباك، وملؤوا ثلاثة صناديق من سمك القد والبولاك، ونظّفوا السمك في السقيفة، ربطوا أسماك القد من ذيلها، ثم حملوها وعلّقوها أزواجاً على سقالة التجفيف، وبعدئذٍ قاموا بتشريح سمك البولاك وأخذوه معهم إلى البيت، وكانت شرائح كبيرة. فرمتها باربرو وصنعت منها كعك السمك، قلته بالزيت، وسلقت بطاطس وجزر، بينما كانت سوزانا تمشي ثلاث خطوات ثم تقع. وهكذا كرّت الأيام دون أن تنطق ماريا بكلمة واحدة. كانت إنغريد تنام معها في الصالة الجنوبية، وفيليكس ولارس ينامان في الصالة الشمالية، بينما تنام سوزانا مع باربرو. وبقيت غرفة إنغريد فارغة. لا أحد ينام فيها.

بعد عشرة أيام، سأل لارس ماريا ما إن كان لديهم نقود، فهم بحاجة لشراء بعض البضائع. لم تردّ ماريا على سؤاله. لكن إنغريد، التي سمعت سؤاله، أخذته وصعدت إلى الصالة الجنوبية، وأرته النقود في الجيب الداخلي في صندوق ماريا، وقالت إنهم سيستلمون مبلغاً من شركة الألبان قبل عيد الميلاد، لكنه سيكون مبلغاً ضئيلاً. طلب لارس أن ترافقه إلى

المركز التجاري لشراء بعض الأشياء من أجل عيد الميلاد، وأكّد ثانية أنه لم يكن راغباً في اصطحاب فيليكس.

«لماذا؟».

«لأنه يعاني من دوار البحر».

«وأنت تعاني منه أيضاً».

قال لارس إنه اعتاد عليه، وأن فيليكس يقع كثيراً في القارب، وأن الجروح في يديه لا تلتئم بسبب الملح والصقيع. قالت إنغريد إنها ستنظر في الأمر. نزلا إلى المطبخ وسألا ماريا ماذا يحتاجون من المركز التجاري. لكن ماريا لم تردّ. وقد بدأت تفوح رائحتها. فقرّرت إنغريد أن تجبرها على الاستحمام، عرفت في الوقت نفسه أنها قد لا تنجح في ذلك. فسألت باربرو عن احتياجاتهم. فذكرت باربرو أسماء بعضها مثل: الجزر، والسكّر، إلخ. انتزع لارس ورقة يوم خميس قديم من التقويم المعلّق على حائط المطبخ، دوّن عليها أسماء المشتريات ووضعها في جيبه. ثم سمعوا صافرة سفينة الألبان، وخرج لارس وإنغريد لملاقاتها.

بدّلا ممخضات اللبن الفارغة بالمليئة. غير أنه كان على متن السفينة صندوقٌ لفت انتباه إنغريد حالما وضع بولص الحبال حوله لرفعه وإنزاله إلى الرصيف، إنه صندوق زيزينيا. أخذت إنغريد بولص جانباً وقالت له: «أمي مريضة!».

«ما بها؟».

«أعتقد أنها على حافة انهيار عصبي».

ثبّت بولص حبل الربط الثاني، وساعدهما في حمل الصندوق إلى البيت، وضعه على المقعد في المطبخ، واستدار ليتحدّث إلى ماريا، التي لم تردّ عليه، حتى إنها لم تلاحظ وجوده أمامها. وقف في مكانه يتلفّت

حوله. وكان لارس وفيليكس واقفين يحدّقان إليه بعيون محتقنة بالدماء وعلى وجهيهما آثار ملح البحر وشعرهما طويل، ورطب، وأشعث. سألهما بولص ما إن كانا ينامان. فأجابه لارس إنهما ينامان قليلاً. وكانت سوزانا واقفة بالقرب من باربرو ممسكة بطرف تنورتها بيد، واليد الأخرى في فمها. وباربرو تقف وظهرها إلى بولص، وكأنها تتجاهل وجوده هناك، ربّان سفينة الألبان هذا، لم يكن موجوداً هنا مطلقاً. ثم صاحت وكأنها تخاطب الحائط أمامها، إنهما لم يناما قطّ، ويمضيان معظم الوقت في البحر،.والبحر مخيفٌ، وقد أوشكا على الموت.

طلب بولص من إنغريد أن ترافقه إلى السفينة، فهناك شيء ما لها. خرجت إنغريد معه وسمعته يقول إن وضع ماريا سيّئ جداً، وإنه سيرفع تقريراً بذلك، وإن شخصاً ما سيأتي لمساعدتهم.

صعد بولص إلى السفينة، ثم عاد ومعه رسالة، سلّمها لها وهو يدقّق النظر في وجهها وسألها ما إن كانت تنام أيضاً. نظرت إنغريد إلى الرسالة، ثم نظرت إليه. فهزّ رأسه وحَلَّ حبل ربط السفينة، وقال إن عليها أن تُبقي الصبيّين بعيداً عن البحر، في البيت حيث هما الآن، كما قال إن باربرو كانت على حقّ في ما قالته.

قالت إنغريد إنها ستفعل ذلك.

صعد إلى السفينة ثانية، وأبحر إلى الوراء في العاصفة.

في مطبخ البيت كانوا قد فتحوا الصندوق. فيه أدوات المائدة وقد كُتب على ظهر كلّ قطعة منها: «Königzelt»، صُنعت في بولندا، وكان يفصل بينها أوراق تلك الجرائد التي لم تقرأها إنغريد عندما كانت تخدم في بيت توميسين.

أخرجوها قطعةً قطعة، وكوّموها على الطاولة، وجمعوا أوراق

الجرائد. كان هناك اثنا عشر طبقاً مُذَهّب الحواف ومُزهّراً واثنا عشر صحناً كبيراً، واثنا عشر صحناً أصغر، اثنتا عشرة صحفة، واثنتا عشرة زبدية. الفناجين فقط لم يكن عددها اثني عشر، بل أحد عشر، وأحدها دون مقبض. وكان هناك أيضاً زبديّتان للمرق، وطبق، بغطاء، للبطاطس، وأربعة أطباق كبيرة مسطّحة، اثنان منها دائريان، واثنان بيضويان، إبريقا حليب من قياسين مختلفين، وسكّرية بغطاء، وغلّاية قهوة بغطاء، وزبدية مدوّرة سميكة لم يعرفوا لها استخداماً، لكنها كانت جميلة مثل كل القطع الأخرى. قالت باربرو إنهم يمكن أن يضعوا فيها الحساء، وكان هناك قطع تشبه الطناجر والأطباق معاً. وفي أسفل الصندوق وجدا صرّة خضراء اللون مربوطة بشريط أصفر وفيها أربع وعشرون ملعقة فضية صغيرة، وكان لونها أسود. وضّبَت باربرو هذه الأشياء في غرفة المؤونة. وحمل لارس وفيليكس الصندوق إلى الصالة الشمالية. طبخت إنغريد سمك الهلبوت، وأضافت إلى الماء بضع قطرات من الخلّ وأوراق الغار، لقد تعلّمت ذلك من زيزينيا. أكلوا من الصحون الجديدة وختموا الطعام بالقشدة. كسرت سوزانا طبقها. فأحضرت باربرو بدلاً منه من غرفة المؤون، وقالت لها إن كسرت هذا أيضاً، فسوف تضربها. بعد الطعام عالجت إنغريد الجروح في يدي فيليكس وقالت ينبغي أن يبقيها جافة بضعة أيام. فرمى فيليكس لارس بنظرة استفسار.

- 45 -

لثلاثة أيام متتالية لم يستطيعوا الخروج إلى البحر، لكنهم صادوا بالشباك عن الشاطئ، ونظّفوا وعلّقوا معظم أسماك القدّ لتجفّ، وملّحوا البقية، حلبوا وأطعموا الحيوانات، وتركوا الأغنام في الخارج حتى سئمت الطقس السيّئ وتجمّعت أمام باب الحظيرة، فهي تريد الخروج عندما تكون في الحظيرة، وتريد الدخول عندما تكون في الخارج.

ولم تكن هناك رحلات إلى المركز التجاري.

لم تستطع إنغريد أن تحمّم ماريا، أيضاً. لكن عندما هدأت الريح واستعدّوا للإبحار إلى اليابسة، جاء القسّ ماليرغيت مع سفينة الألبان، وبرفقته طبيب.

فحص الطبيب ماريا وقرّر أنه يجب أن يأخذها معه. وضّبت إنغريد الحقيبة الصغيرة التي استعملتها هي وباربرو عندما اعتقدتا أنهما مغادرتان الجزيرة.

عندما غادر القسّ والطبيب ومعهما ماريا، قالت إنغريد للارس إنهما سيؤجّلان الرحلة إلى البرّ الرئيسي. سألها لارس عن السبب، لأن كل شيء لديهم قد نفد تقريباً. لم تجبه إنغريد. وصمت لارس أيضاً.

نزعت إنغريد ملاءات السرير في الصالة الجنوبية، وغَلَتها في المرجل الموجود في سقيفة القارب السويدية، وعلّقتها حتى تجفّ في سقيفة الرصيف. ثم وضعت مكانها ملاءات جديدة وقالت لباربرو إنها ليست مضطرّة بعد الآن أن تشتكي من ضيق السرير عليها، لأن سوزانا ستنام معها في السرير بدءاً من اليوم. قالت باربرو إن ذلك لم يكن ضرورياً. فأجابتها إنغريد إنها هي من يقرّر ذلك. فابتسمت باربرو وصمتت. نقلت إنغريد ملاءات سوزانا إلى الصالة الجنوبية، وبدأت تعلّمها المشي، بشكل منهجي، وبلا رحمة، تلبسها ثيابها وتخرج بها إلى الفناء. وعندما يهطل المطر كانتا تمشيان جيئة وذهاباً في سقيفة الرصيف أو في سقيفة القارب، أو في غرفة الجلوس.

كان لارس وفيليكس يصطادان بالقارب أو بالشباك عن الشاطئ. التأمت جراح فيليكس، وانفتحت ثانية، مثل أفواهٍ بيضاء منتفخة بألسنة دم حمراء صغيرة. لكنه ما عاد يقع في القارب كثيراً، ولم يصب بجراح جديدة. كانت إنغريد وباربرو تحلبان الحيوانات وتطعمانها، وتطهوان الطعام. وبدأت سوزانا تمشي كلّ يومٍ بخطا ثابتة أكثر، كما بدأت تتكلّم، أيضاً.

«موقد ساخن».

«نعم».

«في المدخنة أيضاً».

قبل عيد الميلاد بيومين هدأت الريح، وصار بوسعهم أن يبحروا إلى اليابسة ليتبضّعوا، لكنهم لم يجرؤوا على رفع الشراع، وكان وضع فيليكس سيّئاً طوال الرحلة، تقيّأ كثيراً وتمنّى الموت، لكنه تعافى حالما وطئت

قدماه أرضاً صلبة. لم يكن قد شاهد بيته منذ شهرين. لكن ها هو ذا البيت هناك، كبيرٌ ومعتم، من ورائه الأشجار العارية، وفوقه طائر الطقس بصريره الحاد، وبدا أنه لم يميّزه في البداية. لكنّه فجأة قال: «هذا بيتنا!».

«كلّا!»، قالت إنغريد.

دخلوا المركز التجاري، واشتروا كيس الجزر، الذي لعن لارس نفسه بسببه وقال، إنها المرة الأخيرة التي يشتري فيها الجزر، وإنه سيبدأ بنفسه زراعة الجزر في بارأوي. واشتروا البارافين، والطحين، وكل الأشياء التي كان قد دوّنها على ورقة يوم الخميس من شهر تشرين الثاني التي انتزعها من التقويم، ودون أن يجيب عن أسئلة مارغوت، التي أصبحت ودودة فجأة، لكن إنغريد تجاهلتها، ونعتها لارس باللقيطة عندما خرجوا من المتجر.

ضحك فيليكس منبهراً. وفي طريق العودة لم يلاحظ وجود بيت طفولته. لكن إنغريد لاحظت أمراً: أن ذلك الشيء الغريب في نظرة لارس قد اختفى.

ولم يرفعوا الشراع في رحلة العودة، أيضاً، بل جدّفوا. وعلى الرصيف كان في انتظارهم باربرو وسوزانا، وكلاهما تبكيان. سألوا باربرو ما الذي يبكيهما. لكن باربرو لم تجبهم، حملت كيس الجزر على ظهرها، وعادت إلى البيت. قالت إنغريد لسوزانا إنها لن تحملها بعد الآن، كلّا، أبداً. وإن عليها أن تعود إلى البيت وحدها، حتى لو اضطرّت أن تزحف.

وقد زحفت فعلاً، آخر خمسين متراً، لكنّها صعدت أول منحدرين على قدميها.

في اليوم التالي، كانت الرياح ساكنة تقريباً. والسماء كحلية وبرّاقة مثل بحر متلألئ. جدّفت العائلة إلى سكوغهولمن لقطع أجمل شجرة عرعر من أجل عيد الميلاد، كما جرت العادة قبل يوم من عيد الميلاد. وكانت

إنغريد قد قرأت الرسالة التي جاءت مع صندوق أدوات زيزينيا. ولن تشارك أحداً بالسر الذي تضمنّته الرسالة، فقد كُتب في الرسالة إن زيزينيا ترقد في المستشفى في بودو، لكنها ستعود قريباً، على الرغم من أن المركز التجاري والبيت قد بيعا في مزاد علني، وإن يكن الغرباء لم يستلموهما بعد.

لم تعرف إنغريد كيف ستصرّف.

وفي طريق العودة قالت إنهم حالما يضعون الشجرة في البيت، ينبغي أن يستحمّ لارس وفيليكس، في الجرن، في الحظيرة، ولن يشفع لهما الصقيع. إضافةً إلى أنهم سيحضرون عدّة صيد هانس قبل أن يأتي العم إرلينغ، ليأخذها معه إلى لوفوتن، وهكذا يحصلون على نصف حصة على الأقل، وهذا يعني بضع مئات من الكرونات. وكانت إنغريد تجيد تحضير الأشراك، تضع خطاطيف الصيد في الخيوط الطويلة، وكذلك يعرف لارس، ويمكن لفيليكس أن يتعلّم ذلك.

- 46 -

لكن الوقت لم يكن في جانبهم. ففي اليوم التالي ليوم عيد الميلاد رسا قارب بارأوي بجانب الرصيف. وكان في قمرة القيادة العم إرلينغ الغاضب جداً، وكان يشتم القسّ اللعين الذي لم يرسل ليخبره عن وفاة أخيه إلا قبل يومين من عيد الميلاد، لأنه أرسل البرقية مع قارب كان لا بدّ أن يمرّ بالكثير من الجزر، ولهذا لم يتسع لهم الوقت للاستعداد لموسم الصيد. وكان برفقته زوجته هيلغا، وابنهما، آرنولد ذو الثمانية عشر عاماً، وثلاثة صيّادين.

لكن، أين ماريا؟

يا إلهي، كل شيء ينهار هنا!

لقد جلبوا معهم نصف خنزير، وسطلاً من السجق. نظّفت هيلغا وباربرو وإنغريد البيت، وأشعلن المدافئ في كلّ الغرف، حتى في غرفة الجد مارتن، حيث استقرّت هيلغا مع حقيبتها، كتابها المقدّس، مذبح عيد الميلاد، ومفرش طاولة مطرّز، بينما نام البحّارة على متن القارب.

أراد لارس أن يذهب مع إرلينغ إلى لوفوتن، لكن ذلك مستحيل، فقد كانوا يصيدون بعيداً في أعماق البحر، وهو ما زال فتىً في الثانية عشرة. جادل لارس في أنه يمكن أن يبقى على الشاطئ ويضع الطعوم في الأشراك.

«لدينا الكثير من عمّال الطعوم»، قال إرلينغ، وأمره بالبقاء في بارأوي والاهتمام بأمور العائلة. وعلاوة على ذلك، عليه أن يتابع دراسته. وستبقى هيلغا في بارأوي حتى تعود ماريا.

«أعتقد أنها ستعود؟».

لكنهم لا يعرفون.

وقف البحّارة الثلاثة ولارس وإنغريد وفيليكس في سقيفة الرصيف الجديد، وحضّروا الأشراك طيلة فترة الميلاد، ربطوا الثقّالات إلى خيوط الصيد، وجهّزوا حبال العوّامات والثقّالات والأقفاص؛ استطاعوا أن يحضروا طقمي صيد بطريقة هانس المميّزة، وبهذا سيحصلون على حصة صيد كاملة وفقاً لخطة العم إرلينغ السخية. في الثالث من كانون الأول كانوا جاهزين، وأبحر قارب العم إرلينغ في عاصفة جديدة، بينما كان لارس وإنغريد وفيليكس واقفين على الرصيف وأعدّوا خطّتهم الخاصة.

لم تسِر العلاقة بيُسر مع هيلغا.

كانت هيلغا محبطة بسبب غياب ماريا، ولم تُخفِ إحباطها. وأغاظها كثيراً أن لا أحد من الأولاد رغب في أن يحدّثها عن والديه، وكانوا يديرون ظهورهم كلّما حاولت أن تعرف ما الذي حدث.

إضافةً إلى أنها تقيّة جداً ومتشدّدة في أمر النظافة، وحاولت أن تأخذ مكان الكنّة، كما لو أن باربرو لا تعرف أن تدير بيتاً. ولم تسمح لفيليكس أن يخرج إلى الصيد في البحر، طفل في السابعة من عمره على متن قارب وسط البحر، هذا أمرٌ لا سابقة له.

طلبت باربرو من ضيفتهم أن تكون حريصة في استهلاك كمية التورف الموجودة في حجرة مارتن القديمة. ولم يكن لدى هيلغا أدنى فكرة عن قطع التورف المغطّاة بالثلوج، وصارت تبرد في الليل واضطرّوا إلى

إعطائها لحاف عيدر إضافياً. وبما أنها زوجة ربّان سفينة، ولديها خادمة في البيت في بوأوي، لم تدخل الحظيرة في بارأوي أبداً. حتى سوزانا تجاهلت كل طلباتها أو أوامرها، بتدبير من إنغريد. وفيليكس، أيضاً، لم يستجب لأيٍّ من أوامرها أو طلباتها، وبدلاً من ذلك، كان يقف بجانب باربرو وينتظر حتى تنشغل هيلغا بأمر آخر؛ فيقوم هو بالعمل.

مع بداية الفصل الدراسي، لم يلتحق لارس بالمدرسة. بقي في بارأوي، كان يتصرّف باعتباره رجل العائلة، كما لو أن لا وجود لمدبّرة المنزل الجديدة. كان فيليكس يخرج معه للصيد في البحر، على قدر احتماله، أو إنغريد في حال لم يستطع فيليكس. كانوا يجفّفون سمك القدّ، ويأكلون البولاك دون تمليح، والحدوق أيضاً، الذي كانت هيلغا تصنع منه كعك السمك، ويأكلونه في أطباق البورسلين البولندية؛ وبعد مضيّ أسبوعين فقط من العام الجديد، قرّرت هيلغا ذات مساء، بعد أن جلست في الكرسي الهزّاز، كرسيّ مارتن العجوز سابقاً، تراقب سوزانا تنطّ جيئة وذهاباً، أنها ستعود إلى بيتها، لأن كلّ شيء على ما يرام هنا.

بعد يومين غادرت مع بولص، وأخذت معها كتابها المقدّس، والمذبح، وكلّ أشيائها الخاصة. إنغريد فقط عانقتها لحظة الوداع، أما باربرو فودّعتها بابتسامة لطيفة بينما كانت واقفة تمسك بيد سوزانا، وتشرح لها كيف ستلوّح لقارب يغادر الجزيرة.

«الآن ينبغي أن تلوّحي لهم!».

في الرحلة التالية أرسى بولص سفينته، أنزل ممخضتَي الحليب الفارغتين، ثم نزل إلى الرصيف، ليتحدّث مع لارس، أراد أن يشتري منه بضعة صناديق من سمك القدّ في الرحلات القادمة، فقد كانت غلّة الألبان قليلة الآن، وسيشتري منهم السمك بفارق ضئيل عن الثمن الذي يتقاضونه

في المركز التجاري، الذي بدأ مالكه الجديد بانغ يوهانسون، يشتري السمك ثانية.

«لماذا ليس الثمن ذاته؟!»، سأل لارس.

«كلفة النقل!»، قال بولص.

«لكنّك لا تدفع كلفة نقل!»، قال لارس.

«ما الذي تدفع ثمنه؟».

«ماذا عن الوقود؟».

ابتسم بولص ابتسامة عوجاء وقال إنهم سيتفقون على السعر وقت التسليم. فقال لارس إنه يريد من بولص فاتورة، تبيّن وزن السمك في كلّ صندوق، في كلّ مرّة يستلم فيها السمك، ولديهم ميزان قبّان في الجزيرة، وهكذا سيكون الوزن دقيقاً، وإنهم يريدون أن يكون الدفع مباشرة.

لم يتمالك بولص نفسه من الضحك، وقال إنه لم يسمع بهذه الشروط من قبل، وطلب أن يتحدّث إلى إنغريد. ذهب لارس ثم عاد مع إنغريد التي كرّرت كلام لارس. أخيراً، اتفقوا على أن بولص لن يدفع عند الاستلام، بل كل ثالث مرّة، أي مرّة في الأسبوع، وألّا يحمّلانه أي فوائد في حال تأخر عن المجيء والدفع بسبب سوء الطقس. وضحكا ثلاثتهم من هذا الشرط الأخير. لكن لارس وإنغريد تبادلا نظرة غريبة.

في غضون أسبوع تسلّم بولص ثلاثمئة وواحداً وتسعين كيلو، وفي الأسبوع التالي أربعمئة وثلاثة وأربعين كيلو، ثم انخفضت الكمية إلى ثمانين كيلو فقط. وحصل ذلك بعد أن كان لارس وإنغريد في المركز التجاري وعرفا أن لارس لا يبيع السمك طازجاً في المركز، بل يجفّفه على سقالاته الخاصة التي أقامها على الصخور أسفل مزرعته، وهذا لأن سعر سمك القدّ المجفّف أفضل من سعره طازجاً، رغم أنه لا يشكّل سوى

ربع وزن السمك الطازج. لقد ذهبا وشاهدا السقالة التي أقامها بولص، ولاحظا أنها تشبه سقالتهم في بارأوي، على الصخور النظيفة. وهكذا لم يسلّماه في الأسبوع الرابع إلا صندوقين في كلٍّ منهما ثمانية عشر كيلو. فتساءل ما إن كانا يرتاحان في هذا الطقس الجيد، هاها، هاها.

قال لارس إنهم فقدوا بعضاً من شباكهم، وحصل من بولص على فاتورة بستة وثلاثين كيلو، وملاحظة لاذعة كيف أن سقالات تجفيف الأسماك لديهم يزداد حِملها باضطرادٍ. لم يُبدِ لارس أي اهتمام بملاحظات بولص، وعاد إلى البيت وأعلن أنهم من الآن فصاعداً سيجفّفون بأنفسهم كلّ ما يصطادونه من سمك القدّ، والناب أيضاً، ثم يزنون الغلّة، ويبيعونها مجفّفة في المركز التجاري عندما يأتي المشترون، وخبراء الجودة، ثانية في شهر حزيران، وهذا ما اعتاد أن يفعله هانس ومارتن، من قبل.

لكن بولص لم يسمح بإبعاده، فعرض عليهما أن يسلّماه سمك القدّ مُشفّىً، وجاهزاً للتمليح في المركز التجاري، وبسعر مغرٍ جداً. وهكذا وقفت إنغريد ولارس في سقيفة الرصيف يعملان على تشفية سمك القدّ، ووزنه، ووضعه في صناديق، ثم وضع الثلج فوقه، عندما تمنُّ عليهم السماء به، وكان بولص يدفع لهم عند الاستلام فوراً. كما طلب منهما أن يبيعاه رؤوس سمك القدّ وعظامه، مجفّفة، مثلما يفعل الناس في لوفوتن. وحصل لارس وإنغريد على مخارز وخيطان لشبك الرؤوس، وربط العظام، ثم تعليقها لتجفّ على السقالات، لأنها ستُحوّل إلى سماد، وسيتقاضون ثمنها فور تسليمها أيضاً.

كان لارس قد بدأ يحسب، ويسجّل ملاحظات ويخطّط ويفكّر بطريقة جديدة وغريبة، وأراد أن يدير النقود التي يكسبونها بنفسه. لم توافقه إنغريد الرأي. تصايحا. فجاءت باربرو وحسمت الأمر. ستحتفظ هي بكلّ النقود،

وتعطيهم حصصهم بحلول الربيع. وسينال فيليكس حصّة أيضاً. اعترض لارس وقال إنه يعمل أكثر من فيليكس.

«أنت لا تعمل أكثر منه»، قالت باربرو، وسألتهم ماذا يفعلون برؤوس القدّ وعظامه التي يعلّقونها على السقالات.

«سيصنعون منها سماداً»، قال لارس.

«ماذا يعني ذلك؟».

«لا أعرف».

«يصدّرونها»، قالت إنغريد.

سألت باربرو ماذا تعني بالتصدير.

«يبيعونها خارج البلد»، قال فيليكس.

نظروا إليه مشدوهين.

«أين تعلّمت هذا؟».

«في البيت».

سألته إنغريد ما إن كان قد تعلّم أشياء أخرى مهمّة في بيتهم، يمكن أن يعلّمها لهم. لم يُجبها فيليكس. ونعتها لارس بأنها عجوز شمطاء. هدّدته إنغريد بسكّين تشفية السمك. فأمرتهما باربرو أن يوقفا هذه المشاحنات.

«أنتم أطفال تافهون!»، قال لارس.

ردَّ فيليكس: «نحن لسنا أطفالاً، نحن راشدون!».

ضحكت باربرو، وعادت إلى البيت. استمرّت إنغريد في تشفية السمك، نبّهها لارس إلى أنها تترك بعض اللحم على العظام. سألته إنغريد ما إن كان يريد درساً في تشفية السمك. تردّد لارس قليلاً، ثم قال نعم. علّمته إنغريد كيف يشفّي اللحم عن العظم. راقبها فيليكس مذهولاً، وسألها أين تعلّمت ذلك.

«أبي علّمني».

سألها لارس لماذا لم يعلّمه هانس ذلك بالطريقة ذاتها، أيضاً. لكن إنغريد لم تقل له لأنه لم يكن ابن هانس. بينما كان لارس منهمكاً بكلّ حواسه في تشفية السمك، كان فيليكس يراقب إنغريد وسألها: «هل نحن شقيقان؟».

سألته إنغريد لماذا يريد أن يعرف ذلك.

بما أنه لم يستطع أن يوضح نفسه، أجابته إنغريد إنهما ليسا أمّاً وابناً، ولا أخاً وأختاً. لكن لم يكن ذلك ما أراد فيليكس أن يسمعه. وبينما كان لارس منشغلاً على الرصيف برفع بقية غلّة الصيد، همست إنغريد في أذن فيليكس إنه شقيق لارس، لكن لارس لا يعرف ذلك، وأمرته أن يحفظ السرّ. اغرورقت عينا فيليكس بالدموع. لم تحتمل إنغريد ذلك المشهد، فقالت إنها لا تستطيع أن تضيّع المزيد من الوقت هنا، عادت إلى البيت، وتذكّرت رسالة زيزينيا، كما تذكّرتها مراراً من قبل، مرّات عديدة كل يوم، ولم تكن قادرة على الاحتفاظ بها أكثر من ذلك، كان ينبغي أن تحرق تلك الرسالة.

- 47 -

في شهر شباط تساقطت الثلوج بكثافة، وغمرت الجزيرة رغوةٌ صفراء. وغطّى البياض البحر، وعلى الرغم من ذلك اضطرّوا إلى الخروج لإنقاذ شباك الصيد قبل أن يزداد الطقس سوءاً.

قال لارس لفيليكس: «ما رأيك؟ هل نخرج لسحب الشباك؟».

«أجل!»، قال فيليكس.

ركبا القارب وجدّفا إلى الجزر الصغيرة. وكان الطقس فظيعاً، وما إن بدأا في سحب الشباك حتى وقع فيليكس في البحر. نجح لارس في سحبه إلى القارب ثانية، باستخدام رمح القارب، لكنّه هو نفسه كان مرهقاً جداً وشعر بخدرٍ في جسمه، ولم يعد قادراً على التجديف. انجرف القارب نحو الشاطئ وعلق في المنطقة الفاصلة بين بارأوي ومولتهمولمن، بينما كان لارس مستلقياً وممسكاً بفيليكس الذي كان عاجزاً عن الكلام. فحمل لارس فيليكس إلى اليابسة وهو يفكّر في إنجاز عملين في الوقت نفسه. أراد أن يحمل فيليكس إلى البيت وينقذ القارب أيضاً.

كان يحاول أن يبصر طريقه بين ندف الثلج المتساقطة بغزارة، والتي تسوط وجهه طوال الطريق.

وكم هو بعيد البيت؟

حمل فيليكس على ظهره ومشى. الطريق طويل، وفيليكس لا يكفّ عن الحركة. رأتهما إنغريد من نافذة البيت، فجاءت راكضة لمساعدتهما في ما بقي من الطريق. أدخلا فيليكس إلى المطبخ، حيث مزّقت باربرو ملابسه عنه، وبدأت تدلّك جسمه وتضربه، ثم مدّدته على المقعد وغطّته بلحاف عيدر، واستمرّت في تدليكه بينما كان يهذي وأسنانه تصطكّ. ووقف لارس بجانبها، بوجهٍ شاحب مثل الشبح، وقال إنهم ينبغي أن ينقذوا القارب، والشباك. فأمرته إنغريد أن يخرس. وكذلك قالت له باربرو وأمرته أن يخلع ثيابه أيضاً، وفي الحال. لكنه أصرّ على أنه ينبغي إنقاذ القارب وانطلق راكضاً خارج المنزل. لبست إنغريد معطفها وخرجت تركض وراءه عبر العاصفة الثلجية إلى المنطقة التي كان القارب قد علق فيها، وفي إحدى جانبيه فتحة كبيرة، وكانت الدفّة مكسورة، لكن المجدافين سَليمان، وكذلك قفّتا خيوط الشرك. خلع لارس سترته وسدّ بها الفتحة في جانب القارب، واستخدما المجدافين لدفع القارب بعيداً عن الشاطئ وجدّفا عبر المنطقة، والبحر يمور ويدفعهم وسط المنطقة حول الرأس البحري بجوار الرصيف السويدي، حيث سحبا القارب، وأفرغاه من الماء، ثم سحباه إلى أعلى نقطة ممكنة.

صاح لارس إنهما ينبغي أن يعودا ويسحبا الشباك أيضاً بأحد القوارب القديمة. سألته إنغريد ما إن كان قد فقد عقله. كان يركض غاضباً جيئة وذهاباً. صاحت إنغريد به إنه ليس طبيعياً، ولذلك لا يمكن أن يخرجا إلى البحر ثانية. هزّ كتفيه، ثم كشّر وسألها ما إن كانت تعتقد أن فيليكس سيموت. فقالت له كلّا.

وبدأت إنغريد ترتجف، واضطرّت أن تعود إلى السرير.

كان فيليكس ممدّداً في المطبخ وهو يهذي. وباربرو بجانبه، حتى في الليل، ولم تفارقهما سوزانا أيضاً، التي افتقدتها إنغريد، فنهضت ونزلت إلى المطبخ وتمدّدت بجانب المدفأة، وقالت إنها في حالة جيدة. أعادتها باربرو إلى سريرها ثانية، حيث استلقت مستيقظة حتى عادت باربرو حاملة معها سوزانا النائمة، ومدّدتها بجانبها في السرير، ثم جلست على جانب السرير وسألتها ما إن كانت خائفة من الظلام، فقالت إنغريد إنها ليست خائفة. ثم سألتها باربرو ما إن كانت قد رأت أشباحاً. فقالت إنغريد نعم. فطمأنتها باربرو إلى أن هذا بسبب الحُمّى. لكن الحمّى قد تراجعت الآن. أكّدت لها باربرو ذلك بعد أن لمست جبهتها. أومأت إنغريد برأسها. عندما استيقظت سوزانا في الصباح، طلبت من إنغريد أن تعلّمها حياكة الصوف.

«ما تزالين صغيرة على ذلك»، قالت لها إنغريد.

فقالت سوزانا إنّ ذلك ما كانت تقوله لها أمها.

«من هي أمك؟» سألتها إنغريد. فنظرت إليها سوزانا بعينين فارغتين. «أعتقد أنني أنا أمك؟» قالت إنغريد. تردّدت سوزانا قليلاً، ثم ابتسمت. نصحتها إنغريد أن تراقبها وهي تحيك الصوف، وهذا يساعدها في أن تتعلّم بسرعة عندما يحين الوقت. أحبّت سوزانا الفكرة. وهكذا كان بوسعها أن تتعلّم العدّ، ليس على أصابعها، بل أن تعدّ الغرزات وهي تحيك.

- 48 -

لم يمرض لارس. عندما هدأت العاصفة، خرج ولاحظ أنه لن يستطيع، بمفرده، أن يزحزح القارب المغمور بالثلج. جلب باربرو. نجحا في تحريك القارب ورفعاه على حاملَين خشبيَّين، كي يستطيع أن يتفحّص الفتحة في جانبه من الداخل والخارج. كانت الفتحة أكبر مما تخيّل، وكان أحد أضلاع القارب مكسوراً أيضاً. هزّت باربرو رأسها أسفاً. سألها لارس ما إن كانت تعتقد أن فيليكس سيموت؟

أكّدت له باربرو أن فيليكس لن يموت، وقالت له أيضاً إنّ بوسعه الآن أن يندم، لأنه لم يتعلّم من هانس كيف يصلح القوارب.

«ماذا تعرفين أنت عن ذلك؟»، قال لارس.

«ضعفَي ما تعرف!»، قالت باربرو مشدّدة على كلماتها، ثم عادت إلى البيت، لكنّها استدارت ثانية وصاحت عليه أن بوسعها أن تساعده بدعم اللوح من الخارج، عندما يريد تسميره من الداخل، أما ما تبقّى من العمل فعليه إنجازه بمفرده.

عاد لارس إلى السقيفة، حيث كان هانس يحتفظ بكلّ المواد، ووجد بضعة ألواح من خشب التنّوب الطويلة الخالية من العقد. نشر منها ما

يناسبه، نزع اللوح المثقوب من القارب واستخدمه كقالب، لكنه كان يحتاج إلى قطعتين إضافيتين، وبقي لبعض الوقت في حركة مكّوكية بين القارب والسقيفة، يأخذ القياسات، ثم ينشر، ويسوّي، ثم يخرج ويقيس ويرسم. وعندما انتهى، لم ينجح في ثني الخشبة لوضعها في مكانها.

جاءت باربرو وقالت له أن يجلب الخشبة معه إلى البيت، ثم يلفّها بقطعة قماش رطبة، ويضعها في صندوق تحت المدفأة ليوم أو يومين، فتصبح ليّنة. طلب منها لارس أن تفعل ذلك، لأنه لا يريد أن يدخل المطبخ ويسمع فيليكس يهذي، فهو لم يدخل المطبخ حتى ليأكل. قالت باربرو إن عليه فعل ذلك بنفسه، وهي ستجلب له قطعة قماش قديمة.

قال لارس إنه، في هذه الحال، لن يزعج نفسه في عمل ذلك.

«كلّا، كلّا، بل ينبغي أن تأكل أيضاً!»، قالت باربرو.

دخل معها إلى المطبخ، وفعل ما اقترحت عليه، واسترق النظر إلى فيليكس، الذي كان مستلقياً على المقعد وجسده ينتفض، ولم يلاحظ وجود لارس. عاد لارس إلى السقيفة السويدية، وبحث عن لوح خشب جديد لصناعة ضلع للقارب. لم يجد ما يبحث عنه. كان في السقيفة نافذتان، واحدة شمالية وأخرى جنوبية. فوقف ينظر عبر النافذة الشماليّة، كان البحر مثل بلاطة سوداء. مثل الرصاص. مثل القطران. بقي واقفاً ينظر عبر النافذة حتى لم يعد يرى شيئاً.

خرج واختفى وراء الصخرة، فإلى سقيفة القارب، أخرج القارب الثاني، وكان أقدم من القارب المثقوب، ولم يُستخدم منذ مدّة طويلة، إضافة إلى أنه كان يرشح قليلاً، لكن التجديف به سهل. أبحر باتجاه الجزء الشمالي من الجزيرة، ومن ثم إلى الجنوب عندما لمح أمه واقفة على الرصيف تلوّح بكلتا ذراعيها.

لم يكن يرغب في العودة، غير أن صوتها أجبره على العودة. سألها ماذا تريد؟ فقالت له أن ليس بإمكانه أن يذهب وحده. فجدّف صوبها. صعدت باربرو إلى القارب، وأزاحته جانباً، أمسكت بالمجدافين وجدّفت باتجاه الجزر الصغيرة، ووجدا مرساة الشباك الأولى. سحب لارس الحبل بينما ثبّتت باربرو القارب في مكانه، باستخدام المجدافين، وهي تفرغ الماء منه. عملا بصمت. غطّت الأسماك أرضية القارب، لكن أكثرها كان قديماً ومنهوشاً، وبعضها صالح للاستعمال. ثم سحبا كلّ الشباك.

جدّفا عائدين، كلٌّ بمجدافيه، إلى الرصيف الجديد، ورفعا السمك إلى الشاطئ. وبدأ لارس يشفّي السمك، وباربرو تضعه في صناديق، ثم تجرف الثلج وتنثره فوقه. عندما انتهيا، وصل بولص وتوقف بجانب الرصيف، حمّل ممخضتَي اللبن، رغم قلّة ما فيهما، والأسماك أيضاً، التي قال إنها مقبولة، رغم أن الكميّة لم تكن جيّدة، وبدت التشفية غير متقنة. قال له لارس إنه لن يحصل على سمك في الأيام القليلة القادمة، وكان على وشك أن يشرح له الأسباب، عندما قاطعته باربرو وقالت لأنهم مضطرّون إلى إصلاح القارب.

أومأ بولص برأسه، ثم صعد سفينته وأبحر.

في ذلك المساء توقف فيليكس عن الهذيان، وكانت عيناه حمراوين، ذابلتين وغائمتين، لكنه ابتسم من فوق حافة اللحاف، وطلب ماءً وطعاماً. لم يأكل الكثير، وسرعان ما عاد إلى النوم، لكنه نام بعمق. كرّر لارس سؤاله ما إن كان فيليكس سيموت.

وسمع الإجابة القديمة ذاتها.

صباح اليوم التالي، كان لارس أول المستيقظين، أشعل المدفأة، ووقف يراقب فيليكس وهو نائم وأنفاسه ثقيلة.

فتح فيليكس عينيه ونظر إلى لارس. سأله لارس ما إن كان قادراً على الكلام. أومأ فيليكس برأسه.

«كيف حالك؟!».

«لا.. بأس!».

أراد فيليكس أن يجلس، لكنه لم يستطع. فسأله لارس كيف يشعر الآن. غمغم فيليكس أن «لا.. بأس»، ثم استلقى ثانية، بينما كان لارس يشرح له أنه سوف يجدّف إلى سكوغهولمن ويبحث عن خشب ليصنع ضلعاً جديداً للقارب. أومأ فيليكس برأسه.

قال لارس ينبغي أن يكون من خشب التنّوب، لكن يمكن استعمال خشب العرعر أيضاً. حوّل فيليكس نظره إلى النافذة حيث تراكم الثلج على إطارها، وسأل عن الطقس. قال له لارس إنّ الطقس جيّد. رمش فيليكس بعينيه. خرج لارس ونزل إلى سقيفة القارب، وأخرج القارب القديم ثانية. كان ما زال يرشح، فاضطرّ أن يتوقّف مراراً لينزح الماء منه، وعندما وجد الخليج الصغير في طرف جزيرة صغيرة، ربط حبل القارب إلى المربط الذي كان هانس قد دقّه في الصخر لهذه الغاية، حمل الفأس والمنشار، وصعد الصخور وبدأ البحث.

استمرّ في البحث حتى بزغ النهار كاملاً.

ثم أعتمت ثانية عندما بدأت عاصفة ثلج، هادئة كثيفة. وكان البحر ما زال مثل لوحٍ من القطران. وعندما أضاء النهار ثانية، وجد شجرة عرعر قديمة مقوّسة، فأعمل فأسه في قطع جذورها الكبيرة لتحريرها من المنحدر المتجمّد، وشتم كثيراً لأنها أثلمت حدّ الفأس القاطع، قطع الجذور الواحد بعد الآخر، ثم نشر الجذع على بعد متر تقريباً من الجذور، وكان بحجم ذراع، ذراع شابٍّ.

عاد إلى القارب ثانية، نزح الماء منه وجذّف عائداً إلى البيت. وعندما دار حول مولتهمولمن، رأى باربرو واقفة تنتظر. سألها ما الذي تفعله هناك. فسألته ما إن كان يصيد. قال كلّا، ثم سألها كيف هي حال فيليكس.

«لا بأس!»، قالت باربرو.

رفعا القارب. وحمل لارس جذع العرعر إلى السقيفة السويدية، وبدأ في نشره. فقالت له باربرو إن عليه أن يجفّفه قبل النشر.

«ماذا؟!».

شرحت له باربرو أن ليس بوسعه أن يستعمل خشباً رطباً كضلع في القارب، ثم قالت إن العرعر أفضل من التنّوب، غير أن محاولته استعمال الخشب الرطب كانت حماقة. وعندما سألها عن السبب، قالت لأن العرعر قليل التقلّص والتمدّد، وهذا لأنه سميكٌ ولَدِنٌ.

سألها لارس ماذا تقترح عليه. قالت ربما عليه أن يجرّب خشب العرعر، ثم عادت إلى البيت بينما نزع هو الضلع المثقوب واستخدمه كقالب، وبقي يعمل حتى حلَّ المساء.

عندما دخل المطبخ ليأكل، وجد فيليكس جالساً على المقعد تحت اللحاف، ويسعل، وعيناه ما تزالان حمراوين، لكنه أكل بضع لقيمات وسأل بصوت يكاد ألّا يكون مسموعاً، ما إن كان لارس قد وجد الخشب الذي ذهب للبحث عنه. قال لارس إنه وجده، وأضاف إنه في الصباح سيقوم بتسمير القطع. ثم سأل باربرو ما إن كانت قد رطّبت الخشبة الموجودة في الصندوق تحت المدفأة. قالت باربرو إنها فعلت ذلك. عندئذٍ خرج لارس وتابع عمله حتى حان وقت النوم، وعندما عاد وجد فيليكس نائماً في المطبخ، وحده.

عندما استيقظ لارس في اليوم التالي، كانت العتمة ما زالت تسكن

النافذة من الخارج. لبس ثيابه ونزل إلى المطبخ، حيث كان فيليكس نائماً، وأدرك من صوت أنفاسه أنه ما زال حيّاً، لم يمت.

أكل، وخرج إلى السقيفة السويدية، أحضر بعض المسامير، ومطرقتين، وتدرّب على تبشيم المسامير على السندان. وجد بعض القطران والقنّب، سخّن القطران في سطل على وابور كاز، وقطع طولين من القنب. بعد الغداء انضمت إليه باربرو. استلقت على بساط تحت القارب، وسندت الخشبة بصخرة، بينما كان لارس مستلقياً داخل القارب ويسمّرها بالمسامير المبشّمة. أصبح في القارب الآن خشبة فاتحة اللون ونصف ضلع فاتح اللون بين أخشاب سوداء من القطران. وضعا القارب في الماء، صعدا على متنه، وتركا الريح تجرفهما كما تشاء. رشحت بضع قطرات من الماء. فأثنت باربرو على عملهما. وسألته متى سيُصلح الدفّة؟ قال إنه سيقوم بذلك في الصباح. فجدّفا حول اللسان وسحبا القارب إلى الشاطئ وثبّتاه في وضع رأسي.

عادت باربرو إلى البيت. أحضر لارس سطلاً وبدأ ينقل ماءً من البحر إلى القارب، حتى غمر الماء منطقة الإصلاح، كي يتمدّد الخشب. وعندما فرغ من ذلك، كانت الرياح قد بدأت تهبّ ثانية. فدخل إلى السقيفة وعمل على فصل الخيوط والشباك التي أنقذوها. وتساءل ما إن كان عليه أن يغسلها.

غسل الشباك في ذروة الموسم؟

تراجع عن الفكرة، وبدلاً من ذلك، علّق العوّامات إلى جانب بقية عدّة الصيد على طاولة تحضير طعوم الأسماك. عاد إلى البيت شاقّاً طريقه في الظلام بين نُدف الثلج الغزيرة. في المطبخ لفت انتباهه وجهٌ، كان وجه فيليكس الواقف هناك في انتظاره.

- 49 -

الشمس عالية في كبد السماء، استعادت الطيور جوقتها الغنائية الصاخبة، وخيوط الثلج الرقيقة، التي ما زالت تفترش الأرض، تتلألأ فوق الجزيرة وتجعلها تبدو مثل حمار الوحش. باربرو جالسة على كرسيّها ثانيةً أمام السقيفة، وتنسج الشباك. وسوزانا لا تبتعد عن إنغريد قيد أُنملة، وقد اكتشفت إنغريد مع خيوط الفجر الأولى أن الهاجس الذي لا يحتمل، ليس أن والدها فقط، بل أمها أيضاً قد اختفت إلى الأبد، يداهمها مثل عصفة ريح قوية، ثم يختفي، وعندئذٍ فقط يحضر والداها، يحضران عندما تفكّر بأشياء مختلفة وعيناها تطوفان الجزيرة، التي ما زالت كما كانت دوماً.

واكتشفت اكتشافاً آخر أيضاً.

نامت تحت الشمس بجانب غيضة الحب. وعندما استفاقت وجدت نفسها وحيدة.

نهضت، تلفّتت حولها ولم تجد سوزانا. بدأت تبحث عنها ولم تجدها. راحت تركض، شمالاً وجنوباً، مثل فرسٍ محاصرة. بدأت تصرخ. كانت تركض لاهثة وتصرخ حتى اشتعلت النار في أحشائها، وما عادت تعرف من تكون ولا ما تفعل. ثم رأتها في جنوب الجزيرة. كانت سوزانا

جالسة على الشاطئ بجانب طوفٍ وتجمع أصدافاً، ثم رفعت محارة -بلح البحر- بيضاء مثل الثلج وأكبر من يدي طفل، وكانت دائرية تماماً.

فهمت إنغريد أنها قد أصبحت أمّاً.

كان ذلك الشعور مروّعاً.

جمعت الأصداف في مريلتها وسارت مع سوزانا إلى البيت، فقريباً يحين وقت إطعام الحيوانات. وقالت إنغريد لسوزانا إنها عندما كانت صغيرة اعتقدت أن الأصداف نقود، لأن الأصداف هي أجمل ما يمكن أن يجده المرء على جزيرة. كانت تجمع الأصداف وتكوّمها على إطارات نوافذ البيت والحظيرة، حتى قالت لها أمها ذات يوم إن عليها أن تجد مكاناً تدفن فيه كنزها. ثم أخذت سوزانا معها وراحت تبحث عن المكان الذي دفنت فيه أصدافها. فكّرت إنغريد أن سوزانا ستكمل عامها الرابع في غضون هذا الشتاء، واكتشفت أنها لا تعرف تاريخ ميلاد الطفلين. عندما فكّرت إنغريد في سوزانا وعيد ميلادها وكنز الأصداف الذي لم تجده، لم تعد تفكّر في أيّ شيء آخر، وعادت الجزيرة، ثانيةً، كما ينبغي أن تكون.

كلّ شيء يتغيّر في الجزيرة عندما لا يبقى فيها إلا الأطفال، وبضمنهم باربرو. باربرو لم تكبر أبداً. بلى، لقد كبرت بالتأكيد. وإنغريد، هل هي طفلة؟ كلّا، فقد كبرت في العاشرة من عمرها. أما لارس فقد وُلِدَ كبيراً. إذاً، هم ثلاثة كبار وطفلان. والآن لديهم خمسة عشر حَمَلاً جديداً، واضطرّوا إلى دفن حَمَلٍ واحد، وكان لونه أسود، أما الثاني فهم يغذّونه من زجاجة الحليب، لأن لا حليب في ضرع الأم. كما أصبح لديهم ثلاثة عُجول، أشرفت باربرو على ولادتها. تقول إنغريد إن عليهم أن يستمرّوا في حفر الخنادق في جيس أوي، ويستأنفوا العمل الذي بدأه هانس. لكن لارس يتذكّر الصمت الذي حلّ بينه وبين خاله عندما جدّفا عائدَين من

هناك، وعينا لارس لا تفارقان البحر أيضاً، مثل هانس، وكذلك الأمر بالنسبة لفيليكس، والسؤال الآن هو متى سيبدؤون في نقل الأحجار عبر الجزيرة، من أطلال كارفيكا لبناء مرفأ جنوب الرصيف السويدي.

تتجاهل إنغريد هذا الكلام.

يفلحون حقل البطاطس القديم. تقوم باربرو بدور الفرس، ولارس بدور الحصان أحياناً. لكن لن يُزرع الجزر هنا، ولا يعرفون كيف يفعلون ذلك. يغسلون عدّة الصيد، ويصلحون بيوت طيور العيدر. ومن جديد لا حفر للخنادق في جيس أوي، ويتساءلون متى سيفعلون ذلك. تجمع إنغريد وسوزانا البيض، وتختبرانه في الماء قبل أن تضعاه في رمل رطب في سطول صغيرة وكبيرة. تعطي إنغريد لسوزانا حفنتين من ريش العيدر، وتعلّمها الفرق بين الريش الرائع والريش الذي هو إعجاز الخالق. بينما لارس وفيليكس يقطعان التورف وقد هدّهما التعب والضجر. يقول لارس إن هذه أسوأ وظيفة على الإطلاق. ينهكهما الحرّ والرطوبة، رغم أنهما يعملان في جورة باردة، ويبدو أنهما يعملان في الفحم، أو يهطل المطر، ويتبلّلان ويغطّيهما الطين في الحفرة ذاتها وهما يكافحان مع أدوات هانس القديمة، يقطعان التورف ويرميان القطع على الحشيش خارج الحفرة، حيث لا أحد هناك ليكدّسها مخروطياً، فيضطرّان في غالب الأحيان أن يقوما بنفسيهما بعمليتي التقطيع والتكديس.

يسمعان هدير محرّك سفينة بولص، فيتركان العمل ويصعدان من الحفرة، ويسيران باتجاه الرصيف بالتزامن مع خروج إنغريد وباربرو وسوزانا من البيت، يصلون إلى الرصيف معاً، ويشاهدون بالقرب من ممخضتي اللبن الفارغتين على متن السفينة سيّدتين في فستانين ومعطفين. يعرفون إحداهما، وهي كارين لويس مالبيرغيت، زوجة القسّ، مثلما هي

دائماً رقيقة ووضّاءة في نهار الشمال. لكنّهم لا يميّزون السيدة الثانية، ماريا هيلينا بارأوي، التي عادت من المستشفى بشعرٍ وبَشرةٍ رماديين كما لو أنهما لم يريا الشمس من قبل، كأنهما شعر وبشرة جثة في قبر.

إن كانوا لا يميّزونها، فهي تميّزهم جميعاً، حتى سوزانا وفيليكس اللذان لا يتذكّرانها. تصعد الرصيف ببطء وتضع يديها على رأسَيْهما وتبتسم لهما ابتسامة باهتة، كما تردّ بالابتسامة ذاتها على نحيب إنغريد، التي كانت قد دفنتها هي ووالدها، إلى الأبد. حتى باربرو تضطرّ أن تشيح بوجهها، تشاغل نفسها بالاهتمام بالعربة وممخضتَي اللبن.

ثم يصعد بولص إلى الرصيف، ويسألهم ما إن كان لديهم سمك قدٌّ مجفّف، وما إن كانوا سيبيعونه بسعر مقارب لسعر المركز التجاري؟

«لماذا ليس بالسعر نفسه؟!»، يسأل لارس.

«أجور النقل»، يقول بولص.

«لكنك لا تدفع ثمن الوقود من جيبك!»، يقول لارس.

«ربما أنت على حقّ!»، يقول بولص، ويسأل ما إن كانت النوعية ممتازة.

«أجل، ممتازة جداً!»، يقول لارس.

فيقول بولص إن خبراء الجودة من يقرّر ذلك.

ينظر لارس إلى ماريا ثم إلى إنغريد التي ما تزال تنشج، ويفكّر أن هذه العائدة إلى البيت حولها هالة نورانية لا أحد يجرؤ على اقتحامها، قبل أن تمسك إنغريد بيدها وتصعد بها إلى البيت والآخرون من ورائهما. يسمع لارس كارين ماليرغيت تقول لفيليكس إنه يبدو الآن مثل أمير الظلام.

«من أين لك كلّ هذا السواد؟».

ويسمع فيليكس يضحك، ثم يلتفت إلى بولص ويقول إنهم سينقلون بأنفسهم السمك المجفّف إلى المركز التجاري، ويبيعونه بالسعر الذي يدفعونه هناك.

«أوه، لديكم نقود إذاً؟!»، يسأل بولص وينظر كمن عرف سرّاً. فيقول لارس إنهم حصلوا على حصة صيد كاملة مقابل استخدام أدوات صيدهم في لوفوتن هذا الشتاء. فيسأل بولص ما إن كانوا قد حصلوا على النقود. فيقول له لارس إن إرلينغ جاء في الشهر الماضي، أعطاهم النقود وعدّة الصيد، التي سيجهّزونها من أجل الشتاء القادم.

«نقود، عدّاً ونقداً؟!»، يقول بولص غير مصدّق.

نعم، يقول لارس، ويشعر أن المحادثة قد طالت، وهو يريد أن يلحق بالآخرين، ويرى ما إذا كان سيعرف ماريا، ثانيةً. لكن بولص يخلع قبعته ويقول إن أسماكه المجففة هي من الدرجة الثانية.

«بسبب الذباب الأزرق؟»، يقول لارس.

«نعم».

هذا يعني أن الحرارة مرتفعة هناك حيث تضع سقالتك.

يصعد بولص إلى سفينته وعلى وجهه تعبير غريب. يسرع لارس الخطا وقد حصل على شيء يفكّر فيه. يفكّر أن هناك ما لا يعرفه، عن العالم والأسعار، إضافةً إلى المالك الجديد للمركز التجاري. وبدلاً من أن يصعد إلى البيت، يذهب إلى السقيفة، يُخرج القارب وينطلق مجدّفاً. يصل إلى المركز التجاري مع وصول سفينة النقل من بيرغن، التي تتسبّب بصخب وحركة على الرصيف الذي كان قد فرغ من الناس لهذا اليوم.

يصعد لارس ويقف بالقرب منهم كطفل فضولي، ويلاحظ أنه سيجري تحميل السمك المملّح الآن، ويرى أن المالك الجديد شابّ صغير، في

عشرينياته، وقد رآه لارس ذات مرّة من قبل، ويُفاجأ لأنه يرتدي ثياباً مثل أيّ عامل، بينما كان توميسين الشاب يلبس ربطة عنق وصدرية، وأن الفارق الوحيد بين المالك الجديد وعمّاله هو أن صوته أعلى من أصواتهم، ويداه في جيبيه.

يغتنم لارس فرصة تجوّل خبير الجودة بين صناديق السمك المملّح وهو يشير للعمّال أياً منها يجب أن تفرغ محتوياتها على أرضية بيت الملح ليستطيع تحديد كمية أسماك الدرجة الثانية، وتحديد النسبة المئوية التي ستُصنّف بها إرسالية السمك هذه، معاينة ميدانية. لقد شاهد لارس هذه العملية من قبل، وعرف أنها لحظة مهمة جداً، بالنسبة لحسابات المركز الاقتصادية، وما تنطوي عليه من أخطار في الحسابات المالية النهائية في نهاية فصل الشتاء. وعلى الرغم من ذلك، يسأل لارس المالك الجديد، بانغ يوهانسن، فهو يتذكّر اسمه جيداً، ما إن كان يشتري سمكاً مجفّفاً، وبأيّ سعر.

ينظر بانغ إلى لارس، لكنه لا يسمع جيّداً ما قاله، لأن انتباهه موجّه إلى خبير الجودة الذي يشير إلى كدسة سمك، وتبدو للارس خياراً ممتازاً، من خلال مراقبته عيني بانغ يوهانسن وملاحظته الابتسامة الخاصة التي تومض على وجهه، ثم يطلب من لارس أن يعيد سؤاله. وعندما يفرغ لارس من سؤاله، يغمغم بانغ يوهانسن بضع كلمات، ثم كمن يقرأ من ورقة، أو يكرّر كليشة يحفظها عن ظهر قلب، يقول: «هذه أوقات صعبة والنقل مكلف، إلخ». لكنّه يقول سعراً أعلى مما تجرّأ لارس على الحلم فيه بسبب معلومات بولص. فيسأله متى يمكنه تسليم السمك. فينظر بانغ يوهانسن، أخيراً في عيني لارس ويسأله ماذا يقصد. ينتظر لارس حتى يطرح بانغ سؤاله الثاني: «هل لديك سمك؟».

«نعم»، يقول لارس.

«حسنٌ. لكن ينبغي أن تُرسل أباك!».

كان لارس على وشك أن يقول أنا أبو نفسي. وبدلاً من ذلك، ينتظر حتى يدرك بانغ يوهانسن أنه قد قال كلاماً سخيفاً، ثم يسأله: «كم لديك؟».

«لا أعرف، بالضبط».

«حسنٌ. أحضِر ما لديك إذاً!».

«وريش العيدر؟ هل تشتري ريش العيدر أيضاً؟».

«وهل لديك ريش العيدر؟!».

«نعم».

«كم لديك؟».

«لا أعرف، بالضبط».

«بالتأكيد. اجلب الريش أيضاً، وسوف نختبره!».

يفكّر لارس في أن يقول له أن لا أحد يختبر ريش عيدر بارأوي، لأنه أنظف من الذهب، لكنّه يؤجّل قول ذلك، ويسأله: «وبيض؟».

فيضحك بانغ يوهانسن ضحكة مجلجلة، ويقول له إنه يرغب أيضاً في شراء البيض.

«لكن، بحقّ الجحيم، لماذا أنت داكن اللون إلى هذه الدرجة؟!».

في الطريق إلى البيت يتذكّر لارس السؤال الذي سأله إياه هانس عندما كانا جالسين في حديقة الجرب يتأملان السقيفة والرصيف الجديدين، ذات مساء صيفي ثقيل حيث يمكن أن تطول الأفكار حتى قبّة السماء: «ما الذي تعتقد أننا بحاجته في بارأوي؟»، واعتقد لارس حينذاك أن بارأوي

لا ينقصها شيء. فقال هانس إن بارأوي بحاجة إلى قارب. قارب بمحرّك. مركب شراعي. زورق بخاري، قارب بمحرّكٍ في الحد الأدنى. من الغباء أن يكون لديك رصيف من الحجر، وسقيفة، دون أن يكون بجانبه دائماً قارب بمحرّك.

«ميناء سفن»، قال لارس. لا بدّ أن ذلك كان في العام الماضي، أو الذي قبله. وعندئذٍ فهم لماذا لا تستطيع سفينة اللبن أن تقترب من بارأوي في الطقس العاصف.

واستطرد هانس قائلاً: «لدينا ما يكفي من الحجارة لنبني ميناء بطول خمسة أو ستة أمتار على الجهة الأخرى من الرصيف السويدي، وهذا سيغيّر من حركة التيارات والأمواج في المنطقة».

لقد فكّر لارس كثيراً في هذا الأمر منذ وفاة خاله، وفي أطلال كارفيكا ما يكفي من الحجارة، وراح يتأملها وهو يجدّف عائداً إلى الجزيرة في ذلك المساء. كما أن لقاءه مع بانغ يوهانسن كان له أثر في ترجيح الفكرة في رأسه. رجل يداه في جيبيه، وهو يتحدّث عن أسعار السمك المقدّد. إضافة إلى أفكار أخرى خطرت له على وقع ضربات المجدافَين في الماء، والسؤال عما إن كان هناك أشياء أخرى تحتاجها بارأوي، وهذه ينبغي أن يكتشفها بنفسه الآن، ويفعل ما يستطيع منها، وإذا ما قارن المرء، على سبيل المثال، بارأوي مع جزيرة أخرى، أو أماكن أخرى، تصبح الأفكار محيّرة. تتراكم الأفكار طوال فصل الشتاء، لكن ليس هناك ما يقارنها به.

- 50 -

أثناء وجود لارس في المركز التجاري، تجلس إنغريد في المطبخ، وتراقب أمها التي وجدت كرسيّها وجلست تنقّل نظرها بين النافذة وابنتها والآخرين وهي تبتسم بشفتين بيضاوين، مزمومتين، وعظمتا خدّيها بارزتان كثيراً، وتقول شكراً للقهوة، كما لو أنها في زيارة بيت غريب، وشكراً على اللوفسر، التي تقدّمها لها باربرو في طبق البورسلين البولندي.

ترفع ماريا الفنجان والصحن معاً وتُمعن النظر فيهما، وتومئ برأسها وكأنها قد أصبحت أكثر من ضيفة في بيتها، أو تضع يديها في حضنها. وإنغريد تخرج من الغرفة وتعود، تبكي عندما تكون في الخارج، وتبتسم عندما تكون في الداخل.

تلحق بها كارين لويس وتطلب منها أن تتحدّثا على انفراد، والأمر لا يتعلّق بوضع ماريا، بل بالنقود. يبدو أن والدها قد رهن عقار بارأوي مقابل قرض من البنك، رقم الرهن 55، على العقار /1/، إضافة إلى قرض سابق، بكفالة من القسّ ماليبرغيت، لقد سدّد والدها كلّ ما ترتّب عليه، ولا مشكلة في ذلك، لكن هناك الآن دفعة مستحقة، ثلاثمئة كرون، لمصرف سباري بانك في الأول من شهر تموز، إضافةً إلى فاتورة كبيرة

ينبغي تسديدها للمركز التجاري، مقابل ما استجرّوه من بضائع في الشتاء، وإذا فكّرت إنغريد ماذا يعني أن يضع البنك يده على بارأوي، قد لا يكون الوضع بالسوء الذي تتخيّله للوهلة الأولى، لأنهم يستطيعون أن يشتروا أرضاً جديدة هناك في القرية، وقد تحدّثت كارين لويس مسبقاً مع بولص، وهو ليس فلّاحاً، ويرغب فعلاً في بيع أرضه مقابل مبلغ معقول، تقول كارين ذلك لاهثة وخجلة، وتختم هذه الخطة الكبيرة بقولها لا بدّ أنهم قد عاشوا شتاءً عصيباً في بارأوي، تبدو كما لو أنها تتحدّث إلى مريض.

لا تستطيع إنغريد أن تعارض هذه السيّدة، فهي في نهاية المطاف تمثّل الحكومة في هذه الأبرشية، فتطلب منها الانتظار، وتصعد إلى الصالة الجنوبية تأخذ ثلاثمئة كرون من النقود التي أعطاها لهم العم إرلينغ ثم تنزل وتعطيها لكارين لويس مالبيرغيت، وتطلب منها أن تدفع القسط بالنيابة عنها، وتنهي الأمر مع البنك، أما في ما يتعلّق بفاتورة المركز التجاري فلا يمكن أن تكون كبيرة، لأنهم دفعوا مقابل كلّ مشترياتهم هذا الشتاء.

تزداد حمرة خدّي كارين لويس.

تأخذ إنغريد زمام المبادرة وتقول إنها تريد منها أن توقّع إيصالاً بأنها استلمت هذه النقود، وأنها ستدفعها للبنك حصرياً، وليس لأي جهة أخرى. تسألها كارين لويس من أين حصلت على هذا المبلغ الكبير، وتغمغم أن لا ضرورة للتوقيع.

تعود إنغريد إلى الغرفة وتجلس بجانب أمها، وتسألها عن الندبتين الموجودتين على صدغيها. تبتسم ماريا.

تدخل كارين لويس إلى الغرفة، ثم تجلس وتشرب رشفة قهوة باردة من فنجانها، وتقول «لا، شكراً!» لباربرو التي عرضت أن تصبّ لها المزيد من القهوة.

تنظر إلى سوزانا التي تصعد وتجلس في حضن إنغريد، ثم تسترق النظر إلى ماريا، وتسأل: «من تكون هذه السيّدة؟».

«هذه أمي»، تقول إنغريد وتحملها وتضعها في حضن ماريا، ثم تدخل إلى الغرفة وتأتي بورقة وحبر. تجلس وتكتب الإيصال. تقرأ كارين لويس على مضض، وتقول إنها نسيت التاريخ، وأيّ تاريخ ينبغي أن يكون. تكتب إنغريد التاريخ. توقّع كارين لويس وتقول إن ذلك لم يكن ضرورياً أبداً، ثم أوه، كلّا! فهي تسمع الآن صوت سفينة بولص.

لكن هذا ليس صوت سفينة اللبن، إنه في أفضل الأحوال صوت ضربات مجاديف لارس، الذي يربط قاربه الآن ويصعد إلى البيت. يدخل لارس إلى المطبخ مباشرة، ثم ينظر حوله وكأنه قد دخل قبراً، ويرى على الطاولة الإيصال والنقود. فيسأل: «ما هذا الذي على الطاولة؟».

«اذهب واغتسل. وخذ معك فيليكس، أيضاً!»، تقول إنغريد.

«ما هذا الذي هناك؟!».

تلوذ إنغريد بالصمت. تتناول كارين لويس النقود وتضعها في حقيبتها الجلدية، بنيّة اللون ومزيّنة بلآلئ خضراء. تطوي إنغريد الإيصال وتبقى تلوّح به حتى تنهض كارين لويس وتطلب من لارس أن يخرج معها.

تلاحقهما إنغريد عبر النافذة. لارس يمشي بجوار زوجة القس باتجاه الرصيف، ثم يتوقّف ويفتح فمه ويصرخ ببعض الكلمات في وجهها.

تضع كارين لويس يديها على أذنيها وتنحني إلى الأمام. يستمر لارس في الصراخ، فتضع يديها على أذنيها، وتنحني أكثر، قبل أن تشدّ قامتها ثانية وتمشي مسرعة باتجاه الرصيف، بينما يستدير لارس ويعود إلى البيت مسرعاً، يدخل المطبخ، يمسك بمجرفة المدفأة ويضرب إنغريد على رأسها فيتناثر دمها فوق الطاولة والإيصال. تدوخ إنغريد. تسمع صراخها.

وترى باربرو تطوّق لارس بذراعيها. لارس يقاومها ويلوّح بيديه ويصرخ. تنهض إنغريد ثانية، تتلمّس موقع الألم في جبهتها، وعندما ترى الدم على يدها، تنحني ثم تلتقط مجرفة المدفأة وتضربه بها على رأسه، مرّتين. فتصرخ باربرو أيضاً. تدفع لارس جانباً، ثم تطوّق إنغريد، التي تبدأ ترفس وتعضّ.

يراقب فيليكس وقد جحظت عيناه دهشةً. وتبتسم سوزانا وهي ترضع إصبعها.

تُنزل ماريا سوزانا عن حضنها ثم تنهض وتمشي إلى المجلى تمسك بذراع المضخّة وتحركه جيئة وذهاباً، تتذوّق الماء، ثم تحرّكه بسرعة أكبر. فتترك باربرو إنغريد وتطوّق ماريا بذراعيها وتوقف المضخّة.

«الماء، الماء...».

يهدأ الجميع.

يتذكّر لارس أن عليه أن يكشف على السمك، إذ ينبغي ألّا يتعرّض لحرارة عالية الآن. فيخرج ويتجه إلى سقالات التجفيف، ويلحق به فيليكس.

يسأله فيليكس ما إن كان الجرح في رأسه يؤلمه. يلعق لارس الدم بلسانه، ثم يزحف تحت السقالة متفحّصاً الأسماك واحدة بعد الأخرى بحثاً عن بيوض الذباب أو أيّ شيء آخر. يكرّر فيليكس سؤاله. يتجاهله لارس، فهو مشغول بالحساب، والعدّ، ويجول ببصره في الجزيرة ليتأكّد من أمرٍ.

«دعنا نعود، ونطلب من الماما بعض الماء الدافئ!»، يقول له لارس.

بعيداً وبالقرب من البيت، يرى إنغريد وأمها تخرجان إلى الفناء، ماريا في فستانها فاتح اللون، وإنغريد تلبس فستاناً أيضاً، وتمسك بيد ماريا كأنها

هي أمها، من هي الأم ومن هي الطفلة؟ وتلحق بهما سوزانا، يمشين إلى جنوب الجزيرة عبر الحقول ويُجفِلنَ الطيور، التي تطيَر، ترفرف فوقهن مثل أوراق بيضاء، ثم تغطّ ثانية، حتى إنه يستطيع أن يسمع كلامهن، لكنه لا يفهم فحواه. يقول لفيليكس ثانية، دعنا نذهب ونحصل على ماء دافئ من باربرو.

- 51 -

لديهم مهمّتان في القرية. المهمة الأولى في بيت القسّ. وهذه ستقوم بها إنغريد بمفردها، رغم اعتراض لارس، الذي سيقوم هو وفيليكس بالاهتمام بالقارب والسمك المجفّف وبيوض النوارس، بينما تجلس إنغريد في بيت القسّ وتتلقّى صدمة.

تصدمها مراجعة القسّ اللبقة، لكن القاسية جداً، لتصرّفات والدها المالية والعقارية خلال حياته، لا يقصد الكاهن أن والدها قد تحايل كثيراً على هذه الأرض، بل إنه لم يكتفِ فقط بالعيش في بارأوي، بل أراد أن يبنيها أيضاً، مثل أيّ وارثٍ يريد أن يُوَرِّثَ أكثر مما وَرِثَ، وهذا هو ناموس الحياة، دورتها، قانونها. لكن هذا يعني أن ما اعتقدت إنغريد طيلة حياتها أنه صخرة راسخة في البحر، لم يكن أكثر من طوفٍ متعفّن، وقد نجح والدها في الإبقاء عليه طافياً.

تتساءل وهي جالسة هناك، ما إن كانت أمها قد عرفت هذا كلّه، وتسأل القسّ. فينفي القس معرفته، غير أن نظرته قالت لها إن عليها أن تسأل شخصاً آخر، ومن سيكون هذا الشخص؟

تمتنع إنغريد عن قول المزيد، كي تبقى على الجانب الآمن.

ينهض مالبيرغيت ويمشي دون أن تسمع إنغريد وقع خطواته على السجادة التي تغطي أرضية الغرفة، يقدّم لإنغريد شراب التوت، ويأخذ لنفسه بعض القهوة، ثم يجلس ثانية، يفتح درجاً، يخرج منه بعض الأوراق، ويدخل في صلب الموضوع، وهو أن إنغريد ستحصل الآن على صكّ الرهن العقاري، بعض الإيصالات، شهادة وفاة والدها، وصكّ ملكية بارأوي، باعتبارها الوريث والمالك القانوني الوحيد للجزيرة، لعدم وجود أشقّاء أو زوج كامل الأهلية العقلية، وهذا إجراء مهيب، إشارة إلى شيء أكبر منهما، يترك بصمته على هذه الغرفة الساكنة حيث ينظر إليهما رسول غفل الاسم، من مكانه الخفيّ على الجدار.

إنغريد مرعوبة.

لكنها تنتفخ، داخلياً، وتقرأ كل ما هو مكتوب في صكّ الملكية، عدد الجزر الصغيرة والكبيرة والشعب المرجانية في مملكتها، حالما تبلغ سن الرشد، الأراضي المزروعة، وغير المزروعة، حقّها في المياه، والتورف، والتوت والصيد والأخشاب وما تحمله الأمواج إلى الجزيرة... كتابة قوطية، خطوط منقّطة، خطوط زرقاء، خطوط سوداء، كتابة يدوية، وختم أحمر...

يسألها القسّ عن حال أمّها.

ترفع إنغريد نظرها عن الورق وتفكّر.

تقول إنها لا تعرف، لأنهما لا تنامان في الغرفة ذاتها. فهي تنام مع سوزانا، والقطة في الصالة الجنوبية، بينما تنام ماريا بمفردها في غرفة إنغريد القديمة. في النهار تجلس في المطبخ أو تحت الشمس في الخارج، أحياناً تدخل للعمل في الحظيرة، لكنها نادراً ما تطهو الطعام، وتدريجياً، ينبغي أن يجعلوها تبدأ نهارها قبل ساعة...

يومئ القسّ برأسه.

لدينا الكثير من الأبقار، تقول إنغريد، وأرض صغيرة. ونحن بحاجة إلى حصان. لقد فكّرَتْ في هذا كلّه، بناء على حقيقة أن والدها كان آلة حيّة قادرة على فلاحة عشرين دونماً بالمنجل، وفي العام الماضي استطاع لارس أن يفلح ثلاثة دونمات، وباربرو اثنين، وهي دونماً واحداً فقط. كان بوسعهم أن يضعوا نير المحراث القديم على إحدى الأبقار، لكن العمل سيكون مجهداً وسيخسرون حليب البقرة، وقد فلحوا حقل البطاطس على البقرة، لكن باستخدام سكة محراث واحدة فقط. ثم كان عليهم توزيع جهد العمل بين المراعي والحقول، ولم يكن الأمر سهلاً ولا مُجدياً.

يشعر القس ماليرغيت أنه قد اكتشف مسألة حسابية، كيف أن الأشياء تُحسب بطرق مختلفة، وأن إنغريد تبحث عن القاعدة الذهبية لإدارة بارأوي، من خلال ضبط النسبة المثالية بين الحيوانات والأرض، والبشر والبحر، توازن دقيق ينبغي ضبطه بعناية بطريقة يمكن فيها لعدد معيّن من الناس أن يعيش هناك، لا أكثر ولا أقل، وعلى وجه الدقة، هذا العدد الموجود هناك الآن فعلاً، ويبتسم لاكتشافه هذا.

يتوصّلان إلى خلاصة الأمر. يمتدح القس نضجها، ويفتح الدرج ثانية -كما لو أنه ينهي موعظة- ويدفع لها عبر الطاولة مجموعة أوراق أخرى، نسخاً من شهادات معمودية فيليكس وسوزانا، ويقول إنها ينبغي أن تحرص على التحاق فيليكس بمدرسة هافستاين في الخريف. وقد سمح لنفسه بمراسلة المدرسة بالنيابة عن فيليكس.

تنهض إنغريد، وتعلن قبولها للمهمة، رغم معرفتها أنها لن تكون مهمة سهلة، وإذا كانت قد أصبحت أمّاً في غضون عام، كذلك أصبح لارس أباً، وربما أدرك ذلك، وهو ليس في نيّته العودة إلى المدرسة.

لكن هذا الاجتماع لم ينتقص من مكانتها.

تنحني باحترام، وتفكّر أنها وعلى الرغم من أنها لم تجرؤ على طرح المسألة الصعبة، وقد تحاشى القس أن يطرقها أيضاً، مسألة مستقبل الطفلين، فإن شهادتَي المعمودية أيضاً لم تقرّبهما من هذه المسألة. تضع إنغريد الشهادتين في المغلّف إلى جانب صكّ الملكية، وشهادة وفاة والدها.

لقد خرج لارس وفيليكس من المركز التجاري، ويجلسان الآن على غطاء صندوق الفحم أمام المركز، ويشعر لارس أنه يلاحظ خفّة في مشية إنغريد وهي تنزل من بيت القس، وأنها تبدو مثل مُدَرِّسَةٍ وهي متأبطةً المغلّف بقوّة. يقفز عن الصندوق، ويسألها ما إن كانوا سيحصلون على القارب، قارب بمحرّك، وإذا كان القسّ سيكفلهم، إن لم يكن لديهم المال الكافي الآن؟

تقول إنغريد إنهم لن يحصلوا على قارب، لكنهم سيحصلون على حصان.

حصان؟

هذا غباء منقطع النظير بالنسبة للارس، فقد كان لديهم حصان من قبل، كان يعمل شهراً في السنة، ويأكل وينام أحد عشر شهراً.

«وهل ستحرث كل بارأوي بالمنجل؟»، تسأله إنغريد.

يصمت لارس. فتقول إنغريد إنهم سيستعيرون حصاناً.

«سنستعير حصاناً من أحصنة أدولف في مالفيكا. لديه ثلاثة أحصنة».

«وكيف سيصل إلى بارأوي؟ هل سيسبح؟».

توضح له إنغريد أن بولص سينقل الحصان بالسفينة، كما ينقل الثيران، والأكباش.

«ألن يكون هذا مكلفاً جداً؟!»، يسأل لارس.

«كلا، بما أننا سنحتفظ ببقرتين فقط»، تقول إنغريد.

«لماذا؟».

تشرح إنغريد أن بقرتين تنتجان ما يكفي من الحليب للحفاظ على العلاقة مع شركة الألبان، خصوصاً أن مرورها بجزيرتهم أصبح ضرورة لا غنى عنها. لكنها لا تقول له إن سفينة الألبان يمكن أن تُستخدم واسطةَ نقل إلى المدرسة، ولا إن وجود بقرتين فقط سيخفّف من كمية العمل في الحظيرة، عندئذٍ تتفرّغ باربرو لحياكة الشباك، وتجهّزها هي للاستخدام، إلى جانب قيامها بقطاف التوت، والأعمال الأخرى، بينما ماريا... لم تعد إنغريد تستخدم كلمة «أمي».

«وسيكون لدينا خراف أكثر؟».

من الآن فصاعداً، سترعى الخراف لبعض الوقت في بارأوي، ومعظم الوقت، منذ ذوبان الثلج إلى أطول وقت ممكن بعد عودة الثلج، سترعى في سكوغهولمن، كنوتن، وجيس أوي.

لا يستطيع لارس أن يعترض على هذا الجزء من الخطة أيضاً، وقد اقتربا الآن من المركز التجاري، حيث سيقومان بالمهمة الثانية.

يجلب لارس القارب إلى تحت الرافعة. يرفعون أولاً السطل الرصاصي الثقيل المليء بالبيض، ثم سمك القدّ المجفف. يسمع بانغ يوهانس جلبة على الرصيف، فيخرج ليستطلع الأمر.

يقرّر بانغ أن يختبر البيض في الماء، فيرفع غطاء أحد السطول، يزيح الرمل الرطب جانباً، ثم يتناول أربع بيضات كبار من بيوض النورس، واثنتين من بيوض العيدر، وتغرق جميعها في الماء، كما ينبغي، لكنه لا يختبرها في سطل، بل في حوض غسيل، عمقه متر تقريباً، ويضطرّ إلى

الانحناء فوق حافة الحوض لإخراجها من الماء ثانية، فيتبلّل جذعه العلوي بالماء. يضحكون منه، فيبتسم ويسألهم: «كم بيضة يوجد في هذا السطل؟».

«ثمانون»، يقول لارس.

«هل لديكم المزيد؟».

«نعم، لدينا سطلٌ آخر. سنجلبه غداً».

يومئ بانغ يوهانسن برأسه، ثم يتفحّص السمك المجفّف الذي كدّسوه على لوح تحميل، ولا يجد فيه أيّ عيب. فيقول: «لكن الأسعار انخفضت اليوم، بسبب السوق...».

«يا ابن الحرام!»، يقول لارس.

«ماذا قلت؟!»، يسأل بانغ يوهانسن.

يوشك لارس أن ينطقها ثانية، عندما تمسك إنغريد بأذنه، وتقول: «إنه لا يعرف ماذا تعني».

«أنا أعرف»، يقول فيليكس، فينال شدّة من أذنه أيضاً. يبتسم لارس ويخفض بصره إلى السمك المكدّس على اللوح، ويهزّ بانغ يوهانسن برأسه، ويقول: «صغار أشقياء»، ثم ينظر ثانية إلى السمك ويسألهم ما إن كانوا سيبيعونه. تطلب منه إنغريد أن يزن السمك، ويعطيهم وصل استلام بالكمية، والشيء نفسه بالنسبة للبيض. يزن بانغ يوهانسن السمك تحت أنظار ستة عيون، ويعطيهم وزناً مطابقاً لوزن القبّان لديهم في بارأوي. ويسلّمهم إيصالاً بالكمية والعدد.

«وماذا عن ريش العيدر؟».

بهدوء وثقة بالنفس، تقول له إنغريد إنهم يمكن أن يناقشوا أمره في ما بعد.

«لماذا ليس الآن؟».

طريقة سؤاله، نظراته، وتعابير وجهه تجعلها تتساءل، وتسأله ما إن كان حقاً يريد ريش العيدر. فيؤكّد لها أنه يريده فعلاً. وقد خبرت إنغريد هذه الموقف من قبل، مع والدها، عندئذٍ كان التاجر يعطي سعراً معيّناً، فيقول والدها نعم، أو لا، ثم يغادر خالي الوفاض أحياناً. وتسأله إنغريد عن سعر شراء ريش العيدر الآن. يجيبها بانغ. فتقول ثانية إنها ستفكّر في الأمر، وقبل ذلك سيجلبون الكمية المتبقية من السمك، في غضون ثلاثة أو أربعة أيام، والبيض أيضاً. يومئ بانغ يوهانسن برأسه: «أجل، أجل، والبيض أيضاً».

في طريق العودة، يجذّف لارس وفيليكس، بينما تجلس إنغريد على مؤخرة القارب وفي حضنها المغلّف أسمر اللون، وتستمتع بتغلغل رياح الصيف اللطيفة في شعرها.

«لماذا تبتسمين؟!»، يسأل لارس.

«لا لشيء»، تقول ملكة بارأوي، التي يبحر بها، إلى مملكتها، اثنان من رعيّتها لا يعرفان أيّ خطط في جعبتها، ولن يسمعا بها قبل أن تضعها موضع التنفيذ. لقد تعلّمت ذلك من والدها. التكتّم. المفاجأة. وصكّ الملكية والنسختين في الظرف. لا، لقد تعلّمت هذا من أمها. أم أن هذه فطرتها؟ لا تستطيع أن تتذكّر. ما عادت تبتسم. في هذه اللحظة، تفتقدهما معاً، كما لم تفتقدهما منذ أن توفيا. ولارس ينظر في اتجاه آخر.

- 52 -

كان لدى هانس باراُوي ثلاثة أحلام: حلمٌ بقارب بمحرّك ديزل، حلم بجزيرة أكبر، وحلم بحياة مختلفة. تحدّث كثيراً عن الحلمين الأوّلين، مع القاصي والداني، لكنه لم يتحدّث عن الحلم الأخير حتى إلى نفسه.

وكان لدى ماريا ثلاثة أحلام، أيضاً: حلم بأولاد أكثر، حلم بجزيرة أصغر، وحلم بحياة مختلفة. وبخلاف زوجها، فكّرت ماريا كثيراً بالحلم الأخير، الذي أصبح أكبر وأكثر وطأة بعد أن ذوى الحلمان الأوّلان وصارا أثراً بعد عين. وعندما مات زوجها، بدأت تشعر بالندم.

الندم على الحلم هو أكثر المشاعر التي يمكن أن يعيشها الإنسان تدميراً. فقد ندمت على إحساسها أن الجزيرة كانت كبيرة، بكلّ الأعمال الثقيلة التي تطلّبتها، وندمت لأنها تمنّت أولاداً أكثر، لأن لديها إنغريد.

بعد ذلك تسلّل إليها التهديد خلسةً. شعورٌ وُلد منذ أن اقتحم جزيرتهم ذلك المحكوم، وسرق منهم الشيء الذي لم يعرفوا أنه كان بحوزتهم، وترك وصمة عار في حياتهم، شيء جاء مع الريح، والطيور والبحر، ومع الثلج، والماء في المطبخ، ومع النسور التي بدأت تحطّ على سطح سقيفة القارب الجديدة. كان بوسعها أن تسمع دويَّ مخالب القطّ على الأرض، الدويَّ الذي تفاقم إلى قطرة ماء كبيرة تتقلّص وتنبسط مثل قلب حيوان.

سآخذ بيدك إلى المطبخ يا أمي، تقول إنغريد، وتقف في باب غرفة طفولتها وتنتظر حتى تنهض ماريا وتلبس ثيابها.

تنزلان إلى المطبخ، وتشربان القهوة وتأكلان الفطور الذي وضعته باربرو على الطاولة، قبل أن تذهب للاهتمام بالحيوانات، التي ترعى الآن في الجزيرة على مدار اليوم. وعندما يحتقن الحليب في ضروعها، تعود إلى البيت وهي تخور وتوقظ كلّ من يسمعها، وهذا الصيف باربرو هي من تلعن، وتنهض، وتحلبها، بينما تقوم إنغريد بأعمال أخرى. تصعد ثانية وتوقظ سوزانا، وتتفرّج عليها وهي ترتدي ثيابها، الثياب التي ارتدتها هي من قبل، ثم تنزل وتكمل فطورها، وبعدئذٍ يخرجن إلى الحقول سواء كان الطقس صافياً أو ماطراً.

يتجوّلن في الجزيرة، ويلاحظن أن الحشيش قد كبر، ويدركن أنه سيصبح أطول. ثم تجدّفان إلى الجزر وتعدّان الخراف. تتذكّر ماريا بعض الأشياء، لا كلّها، وتقول، آه، نعم، وتتذكّر أشياء لا تتذكّرها إنغريد. وتسأل كم ولداً لديها. تقول إنغريد إنهم ثلاثة. كلّا، تقول ماريا. فهي تنطق بعض الكلمات البسيطة، وكأنها تتدرّب عليها: قارب، منارة، حصان... ها قد وصل الأولاد، تقول عندما ترى القارب عائداً بعد رحلة نهار لتوصيل السمك المجفّف إلى المركز التجاري. تصيح إنغريد: «لا بدّ أنكما تذكّرتما إيصال الاستلام؟». لا يجيبها لارس. يصعد السلّم ويتجه مباشرة إلى البيت ليأكل، وفيليكس في إثره.

ابتسامة ماريا.

لا تنتمي إلى هذا المكان.

يجلسون على الرصيف وتحدّثهم عن زوجها وماذا كان يلبس عندما التقيا، ماذا قال، وعن أفكاره، ترمش إنغريد بعينيها، لكنها تتركها تسترسل

في كلامها، الحصان، الرمل، المدفأة... ترمي سوزانا الحصى في البحر وتقف متوازنة على حافة الرصيف. تقول لها إنغريد أن تتوقّف عن ذلك. فتعلّق ماريا إن الطفلة تبدو جميلة، ممشّطة ومرتبة مثل دمية، وتدرك إنغريد أن الطفلة قد توسّخ ثيابها إذا لاحظت اهتمام ماريا، لأنها بدأت تتعلّم كيف تستغل سحرها. في المساء ستذهب معها إلى الحظيرة لتحلب البقرات، فالبقرات ترعى في حديقة الأنداء الآن، حيث لا يستطيعون استعمال آلة الجزّ، والحشيش يعلو كل يوم، وأكثر أيام السنة هدوءاً تمضي وراء بعضها بعضاً دون ليل، بينما ينمو الحشيش، ويهطل المطر، وتشرق الشمس، وتزعق النوارس، إلى أن يُحضِر بولص الحصان.

منتصف ليلة ربيعية قمرية وكل الأصوات داخل زجاجة، صوت الليالي البيض. تلاحظ إنغريد أن نظرة ماريا تتغيّر حالما يقع نظرها على الحصان، الذي ربط بولص قوائمه وجذعه العلوي ورأسه إلى درابزين القارب، وقمرة القيادة، والصاري. يقف الحصان ثابتاً مثل دمية خشبية وقد أسقط على سطح السفينة كومة من روثه.

يضعون المعبر الذي صنعه لارس وفيليكس، يُنزَلُ الحصان إلى الشاطئ، وسيبقى في باراوي إلى الليلة القمرية التالية، لمرة واحدة في أيام الكلب(*)، كما حسبت إنغريد، عندئذٍ يكون لديهم الوقت لفلاحة حقلٍ جديدٍ للبطاطس في الصيف القادم.

(*) تشير عبارة أيام الكلب إلى أشد أيام الصيف حرّاً، وتكون عادة في شهري تموز وآب في نصف الكرة الشمالي، أما في النصف الجنوبي فتكون في شهري كانون الثاني وشباط. تعود تسمية أيام الكلب إلى الرومان الذين أطلقوا على هذه الأيام اسم diēs caniculārēs، وربطوا بين الطقس الحار وظهور نجم الشعري اليمانية، النجم الأكثر لمعاناً في كوكبة الكلب الأكبر. واستعمل الإغريق هذا المصطلح أيضاً. (م).

وينقل إليهم بولص أيضاً شحنة بضائع من المركز التجاري. ستحرص إنغريد على أن تسير الأمور كما ينبغي، لكنها ترى ثانية تلك النظرة في عيني ماريا، وقد وضعت يدها على عُرفِ الحصان كما لو أنها ترحّب به، وتدور عيناها في محجريهما، تخفض رقبتها وتمرجحها، ويدها لا تزال في عرف الحصان، ثم ترفع رأسها وتنظر إلى إنغريد بعينين ثابتتين. تتقدّم إنغريد لتحرّر عرف الحصان من قبضة ماريا وتأخذها إلى البيت، لكن ماريا تترك عرف الحصان من تلقاء نفسها، ثم تربّت على رقبته وتقول: «لقد أطلقوا النار على الحصان».

«ماذا؟».

«أطلقوا النار على الحصان، واعتقدوا أننا لم نرهم».

يأخذ الآخرون الحصان إلى الجنوب. وتصعد ماريا وإنغريد إلى البيت، وتجلسان على سطح خزّان الماء. تسقط أشعة شمس منتصف الليل على شعر ماريا وتجعله كتلة من البياض، لا يمكن ضَفرُها. تقول ماريا إنها تحدّثت مراراً إلى زيزينيا في المستشفى، أو حاولت، لكنها لن تعود.

تومئ إنغريد برأسها.

«أتفهمين ما أقول؟».

تومئ إنغريد برأسها.

«جيد».

تسألها إنغريد ما إن كانت تريد أن تعود إلى الصالة الجنوبية. تقول ماريا أن لا داعي لذلك. وتخبر إنغريد إنها أرادت أن تخبر الأطباء عن دويّ مخالب القط، لكنهم أرادوها أن تحدّثهم فقط عن زوجها، ولم تستطع أن تتذكّر إلا أمراً واحداً، وهو إصراره الدائم على الجلوس قبالتها

على طاولة المطبخ كي لا تغيب عن بصره لثانية واحدة، لقد قال لها ذلك قبل سنة، أو ربما سنتين. وبعدها غطّتْ في نوم لم تستيقظ منه إلا بعد أن وضعت يدها على حصان وشعرت بعضلاته تتنفّس تحت جلده الحار. تقول إنغريد إنها تفهم، لكنها تشعر بالقلق وتسأل ما إن كانت أمها تعتقد أن أباها قد عرف مسبقاً أنه سيموت. تفكّر ماريا وتؤكّد لها أنه مات ميتةً طبيعية، مات عندما حان أجله، كان موته مثل كثير من الأحداث الطبيعية التي يصعب التنبّؤ بها.

- 53 -

أطلقوا على الحصان اسم فيلهلم على اسم القيصر، وكان مختلفاً عن حصانهم القديم. فهو لم يُفاجأ بوجوده على جزيرة، ولم يرفس، لطيف لكنّه كسول، ويستلقي وينام حالما يفكّون عنه ما كان يجرّه. وكان بوسع سوزانا وفيليكس أن يمتطياه.

ووصل مع الحصان برميلان من زيت الكتّان، كيسا مسحوق، واحد كبير وآخر صغير، وبعض الفُرَش، فقد قرّرت إنغريد أن تطلي البيت.

«ستكون غرفة الجلوس بيضاء».

النوافذ، وإطار جملون السقف، ستكون باللون أخضر.

عندما لا يعملون في جزّ الحشيش وتجفيفه، يطلون البيت. وماريا أيضاً. تطلي النوافذ بهدوء، وعناية. كان ذلك أول بيت يُطلى في بارأوي. ولم يغيّر الطلاء البيت فقط، بل الجزيرة كلها؛ غيّر هيئة الصخور والرمال والعشب والحيوانات والأشجار. عندما فرغوا من طلائه، لم يستطيعوا أن ينظروا إليه، على أي حال لم يصدّقوا ما رأوا.

ذلك البيت الرمادي القديم، غرفة الجلوس، يبدو أنه قُدَّ من ثلج أبيض هطل للتو، يبدو أنه يقع في مكان آخر، على اليابسة، في مدينة، يبدو كمملكة

فاحشة الثراء تتألق بكلّ بهائها هنا دون أيّ مُنافس، لقد كان صدمة، جسماً غريباً، وكان كافياً ليجعلك تموت من الضحك.

كانوا يخرجون إلى الحقول في المساء، ويلتفتون وينظرون إلى البيت ويفكّرون أنهم يعيشون هناك. وأول ما يفعلونه في الصباح، أيضاً: يخرجون وينظرون إلى البيت، كانت رؤيته تمنحهم الطاقة، والمزاج الجيّد. أصبحوا يفضّلون البقاء في الخارج على البقاء داخل البيت، وهذا ما لم يكن يحدث من قبل.

ومن غيضة الحب، يبدو البيت مختلفاً عنه عندما ينظرون إليه من جزيرة الجليد، وكارفيكا، فقد كان متغيّراً ومتحرّكاً ومرئيّاً من الجزر الأخرى، كان برجاً، علامة في البحر، أيقونة. وكان الناس يقتربون بقواربهم من الجزيرة ويتساءلون ما الذي يفعله أهل باراوي، ويسألونهم ما إن كان الطلاء مكلفاً، وصعباً، وما إن كان يدوم طويلاً، قبل أن يتابعوا التجديف إلى بيوتهم ورؤوسهم مليئة بالأفكار.

كان البيت مرئيّاً بوضوح من المركز التجاري. ومن السماء، من البحر، من الجبال على اليابسة، من مقرّ الحكومة في العاصمة، ومن بورنيو(*)، لم يكن هناك جزيرة في العالم إلا وتراه.

ربطوا جزّازة العشب إلى الحصان، وجزّوا العشب في الحديقة الوردية، وحديقة الجرب وحديقة عدن. ووجدوا كلّ الحفر القديمة لأعمدة التجفيف، وأعادوا نصبها كما كانت عليه دوماً، شمال جنوب،

(*) بورنيو جزيرة في جنوب شرق آسيا. وهي أكبر جزر سوندا الكبرى وثالث أكبر جزيرة في العالم بعد غرينلاند وغينيا الجديدة، الجزيرة مقسّمة بين دول إندونيسيا وماليزيا وبروناي. (م).

لكيلا تقلبها الرياح بعد الآن، أسلاك خضراء رمادية مائلة مقابل الجدران الصخرية.

وحصلت خلال الصيف تطوّرات متتالية ما كانوا يجرؤون على أن يأملوا في حصولها. فقد جاء العم إرلينغ في زيارة مع عائلته، وأيّد إنغريد في تصوّرها للمدرسة. واضطرّ لارس أن يتحلّى بالصبر سنة أخرى قبل أن يأخذوه معهم إلى لوفوتن.

لم تعرف هيلغا ماريا ولم تستطع أن تخفي إحباطها، خيبتها التي لا تخفى على عين، كما لم تعرف سوزانا، الطفلة التي كانت لا تزال في الحفاضة عندما رأتها أول مرة، ولا فيليكس الصغير الناصح الذي أصبح نحيفاً مثل عصا وأكبر من سنواته الثماني التي لم يكملها بعد، بحسب نسخة شهادة المعمودية التي تحمل اسمه، اسمه الذي ستغيّره إنغريد، حالما تسنح لها الفرصة، من توماسين إلى بارأوي.

عندما جاء بولص ليعيد الحصان، أدركوا أخيراً ما كان يعرفه أسلافهم جيّداً. عرفوا أن الحصان يمكن أن يكون ضيفاً عابراً في الجزيرة، وهذا أمر يتعلّق بمساحة الجزيرة، التي قد يجد صعوبة في التأقلم معها، وله علاقة أيضاً بالعشب، والنقود، والطموحات، والعمل والحسابات السماوية.

أخيراً، يقرّرون جزّ الأرض المُستصلحة في جيس أوي.

يجب أن يجزّوها بالمناجل.

يناقشون ما إذا كانوا سيقيمون سقالات لتجفيف العشب هنا أيضاً. إنغريد تريد ذلك. لا يوافقها لارس الرأي. ترى إنغريد أن نقل العشب الجاف أسهل من نقل العشب الأخضر. يقول لارس إن هذا يعني، في كل الأحوال، نقل الأعمدة والأسلاك، والمطارق والعتلات في الاتجاهين. ماريا تؤيّد إنغريد، وكذلك سوزانا. باربرو تؤيّد لارس، وكذلك فيليكس.

تقول إنغريد إن المدرسة قاب قوسين. يبدي فيليكس حماسه للمدرسة، في حين يمتنع لارس عن التعليق. في باراُوي معسكران. ودائماً ينجح أحدهما في إرادته.

في يوم حارّ من أيام الصيف المتأخرة يرتفع في الأفق، فجأةً، ضبابٌ بحريّ رمادي مثل جدار، ويزحف نحوهم ببطءٍ، تاركاً وراءه الجزر واحدة بعد الأخرى في عتمة رمادية مزرقّة، يبتلع ويلفّ الحجر والبشر بغطاء خامٍ باردٍ. قبل ذلك كانت الرؤية شاملة وواضحة، والآن لا يستطيعون حتى أن يروا خرافهم، ولا حبال تجفيف الحشيش، أو الشجيرات أو المنارة أو البيت المتألق في باراُوي. يكادون لا يرون العشب أمام أقدامهم والدموع التي تكرج عليه رغم أن السماء لا تمطر.

يجلبُ الضباب الظلامَ في منتصف النهار، يَكسُفُ الشمس ويحجبُ البصر. يضعون أدواتهم جانباً ويصمتون، يلفّون أنفسهم بثياب دافئة، يجلسون على الصخور، ويتركون أفكارهم تسرح بحريّة في نورها الداخلي، مثلما ينظر العميان إلى الداخل لأن لا خيار آخر لديهم، وتجد ذكرى أو خصلةً من شيءٍ لا أحد يعرف ما هي، ولا يستطيع أحدٌ أن يشارك فيها ولا حتى أن يستفيد هو منها.

عندما يغيب البصر، تصبح الحواس الأخرى أكثر قوة، هذه الرائحة النفّاذة لنبات القرّاص والمستنقع والأعشاب البحرية والصوف الرطب، والضباب المالح كالبحر الذي ولده، مثل مداعبةِ يدٍ غريبةٍ باردةٍ للجلد، وعلى الرغم من أن طيور العيدر تحلّق عالياً وتنشر أجنحتها فوق الحقول، والحشرات والحيوانات صامتة مثل البشر، يصدر عن الضباب صوت غريب، صفير، مثل صفير البحر في محارةٍ، أو صوت سحب فأر ميّت فوق ثلج جاف.

بعد مرور ساعة أو ساعتين تخترق الشمس كلّ شيء، في البداية مثل عين سمكة قدٌّ مسلوقةٍ في سديمٍ رقيقٍ بضع درجات إلى الشمال، ثم مثل صُفرةٍ ذهبيةٍ تتوهّج وتتوهّج حتى تبدّد وتدمّر آخر طبقةِ ضبابٍ وتُطلقُ البصرَ، من جديد، مثل أحصنةٍ برّية في كلّ الاتجاهات. ثم كأن يوم عملهم قد انتصف، أو أنهم قد حصلوا على يوم عمل جديد داخل اليوم القديم، ويستطيعون أن يتابعوا عملهم بالمنجل من جديد.

روي ياكوبسن

كاتب نرويجي من مواليد أوسلو 1954. أصدر مجموعته القصصية الأولى «حياة مصادرة» في 1982، ونال عليها جائزة تريا فيسوس (جائزة أفضل أول عمل أدبي، تمنحها جمعية الأدباء النرويجيين). تفرّغ للكتابة في عام 1990. ألّف ياكوبسن خمس مجموعات قصصية، وكتاباً للأطفال، وتسع عشرة رواية، ونال خمس عشرة جائزة أدبية مرموقة. ورُشّحت روايته «اللامرئيّون» لجائزة مان بوكر الدولية في عام 2017، وكانت أول رواية نرويجية تُرشّح لهذه الجائزة.

يتميّز ياكوبسن بإنتاجه الأدبي المتنوّع من القصص القصيرة المشبعة بالمحتوى النفسي، وتقنيات السرد المتعددة، وباستخدامٍ انتقائيّ للصور واللغة، إضافةً إلى الروايات الأوسع نطاقاً التي تتميّز بثروة من المعرفة التاريخية والأدبية واللغوية والسياسية، من عصر ملحمة آيسلندا إلى تاريخ الحرب في القرن العشرين في القارة الأوربية وفي روسيا وفنلندا. هذا النوع من الكتابة جعل الناقد النرويجي الكبير «تريغفي براتيلي» يصف روايات ياكوبسن بأنها سينما طبيعية. وقد تُرجمت أعماله إلى 41 لغة عالمية.

محمد حبيب

مترجم من سورية مقيم في النرويج. عضو في جمعية القلم النرويجية. له العديد من الترجمات عن اللغتين الإنكليزية والنرويجية.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ولدت "إنغريد باراوي" في جزيرة صغيرة قبالة الساحل الشمالي الغربي للنرويج، جزيرة يقطنها أفراد أسرة واحدة فقط، يعيشون طموحاتهم وأحلامهم التي تصطدم بحدود الأرض والطقس، ورحمة البحر الذي يوفّر لقمة العيش، لكنّه يجلب الموت أيضاً.

يحلم الوالد "هانس" ببناء رصيف يربطهم بالبرّ الرئيس، لكن الاتصال بالعالم الخارجي له ثمن، ستعرفه "إنغريد" تماماً بعد أن تكبر وتذهب لتعمل هناك عند عائلة ثرية، وتعتني بطفليها. ومع اختفاء الزوجين ذات يوم، لا تجد بدّاً من العودة إلى بيتها برفقة الطفلين، وهكذا يزداد سكّان الجزيرة عدداً، وتبدأ حياة مختلفة، خصوصاً مع استيقاظ النرويج على عالم أوسع، عالم حديث متقلّب ويمكن أن يكون قاسياً.

"اللامرئيون" هي استجوابٌ عميق للحرية والقدر، مكتوبٌ بسردٍ رهيف، وجمل مقتضبة بسيطة هادئة تشوبها توتّرات شعرية، لتكوّن لوحةً من السينما الطبيعية تجعل "اللامرئي" مرئيّاً بوضوح.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN 978-9933-641-44-3

9 789933 641443 >

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع